بسم الله الرحمن الرحيم

التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

الجزء الثاني والعشرون

التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

في آخر الكتاب فهرسة ألفبائية شاملة

يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم

الأنفال ٨/٢٤

الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي

رئيس قسم الفقه الإسلامي ومذاهبه في جامعة دمشق

الجزء الثاني والعشرون

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

خصائص أهل بيت النبوة

﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صالِحاً نُؤْتِها أَجْرَها مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنا لَها رِزْقاً كَرِيماً (٣١) يا نِساءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجاهِلِيَّةِ الْأُولى وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكاةَ وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً (٣٣) وَاذْكُرْنَ ما يُتْلى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آياتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللهَ كانَ لَطِيفاً خَبِيراً (٣٤)﴾

الإعراب :

﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَ ... وَتَعْمَلْ﴾ من ذكّر يقنت ويعمل حمله على لفظ ﴿مَنْ﴾. ومن أنّث «تعمل» حمله على لفظ «من» لأن المراد بها المؤنث. ولا مانع في النحو من التذكير بعد التأنيث ، كما في قوله تعالى : ﴿وَقالُوا : ما فِي بُطُونِ هذِهِ الْأَنْعامِ خالِصَةٌ لِذُكُورِنا ، وَمُحَرَّمٌ عَلى أَزْواجِنا﴾ [الأنعام ٦ / ١٣٩].

﴿إِنِ اتَّقَيْتُنَ﴾ شرط ، وجوابه : إما قوله : ﴿فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ أو ما دل عليه قوله تعالى : ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ﴾ وتقديره : إن اتقيتن انفردتن بخصائص من جملة سائر النساء ، بدليل قوله تعالى : ﴿لَسْتُنَ﴾.

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَ قَرْنَ﴾ أصله «اقررن» من قرّ يقرّ ، فنقلت فتحة الراء بعد حذفها إلى القاف ، فلما فتحت القاف استغني عن همزة الوصل ، وحذفت الراء لتكررها مع نظيرها ، وتكررها مع نفسها ، وقرئ «قرن» بكسر القاف ، إما من «وقر يقر» أي اسكن ، وإما من «قرّ يقرّ» والأصل فيه «اقررن» فنقلت الكسرة إلى القاف بعد حذف الراء.

﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ إما منصوب على الاختصاص والمدح، كقوله ﷺ: «سلمان منا أهل البيت» أي أعني وأمدح أهل البيت، وإما منصوب على النداء، كأن قال: يا أهل البيت، والأول أوجه.

البلاغة:

﴿وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجاهِلِيَّةِ﴾ تشبيه بليغ، أي كتبرج أهل الجاهلية، فحذفت أداة التشبيه ووجه الشبه.

﴿وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ عطف عام على خاص بعد قوله: ﴿أَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكاةَ﴾ فإن الطاعة تشمل جميع الأوامر والنواهي.

﴿لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ استعارة، استعار الرجس للذنوب والمعاصي، والطهر للتقوى؛ لأن عرض العاصي يتدنس، وعرض التقي نقي كالثوب الطاهر. و ﴿تَطْهِيراً﴾ ترشيح للتنفير.

المفردات اللغوية:

﴿يَقْنُتْ﴾ يخشع ويخضع ويدم على الطاعة، والقنوت: الطاعة في سكون والعبادة في خشوع. ﴿نُؤْتِها أَجْرَها مَرَّتَيْنِ﴾ مثلي ثواب غيرها من النساء، مرة على الطاعة ومرة على طلبها رضا النبي ﷺ بالقناعة وحسن المعاشرة. ﴿وَأَعْتَدْنا﴾ أعددنا وهيأنا. ﴿رِزْقاً كَرِيماً﴾ في الجنة زيادة على أجرها سالما من العيوب والآفات. ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ﴾ أي لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء في الفضل أي لا مثيل لكن في جماعة النساء في الفضل. وأصل ﴿كَأَحَدٍ﴾ وحد بمعنى الواحد، ثم وضع في النفي العام، وهو في النفي يستوي فيه المذكر والمؤنث والواحد والجمع الكثير. ﴿إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾ الله، فلم تخالفوا حكمه، وأرضيتم رسوله. ﴿فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ لا تلنّ القول للرجال مثل قول المريبات. ﴿مَرَضٌ﴾ تطلع إلى الفسق والفجور والريبة. ﴿وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً﴾ حسنا من غير خضوع، بعيدا عن الريبة غير مطمع أحدا.

﴿قَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ أصله: اقررن، أي الزمن بيوتكن، بفتح القاف من قررت، وبكسرها من وقر يقر، من القرار أي السكون، يقال: قررت في المكان أقرّ به: أقمت فيه. أو من قرّ يقرّ. ﴿وَلا تَبَرَّجْنَ﴾ أي لا تتبرجن، والتبرج: إبداء المرأة للرجل ما يجب عليها ستره من محاسنها. ﴿تَبَرُّجَ الْجاهِلِيَّةِ الْأُولى﴾ ما كان قبل الإسلام من الجهالات كإظهار النساء محاسنهن للرجال. ﴿وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ في سائر الأوامر والنواهي. ﴿الرِّجْسَ﴾ الذنب أو الإثم أو النقص المدنّس للعرض. ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ نساء النبي ﷺ، وهو منصوب على المدح أو النداء. ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ أي ويطهركم من المعاصي.

قال البيضاوي : وتخصيص الشيعة أهل البيت بفاطمة وعلي وابنيهما الحسن والحسين رضي الله عنهم ، والاحتجاج بذلك على عصمتهم ، وكون إجماعهم حجة : ضعيف ؛ لأن التخصيص بهم لا يناسب ما قبل الآية وما بعدها ، وحديث العباءة التي أدخل فيها النبي فاطمة وعلي وولديهما يقتضي أنهم أهل البيت ، لا أنه ليس غيرهم.

﴿وَاذْكُرْنَ ما يُتْلى فِي بُيُوتِكُنَ﴾ أي عظن النساء بما يتلى ، وتذكرن نعم الله عليكن من جعلكن أهل بيت النبوة ومهبط الوحي ، مما يوجب قوة الإيمان والحرص على الطاعة. ﴿وَالْحِكْمَةِ﴾ هي حديث المصطفى ﷺ . ﴿إِنَّ اللهَ كانَ لَطِيفاً﴾ بأوليائه وأهل طاعته. ﴿خَبِيراً﴾ بجميع خلقه ، يعلم ويدبر ما يصلح في الدين.

المناسبة :

اقتضى عدل الله ورحمته أن تكون زيادة العقاب مقرونة بزيادة الثواب ، فبعد ذكر مضاعفة العذاب على نساء النبي ﷺ عند ارتكاب الفاحشة ، ذكر تعالى خصائص لهن ، أولها ـ مضاعفة الثواب لهن على العمل الصالح ، وإعداد الرزق الكريم في الجنة وهو ما يأتي بنفسه ، على نقيض رزق الدنيا الذي لا يأتي بنفسه ، وإنما بواسطة الغير. وثانيها ـ امتيازهن على سائر النساء ، وثالثها ـ أمرهن بقوة الكلام وعدم إلانة القول للرجال ، ورابعها ـ الأمر بالقرار في البيوت والنهي عن التبرج ، وخامسها ـ مطالبتهن بمداومة الطاعة بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله ﷺ فيما يأمر وينهى ، وسادسها ـ تحقيق صون العرض والسمعة عن الذنوب والمعاصي والتجمل بالتقوى ، وسابعها ـ الأمر بتعليم غيرهن القرآن والسنة النبوية ، وتذكر نعمة الله تعالى عليهن.

التفسير والبيان :

١ ـ مضاعفة الثواب : ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَتَعْمَلْ صالِحاً ، نُؤْتِها أَجْرَها مَرَّتَيْنِ ، وَأَعْتَدْنا لَها رِزْقاً كَرِيماً﴾ أي ومن تطع منكن الله ورسوله ، وتخشع جوارحها ، وتستجب لأمر ربها ، وتعمل صالح الأعمال ،

نضاعف لها الأجر والثواب مرتين ، لكونها من أهل بيت النبوة ومنزل الوحي ، وأعددنا لها زيادة على هذا رزقا كريما في الآخرة والجنة ، لا عيب ولا نقص فيه ولا منّة لأحد ويأتي بنفسه ، على عكس رزق الدنيا المشوب بالعيوب والنقائص والمنة ويتوقف على الغير الذي يمسكه ويرسله بواسطة إلى غيره ، ولأجل هذا لا يوصف في الدنيا بالكريم وصفا حقيقيا كاملا إلا الرزاق ، وفي الآخرة يوصف بالكريم الرزق نفسه.

ويلاحظ أنه تعالى عبّر هنا عند إيتاء الأجر بقوله ﴿نُؤْتِها﴾ للتصريح بالمؤتي وهو الله ، وفي الآية السابقة عبر عند العذاب بقوله ﴿يُضاعَفْ﴾ فلم يصرح بالمعذّب ، إشارة إلى كمال الرحمة والكرم ، ولأن الكريم عند النفع يظهر نفسه وفعله ، وعند الضرّ لا يذكر نفسه [1].

٢ ـ امتيازهن على سائر النساء : ﴿يا نِساءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ﴾ أي يا زوجات النبي ليس لكنّ شبيه في جماعة النساء في الفضل والمنزلة والشرف والكرامة ، لكونكن أمهات جميع المؤمنين ، وزوجات خير المرسلين ، ونزول القرآن في بيتكن وفي حقكن. وهذا التعبير كقولهم : ليس فلان كآحاد الناس ، ومعناه أن فيه وصفا أخص ومزية وفضيلة لا توجد في غيره. ونساء النبي كذلك ، وشرفهن مستمد من سمو منزلة النبي ﷺ القائل في الحديث المتفق عليه : «لست كأحدهم».

٣ ـ النهي عن لين الكلام : ﴿إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ ، فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ، وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً﴾ أي إن أردتن التقوى أو كنتن متقيات [2] مخالفة حكم الله تعالى ورضا رسوله ﷺ ، فلا تلنّ الكلام ولا ترققنّه عند محادثة الرجال ، وليكن كلامكن بجد وحزم وقوة ، حتى لا يطمع في الخيانة من في قلبه

---

(١) تفسير الرازي : ٢٥ / ٢٠٨

(٢) الكشاف : ٢ / ٥٣٧.

ميل إلى الريبة والفسق والفجور ، وقلن القول المعروف المعتاد الذي ليس فيه ترخيم الصوت ، البعيد عن الريبة ، الذي يختلف عن مخاطبة الأزواج.

وهذا النهي لا يعني أن أزواج النبي ﷺ على حال من السوء تقتضي المنع والكف ، وإنما المراد حملهن على أسمى الفضائل وملازمتها ، فلما منعهن من الفاحشة وهي الفعل القبيح ، منعهن من مقدماتها وهي المحادثة مع الرجال على وجه فيه ريبة وإطماع ، وإساءة فهم من في قلبه ميل إلى الفجور والفسوق والنفاق.

ونساء الأمة تبع لنساء النبي ﷺ في هذه الآداب التي أمر الله تعالى بها. والخلاصة : لا تخاطب المرأة الأجانب كما تخاطب زوجها.

وقوله : ﴿إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾ إما متعلق بما قبله ، على معنى : لستن كأحد إن اتقيتن ، فإن الأكرم عند الله هو الأتقى ، وإما أن يكون متعلقا بما بعده ، على معنى : إن اتقيتن فلا تخضعن.

ويصح أن يكون ﴿اتَّقَيْتُنَّ﴾ بمعنى استقبلتن أحدا من الرجال ، واتقى بمعنى استقبل معروف في اللغة ، قال النابغة :

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه ... فتناولته واتقتنا باليد

أي استقبلتنا باليد. قال أبو حيان : ويكون هذا المعنى أبلغ في مدحهن ؛ إذ لم يعلّق فضيلتهن على التقوى ، ولا علق نهيهن عن الخضوع بها ؛ إذ هن متقيات لله في أنفسهن ، والتعليق يقتضي ظاهرة أنهن لسن متحليات بالتقوى [1]. والمراد بقوله : ﴿مَرَضٌ﴾ ميل أو تشوف لفجور ، وهو الفسق وحديث السوء ، وهذا هو الأصوب ؛ فليس للنفاق مدخل في هذه الآية.

---

(١) البحر المحيط : ٧ / ٢٢٨

٤ ـ الأمر بالقرار في البيوت والنهي عن التبرج : ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولى﴾ أي الزمن بيوتكن ، فلا تخرجن لغير حاجة ، أخرج الترمذي والبزّار عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «إن المرأة عورة ، فإذا خرجت استشرفها الشيطان ، وأقرب ما تكون بروحة ـ رحمة ـ ربها ، وهي في قعر بيتها». وروى أبو داود أيضا عن النبي ﷺ قال : «صلاة المرأة في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها ، وصلاتها في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها». أما خروج النساء للمساجد فجائز للعجائز دون الشابات ؛ لما أخرجه أحمد ومسلم عن ابن عمر عن النبي ﷺ : «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله ، وليخرجن تفلات».

ولا تتبرجن تبرج الجاهلية القديمة قبل الإسلام : وهي ما كان قبل الشرع من سيرة الكفرة ، والتبرج : إبداء الزينة والمحاسن للرجال كالصدر والنحر ، بأن تلقي المرأة الخمار على رأسها ولا تشده ، فتظهر عنقها وقرطها وقلائدها.

٥ ـ مداومة الطاعة لله ورسوله : ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكاةَ وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ بعد أن أمرهن تعالى بالقول المعروف (وهو القول الحسن الجميل المعروف في الخير) وأتبعه ببيان الفعل المناسب للمرأة وهو القرار في البيوت ، ثم نهاهن عن الشر ، أمرهن بالخير في إقامة الصلاة (وهو أداؤها على الوجه المطلوب شرعا من الخشوع وإتمام الأركان والشروط) وإعطاء الزكاة (وهي الفريضة الواجبة شرعا والإحسان إلى الناس) وإطاعة الله ورسوله ﷺ في كل أمر ونهي.

وخص تعالى الصلاة والزكاة ، لأهميتهما وخطورتهما وآثارهما الكبرى ، فالأولى طهارة النفس وعماد الدين ، والثانية طهارة المال وطريق مقاومة الفقر ، فهما عمودا الطاعة البدنية والمالية.

وقوله : ﴿وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ من باب عطف العام على الخاص ؛ إذ ليس التكليف منحصرا بالصلاة والزكاة ، وإنما هو شامل لكل ما أمر الله تعالى به ونهى عنه ، وأمر الله والرسول واحد.

٦ ـ تحقيق السمعة العالية : ﴿إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ أي سبب تلك الأوامر والنواهي والمواعظ إنما هو لإذهاب المأثم عنكن ، وتطهيركن من دنس المعاصي والذنوب ، وتعمير قلوبكن بنور الإيمان.

وقد استعار الرجس (أو الرجز) للذنوب ، والطهر للتقوى ؛ لأن عرض المقترف للمعاصي يتدنس بها ويتلوث كما يتلوث بدنه بالأرجاس القذرة الحسية. وأما الطاعات فالعرض معها نقي مصون كالثوب الطاهر. وفي هذه الاستعارة تنفير عما نهى الله عنه ، وترغيب فيما أمر به. والرجس يطلق على الإثم وعلى العذاب وعلى النجاسة وعلى النقائص ، فأذهب الله جميع ذلك عن أهل البيت.

وأهل البيت : كل من لازم النبي ﷺ من الأزواج والأقارب. وتوجيه الأوامر لهم لأنهم قدوة الأمة ، روى الإمام أحمد والترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ كان يمرّ بباب فاطمة رضي الله عنها ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر يقول : «الصلاة يا أهل البيت ، ﴿إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾».

٧ ـ الأمر بتعليم القرآن والسنة والتذكير بالنعم : ﴿وَاذْكُرْنَ ما يُتْلى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آياتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ ، إِنَّ اللهَ كانَ لَطِيفاً خَبِيراً﴾ أي تذكرن نعم الله عليكن من جعل بيوتكن مهابط الوحي ، ولا تنسين ما يتلى فيها من آيات الله في قرآنه ، وما ينزل على الرسول ﷺ من الحكمة البالغة والأحكام والعلوم والشرائع ، فاعملوا بها وعلموها ، إن الله لطيف خبير حين علم ما ينفعكم ويصلحكم في دينكم ، فأنزله

عليكم ، وجعل في بيوتكن الآيات والشرائع ، واختاركن زوجات لرسوله ﷺ ؛ فهو اللطيف فعله يصل إلى كل شيء.

وفي هذا حث على الطاعة والتزام التكاليف الشرعية ، وتنفير عن العصيان والمخالفة واقتراف المعاصي.

فقه الحياة أو الأحكام :

هذه الآداب سبعة أمر الله تعالى بها نساء النبي ﷺ ، ونساء الأمة في أغلبها تبع لهن في ذلك.

١ ـ طاعة الله والرسول والعمل الصالح من أزواج النبي ﷺ لها ثواب مضاعف ، ورزق كريم وهو الجنة.

٢ ـ لنساء النبي ﷺ منزلة وفضل وشرف يتميزون بها عن سائر جماعات النساء الأخرى ، لكن هذه الفضيلة مشروطة بشرط التقوى ، لما منحهن الله من صحبة الرسول ﷺ ، ونزول القرآن في حقهن ، وهذه درجة عالية. وكذلك تمتاز نساء الأمة عن غيرهن من جنس النساء بالتقوى والعمل الصالح ، ولكن درجتهن بالطبع أدنى من درجات أمهات المؤمنين أزواج النبي ﷺ.

٣ ـ على نساء النبي ﷺ أن يكون قولهن جزلا ، وكلامهن فصلا ، ولا يكون على وجه يظهر اللين والميل من الفجار ، كما كانت عليه الحال في نساء العرب من مكالمة الرجال بترخيم الصوت ولينه ؛ مثل كلام المريبات والمومسات. وهذا النهي ليس خاصا بنساء النبي ﷺ ، وإنما هو شامل لنساء المؤمنين أيضا. وعلى هذا ، فإن المرأة مأمورة بخفض الكلام ، ويندب لها إذا خاطبت الأجانب ، وكذا المحرّمات عليها بالمصاهرة ، كزوج الأخت أن تكون نبرات صوتها قوية من غير رفع الصوت.

وفي الجملة : القول المعروف : هو الصواب الذي لا تنكره الشريعة ولا النفوس.

٤ ـ أمر الله تعالى نساء النبي ﷺ بملازمة بيوتهن ، ونهاهن عن التبرج : وهو إظهار ما ستره أحسن. والخطاب وإن كان لنساء النبي ﷺ ، فقد دخل غيرهن فيه بالمعنى ، ولأن الشريعة تكرر الأمر فيها بلزوم النساء بيوتهن ، وعدم الخروج منها إلا لضرورة. وإنما خوطبت نساء النبي ﷺ بذلك تشريفا لهن ، وليكونن قدوة الأمة في الطهر والصون والعفاف.

وأما خروج السيدة عائشة رضي الله عنها في موقعة الجمل بين أنصار علي وبين طلحة والزبير ، فما كان لحرب ، ولكن اشتدت شكاوى الناس إليها من عظيم الفتنة ، ورجوا بركتها ، وطمعوا في الاستحياء منها إذا رأتها الجموع المتقاتلة ، فخرجت بقصد الإصلاح بين الناس ، وآثرت ذلك على خروجها للحج الذي كانت قد عزمت عليه ، مقتدية بقول الله تعالى : ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْواهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء ٤ / ١١٤] وقوله سبحانه : ﴿وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما﴾ [الحجرات ٤٩ / ٩]. والأمر بالإصلاح مخاطب به جميع الناس من ذكر وأنثى ، ولكن لم يرد الله تعالى بسابق قضائه ونافذ حكمه أن يقع إصلاح ، فدارت رحى الحرب واشتد الطعان ، وطعن جمل عائشة وعرقبه بعضهم ، فاحتملها محمد بن أبي بكر إلى البصرة ، ثم أركبها علي رضي الله عنه إلى المدينة في ثلاثين امرأة ، فوصلت إليها برّة تقية مجتهدة ، مصيبة مثابة في تأويلها ، مأجورة فيما فعلت ؛ إذ كل مجتهد في الأحكام مصيب.

٥ ـ الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وإطاعة الله ورسوله ﷺ في كل أمر ونهي.

٦ ـ إن كل تلك الأوامر والآداب بقصد تطهير أهل بيت النبوة من دنس

المعاصي ورجس المنكرات ، وجعلهن في طليعة النساء صونا وعفة ، وطاعة لله ورسوله ﷺ .

وأهل البيت النبوي : هم نساؤه وقرابته منهم العباس وأعمامه وبنو أعمامه منهم ، قال الرازي : والأولى أن يقال : هم وأولاده وأزواجه ، والحسن والحسين وعلي منهم ؛ لأنه كان من أهل بيته بسبب معاشرته ببنت النبي ﷺ وملازمته للنبي (١). وهذا واضح من ألفاظ الآية وسياقها ، فالخطاب في مطلع الآيات ونهايتها موجّه إلى زوجات النبي ﷺ .

لكن قال القرطبي : والذي يظهر من الآية أنها عامة في جميع أهل البيت من الأزواج وغيرهم. وإنما قال : ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ﴾ لأن رسول الله ﷺ وعليا وحسنا وحسينا كان فيهم ، وإذا اجتمع المذكّر والمؤنث غلّب المذكر ، فاقتضت الآية أن الزوجات من أهل البيت ؛ لأن الآية فيهن ، والمخاطبة لهنّ ، يدل عليه سياق الكلام (٢).

وأما الحديث الذي أخرجه الترمذي وغيره عن أم سلمة فهو كما قال الترمذي : هذا حديث غريب. ونصه : قالت : نزلت هذه الآية في بيتي ، فدعا رسول الله ﷺ عليا وفاطمة وحسنا وحسينا ، فدخل معهم تحت كساء خيبري ، وقال : «هؤلاء أهل بيتي» وقرأ الآية ، وقال : «اللهم أذهب عنهم الرجس ، وطهّرهم تطهيرا» فقالت أم سلمة : وأنا معهم يا رسول الله؟ قال : «أنت على مكانك ، وأنت على خير». وقال القشيري : وقالت أم سلمة : أدخلت رأسي في الكساء وقلت : أنا منهم يا رسول الله؟ قال : «نعم».

٧ ـ التذكير بنعمة الله على نساء النبي إذ صيّرهن الله في بيوت يتلى فيها

---

(١) تفسير الرازي : ٢٥ / ٢٠٩

(٢) أحكام القرآن : ٣ / ١٥٢٧

القرآن والحكمة وهي كلمات النبي ﷺ ، والأمر بالتفكير فيها ، والاتعاظ بمواعظ الله تعالى ، وإحسان الأفعال ، وحفظ أوامر الله تعالى ونواهيه ، وإخبار الناس وتبليغهم بها ليعملوا بها ويقتدوا.

وهذا يدل على جواز قبول خبر الواحد من الرجال والنساء في الدّين.

قال ابن العربي : في هذه الآية مسألة بديعة ، وهي أن الله تعالى أمر نبيه عليه الصلاة والسلام بتبليغ ما أنزل عليه من القرآن ، وتعليم ما علّمه من الدين ، فكان إذا قرأه على واحد أو ما اتفق ، سقط عنه الفرض ، وكان على من سمعه أن يبلّغه إلى غيره ، ولا يلزمه أن يذكره لجميع الصحابة ، ولا كان عليه إذا علّم ذلك أزواجه أن يخرج إلى الناس ، فيقول لهم : نزل كذا ، ولا كان كذا ، ولا يلزم أن يبلّغ ذلك الرجال [١].

المساواة بين الرجال والنساء في ثواب الآخرة

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً (٣٥)﴾

---

(١) أحكام القرآن : ٣ / ١٥٢٧

الإعراب :

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ..﴾ الآية : كله منصوب بالعطف على اسم ﴿إِنَ﴾ ، وخبرها : ﴿أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً﴾. وقوله : ﴿وَالذَّاكِرَاتِ﴾ حذف منه المفعول ، وكذلك : ﴿وَالْحَافِظَاتِ﴾ حذف مفعوله ، وتقديره : والذاكرات الله ، والحافظات فروجهن ، فحذف المفعول لدلالة ما تقدم عليه. وعطف الإناث على الذكور لاختلاف الجنسين ، وأما عطف الصنفين على الصنفين فمن عطف الصفة على الصفة بحرف الجمع ، لتغاير الوصفين ، وكأن معناه أن الجامعين والجامعات لهذه الطاعات لهم مغفرة.

البلاغة :

﴿وَالذَّاكِرَاتِ وَالْحَافِظَاتِ﴾ فيهما إيجاز بالحذف ، حذف المفعول لدلالة السابق عليه ، أي والذاكرات الله ، والحافظات فروجهن.

﴿أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ﴾ من باب التغليب ؛ لأنه إذا اجتمع الذكور والإناث ، غلّب الذكور ، ثم أدرجهم في الضمير.

المفردات اللغوية :

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ الداخلين في السلم المنقادين لحكم الله الآتين بأركان الإسلام ، والإسلام : الانقياد والخضوع لأمر الله. ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ المصدقين بأركان الإيمان ، والإيمان : التصديق بما جاء عن الله من أمر ونهي. ﴿وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ﴾ الخاضعين لله المداومين على الطاعة ، والقنوت : الطاعة في سكون. ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ في القول والعمل. ﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾ على الطاعات وعن المعاصي ، فالصبر : تحمل المشاق على المكاره والعبادات والبعد عن المعاصي. ﴿وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ﴾ المتواضعين لله بقلوبهم وأعضائهم ، والخشوع : السكون والطمأنينة. ﴿وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ﴾ بما وجب في مالهم. ﴿وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ﴾ الصوم المفروض في رمضان وغيره من النذور وكفارات الأيمان والقتل الخطأ. ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾ عن الحرام. ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ﴾ بقلوبهم وألسنتهم. ﴿أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً﴾ هيأ لهم مغفرة تمحو ذنوبهم ، وهي ما اقترفوا من الصغائر ؛ لأنهن مكفّرات. ﴿وَأَجْراً عَظِيماً﴾ على طاعتهم : وهو نعيم الآخرة.

سبب النزول :

أخرج الترمذي وحسّنه عن أم عمارة الأنصارية أنها أتت النبي ﷺ فقالت :

ما أرى كل شيء إلا للرجال ، وما أرى النساء يذكرن بشيء ، فنزلت : ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِماتِ﴾ الآية.

وأخرج الطبراني بسند لا بأس به عن ابن عباس قال : قالت النساء : يا رسول الله ، ما باله يذكر المؤمنين ولا يذكر المؤمنات ، فنزلت : ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِماتِ﴾ الآية.

وأخرج ابن سعد عن قتادة قال : لما ذكر أزواج النبي ﷺ ، قالت النساء : لو كان فينا خير لذكرنا ، فأنزل الله : ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِماتِ﴾ الآية.

وأخرج الإمام أحمد والنسائي وابن جرير عن عبد الرحمن بن شيبة قال : سمعت أم سلمة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ تقول : قلت للنبي ﷺ : ما لنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال؟ قالت : فلم يرعني منه ذات يوم إلا ونداؤه على المنبر ، قالت : وأنا أسرّح شعري ، فلففت شعري ، ثم خرجت إلى حجرتي ـ حجرة بيتي ، فجعلت سمعي عند الجريد ، فإذا هو يقول عند المنبر : «يا أيها الناس ، إن الله تعالى يقول : ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِماتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ﴾ إلى آخر الآية.

المناسبة :

بعد أمر نساء النبي ﷺ ونهيهن عن الأمور السابقة ، وبيان ما يكون لهن من ثواب ، أبان الله تعالى ما أعدّ للمسلمين والمسلمات من المغفرة والثواب العظيم في الآخرة.

التفسير والبيان :

هذه الآية وعد للرجال والنساء على الطاعة ، والاتصاف بهذه الخصال ، ذكر الله تعالى فيها عشر مراتب إشارة إلى ما يجب أن يكونوا عليه ، دون اتكال نساء النبي على صحبته وملازمته وقربهن منه :

١ ـ الإسلام والانقياد لأمر الله واتباع أحكام الدين قولا وعملا.

٢ ـ الإيمان والتصديق التام بما جاء عن الله من شرائع وأحكام وآداب. وهذا دليل على أن الإيمان غير الإسلام ، وأن الأول أخص من الثاني ، فالإيمان : هو الاعتقاد والتصديق الكامل مع العمل الصالح ، والإسلام قول وعمل بالفعل ؛ قال تعالى : ﴿قالَتِ الْأَعْرابُ : آمَنَّا ، قُلْ : لَمْ تُؤْمِنُوا ، وَلكِنْ قُولُوا : أَسْلَمْنا ، وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات ٤٩ / ١٤]. وفي الصحيحين : «لا يزني الزاني حين يزني ، وهو مؤمن» فيسلبه الإيمان ، ولا يلزم منه كفره بإجماع المسلمين ، فدل على أن الإيمان أخص من الإسلام.

٣ ـ القنوت : وهو دوام العمل الصالح ، والطاعة في سكون ، كما قال تعالى : ﴿أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجِداً وَقائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزّمر ٣٩ / ٩] وقال سبحانه : ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ﴾ [الروم ٣٠ / ٢٦]. وقال عزوجل : ﴿يا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ ، وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران ٣ / ٤٣].

ويلاحظ التدرج بين هذه المراتب ، فالإسلام : إسلام الظاهر من النطق بالشهادتين وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلا ، ثم يأتي بعده مرتبة يرتقى إليها وهو الإيمان الذي هو الإذعان والتصديق الباطني في القلب ، من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره ، ثم ينشأ عن مجموعهما القنوت الذي هو السكون والخشوع في الطاعة وأداء العبادة.

٤ ـ الصدق في القول والعمل ، وهو خصلة محمودة ، وعلامة على الإيمان ، كما أن الكذب أمارة على النفاق ، فمن صدق نجا ، وفي الحديث الصحيح عند أحمد والبخاري في الأدب ومسلم والترمذي عن ابن مسعود : «عليكم بالصدق ، فإن

الصدق يهدي إلى البرّ ، وإن البرّ يهدي إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرّى الصدق حتى يكتب عند الله صدّيقا ، وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وما يزال الرجل يكذب ويتحرّى الكذب ، حتى يكتب عند الله كذّابا». لذا كان بعض الصحابة ﷺ لم تجرّب عليه كذبة لا في الجاهلية ولا في الإسلام.

وهذه المرتبة تلي القنوت ، فإن من آمن وعمل صالحا كمل ، فيكمّل غيره ، ويأمر بالمعروف ، وينصح أخاه بصدق.

٥ ـ الصبر على المصائب ، وتحمل المشاق في أداء العبادات وترك المعاصي ، والعلم بأن المقدر كائن لا محالة ، وتلقي ذلك بالصبر والثبات ، وإنما الصبر عند الصدمة الأولى ، أي أصعبه وأوجبه في أول وهلة من الحادث. وهو سجية الراسخين الأثبات. ويأتي بعد المراتب السابقة ؛ لأن من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يصيبه أذى ، فيصبر عليه.

٦ ـ الخشوع : وهو السكون والطمأنينة ، والتؤدة والوقار ، والتواضع لله تعالى قلبا وسلوكا ، خوفا من عقاب الله تعالى ، ومراقبته ، كما في الحديث الصحيح عند مسلم عن عمر : «أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك».

وهذه المرتبة تأتي بمثابة المراقبة على أعمال الحسنات ، فإذا عملها الإنسان قد يفتخر بنفسه ويعجب بعبادته ، فأمر تعالى بالتواضع حتى لا تجمح الأهواء والشهوات بالنفس ، فتوقعها فيما يرديها ، وقد تعصف بثمرات جميع الأعمال الصادرة عنها.

٧ ـ التصدق بالمال : وهو الإحسان إلى المحتاجين الضعفاء الذين لا كسب لهم ولا كاسب ، فيعطون حال الفرض والنفل طاعة لله وإحسانا إلى خلقه ، وقد

ثبت في الصحيحين : «سبعة يظلهم الله في ظله ، يوم لا ظل إلا ظله . فذكر منهم . : ورجل تصدّق بصدقة ، فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه» وفي حديث آخر : «والصدقة تطفئ الخطيئة ، كما يطفئ الماء النار». وهذه مرتبة تعد ترجمانا عمليا للخصال السابقة ؛ لأن بذل المال شاق على النفس ، لمحبتها إياه ، وهي دليل على محبة الإنسان لأخيه ، فيساعده لينقذه من آفات الفقر والحاجة ، كما أن الصدقة تزكية للمال وتطهير له.

٨ . الصوم فرضا ونفلا : وفيه تسأم روحي عن التعلق بالماديات ، والإقبال على عبادة الله ، ومن أكبر المعونة على كسر حدّة الشهوة ، كما ثبت في الحديث الصحيح المتفق عليه عن ابن مسعود عنه ﷺ : «يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإنه له وجاء» وهو أيضا تزكية للبدن ، كما في الحديث الذي رواه ابن ماجه عنه ﷺ : «والصوم : زكاة البدن» أي يزكيه ويطهره وينقيه من الأخلاط الرديئة طبعا وشرعا ، كما قال سعيد بن جبير : «من صام رمضان وثلاثة أيام من كل شهر ، دخل في قوله تعالى : ﴿وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِماتِ﴾.

٩ . العفّة وحفظ الفروج عن المحارم والمآثم ، إلا عن المباح ، كما قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ إِلَّا عَلى أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ ، فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ، فَمَنِ ابْتَغى وَراءَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ العادُونَ﴾ [المؤمنون ٢٣ / ٥ . ٧]. ومن اخترق حرمة الفروج وزنى ، هان عليه اختراق حرمات الدين كلها ، ومن صان فرجه وعفّ نفسه ، كان من الطاهرين الأصفياء الذين استحقوا رضوان الله تعالى.

ويلاحظ أن بين المرتبتين الأخيرتين تجانسا ، فالصّوام إشارة إلى الذين لا تمنعهم الشهوة الباطنية من عبادة الله ، والأعفّاء حفظة الفروج إشارة إلى الذين لا تمنعهم شهوة الفرج عن العبادة.

١٠ ـ الذّكر الكثير لله تعالى : وهو استحضار عظمة الله تعالى في القلب ، وتنزيهه باللسان عن كل نقص ، ووصفه بكل كمال في جميع الأحوال ، بنية صادقة لله. ويلاحظ أن الله تعالى في أكثر المواضع حيث ذكر «الذّكر» قرنه بالكثرة ، ليرشدنا إلى أنه لا يصير الإنسان ذاكرا حتى يداوم على الذكر قائما وقاعدا ومضطجعا ، وهذا مروي عن مجاهد. وقد يصبح ذاكرا بصلاة التهجد ليلا ، كما أخرج أبو داود والنسائي وابن ماجه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «إذا أيقظ الرجل امرأته من الليل ، فصليا ركعتين ، كانا تلك الليلة من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات».

ويكون الذكر أيضا بالصلاة وفي الأكل والشرب والمشي والبيع والشراء والركوب والهبوط ، وغير ذلك من الأحوال في غير أماكن القاذورات ، كما قال تعالى : ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلى جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران ٣ / ١٩١].

وقال سبحانه : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الأحزاب ٣٣ / ٤١ ـ ٤٢].

وقد ختمت هذه الآداب بالذكر ؛ لأن صحة جميع الأعمال الدينية من إسلام وإيمان وقنوت وصدق وصبر وخشوع وصدقة وصوم بذكر الله تعالى وهي النية.

أخرج الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «سبق المفردون ، قالوا : وما المفردون؟ قال : الذاكرون الله كثيرا والذاكرات». وأخرج أحمد أيضا عن معاذ الجهني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «إن رجلا سأله ، فقال : أيّ المجاهدين أعظم أجرا يا رسول الله؟ قال صلى الله عليه وسلم : أكثرهم لله تعالى ذكرا ، قال : فأيّ الصائمين أكثر أجرا؟ قال صلى الله عليه وسلم : أكثرهم لله عزّ وجلّ ذكرا ، ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة ، كل ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أكثرهم لله ذكرا» فقال أبو بكر لعمر رضي الله عنهما : ذهب الذاكرون بكل خير ، فقال رسول الله ﷺ : «أجل».

ثم ذكر الله تعالى جزاء هؤلاء جميعا فقال :

﴿أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ أي إن الله تعالى هيّأ لهم مغفرة تمحو ذنوبهم وأجرا عظيما وهو الجنة.

فقه الحياة أو الأحكام :

تضمنت الآية كما وضح في تفسيرها عشرة آداب أمر الله تعالى بها ، وهي تجمع أصول الإسلام في الاعتقاد والعبادة والأخلاق والسلوك والعمل الاجتماعي البناء في إطار من النية الصادقة والإخلاص لله عزّ وجلّ وهو المراد بذكر الله كثيرا.

وقد بدأ تعالى في هذه الآية بذكر الإسلام الذي يعم الإيمان وعمل الجوارح ، ثم ذكر الإيمان تخصيصا له وتنبيها على أنه دعامة الإسلام ، وأتبعه بالقانت : العابد المطيع ، ثم الصادق : الذي يفي بما عوهد عليه ، والصابر عن الشهوات وعلى الطاعات وقت الرخاء والشدة (أو المنشط والمكره) والخاشع : الخائف لله ، والمتصدق بالفرض والنفل ، والصائم فرضا ونفلا ، وحافظ الفرج عما لا يحلّ من الزنى وغيره ، وذاكر الله كثيرا في أدبار الصلوات وغدوّا وعشيا ، وفي المضاجع وعند الانتباه من النوم ، وفي الذكر فوائد كثيرة محورها ربط المؤمن بالله تعالى في جميع الأحوال. قال مجاهد : لا يكون ذاكرا لله تعالى كثيرا حتى يذكره قائما وجالسا ومضطجعا. وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه : من أيقظ أهله بالليل ، وصلّيا أربع ركعات ، كتبا من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات.

قصة زيد بن حارثة وزينب بنت جحش رضي الله عنهما

﴿وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً (٣٦) وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ مِنْها وَطَراً زَوَّجْناكَها لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْواجِ أَدْعِيائِهِمْ إِذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً (٣٧) ما كانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيما فَرَضَ اللهُ لَهُ سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَقْدُوراً (٣٨) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللهَ وَكَفى بِاللهِ حَسِيباً (٣٩) ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ وَلكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (٤٠)﴾

الإعراب :

﴿أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ..﴾ تذكير الفعل على أن الخيرة بمعنى التخيير ، فهي مصدر بمعنى الاختيار ، ومن قرأ بالتاء ؛ لأن اللفظ مؤنث.

﴿وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ وَاللهُ﴾ : مبتدأ ، و ﴿أَحَقُّ﴾ : خبر المبتدأ ، و ﴿أَنْ تَخْشاهُ﴾: إما منصوب بتقدير حذف حرف الجر ، وإما مرفوع على أنه مبتدأ ، و ﴿أَحَقُّ﴾ خبره ، والجملة من المبتدأ أو الخبر في موضع رفع ؛ لأنه خبر المبتدأ الأول وهو الله تعالى ، أو مرفوع على أنه بدل من الله تعالى.

﴿سُنَّةَ اللهِ﴾ منصوب مصدر لفعل دل عليه ما قبله وهو ﴿فِيما فَرَضَ اللهُ لَهُ﴾ أي سنّ له سنة ، أو منصوب بنزع الخافض ، أي كسنة الله.

﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللهِ﴾ صفة للذين خلوا أو مدح لهم منصوب أو مرفوع.

﴿وَلكِنْ رَسُولَ اللهِ رَسُولَ﴾ خبر ﴿كانَ﴾ مقدرة ، أي ولكن كان محمد رسول الله. ومن قرأه بالرفع جعله خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : هو رسول الله.

البلاغة :

﴿وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ﴾ التنكير لإفادة العموم ؛ لأن النكرة في سياق النفي تفيد العموم ، أي ليس لمؤمن ولا لمؤمنة أن يريد غير ما أراده الله ورسوله.

﴿تُخْفِي﴾ و ﴿مُبْدِيهِ﴾ بينهما طباق.

﴿قَدَراً مَقْدُوراً﴾ بينهما جناس اشتقاق.

﴿وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللهَ﴾ فيهما طباق السلب.

المفردات اللغوية :

﴿وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ﴾ أي ما يصح له أو ما ينبغي له ﴿إِذا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً﴾ أي قضى رسول الله ﷺ ، وذكر الله لتعظيم أمره ، والإشعار بأن قضاءه قضاء الله. والسبب أنه نزل في زينب بنت جحش بنت عمته : أميمة بنت عبد المطلب ، خطبها رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة فأبت هي وأخوها عبد الله ﴿الْخِيَرَةُ﴾ الاختيار ، فليس لهم أن يختاروا من أمرهم شيئا ، بل يجب عليهم أن يجعلوا اختيارهم تبعا لاختيار الله ورسوله ﴿ضَلالاً مُبِيناً﴾ أي ظاهرا بيّن الانحراف عن الصواب.

﴿وَإِذْ تَقُولُ﴾ أي اذكر حين تقول ﴿أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ﴾ بالإسلام ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالعتق والتحرير ، وهو زيد بن حارثة ، كان من سبي الجاهلية اشتراه رسول الله ﷺ قبل البعثة ، والأصح أن السيدة خديجة وهبته له ، ثم أعتقه وتبناه ، وقد تقدمت قصته ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ زينب ﴿وَاتَّقِ اللهَ﴾ في أمر طلاقها ، ولا تطلقها ضرارا ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ﴾ أي تخفي في نفسك ما الله مظهره وهو الأمر من الله بزواجها بعد طلاقها من زوجها[1] ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ﴾ أي

---

(١) الإخفاء هو لزواجها المأمور به من الله لإبطال عادة التبني وآثاره في الجاهلية ، وليس المراد كما جاء في تفسير الجلالين وغيره إخفاء حبها حين وقع بصره عليها بعد حين من زواجها ، فهذا الكلام باطل لا أصل له ، ويتنافى مع منصب النبوة ، فهي ابنة عمته يعرفها من قديم ، وكان بإمكانه أن يتزوجها قبل تزويجه إياها من زيد.

تستحييهم وتخاف تعييرهم إياك وقولهم : تزوج زوجة ابنه الذي تبناه ﴿وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ﴾ في كل شيء ، والواو للحال ، فتزوجها ولا تأبه لقول الناس ، قال البيضاوي : وليست المعاتبة على الإخفاء وحده ، فإنه وحده حسن ، بل على الإخفاء مخافة قالة الناس وإظهار ما ينافي إضماره ، فإن الأولى في أمثال ذلك أن يصمت أو يفوض الأمر إلى ربه.

﴿فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ مِنْها وَطَراً﴾ حاجة ، أي لم يبق له بها حاجة الزوجية فطلقها ﴿زَوَّجْناكَها﴾ جعلناها لك زوجة وأمرناك بزواجها ، فدخل عليها النبي ﷺ بغير إذن بشر ، بعد إذن الله تعالى ، وأشبع المسلمين خبزا ولحما ، فكانت بلا واسطة عقد بشري ، بدليل أنها كانت تقول لسائر نساء النبي ﷺ : إن الله تولى إنكاحي ، وأنتن زوّجكن أولياؤكن. ﴿حَرَجٌ﴾ مشقة وضيق دائم ﴿أَدْعِيائِهِمْ﴾ جمع دعي وهو الابن المتبنى ﴿وَكانَ أَمْرُ اللهِ﴾ أي مقضيه ﴿مَفْعُولاً﴾ نافذا حاصلا لا محالة ، كما كان تزويج زينب. وجملة ﴿لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ ..﴾ علة للتزويج ، وهو دليل على أن حكم النبي وحكم الأمة واحد إلا ما خصه الدليل.

﴿ما كانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيما فَرَضَ اللهُ لَهُ﴾ أي قسم له وقدر وأجل ، مأخوذ من قولهم : فرض له في الديوان كذا ، وفرض للعسكر أو الجند كذا ، أي قدر لهم أرزاقهم ﴿فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ مضوا من الأنبياء ألا حرج عليهم في ذلك ، وفيما أباح لهم ﴿وَكانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَقْدُوراً﴾ فعله قضاء مقضيا وحكما مبتوتا كائنا لا بد منه ﴿وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللهَ﴾ أي لا يخشون مقالة الناس فيما أحل الله لهم ، وهو تعريض بعد تصريح ﴿وَكَفى بِاللهِ حَسِيباً﴾ حافظا لأعمال خلقه ومحاسبتهم ، فينبغي ألا يخشى إلا منه.

﴿ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ﴾ على الحقيقة ، فيثبت ما يترتب على البنوة من حرمة المصاهرة وغيرها ، فليس أبا زيد ، أي والده ، فلا يحرم عليه التزوج بزوجته زينب ﴿وَلكِنْ رَسُولَ اللهِ﴾ أي ولكن كان رسول الله ، وكل رسول أبو أمته ، لا مطلقا ، بل من حيث إنه رؤف بهم ، ناصح لهم ، واجب التوقير والطاعة عليهم ، و ﴿زَيْدٌ﴾ منهم كبقية المؤمنين ﴿وَخاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ بكسر التاء ، فاعل الختم ، أي فلا يكون له ابن رجل بعده يكون نبيا ، وبفتح التاء بمعنى الطابع كآلة الختم ، أي وآخرهم الذي ختمهم ، أو به ختموا ﴿وَكانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ يعلم من يليق بأن يختم به النبوة ، فلا نبي بعده ، وكيف ينبغي شأنه.

وكون النبي ﷺ أبا للطاهر والطيب والقاسم وإبراهيم لا ينافي الآية ، فإن هؤلاء قد أخرجوا من حكم النفي بقوله : ﴿مِنْ رِجالِكُمْ﴾ لأن هؤلاء لم يبلغوا مبلغ الرجال ، ولأنه قد أضاف الرجال إليهم ، وهؤلاء رجاله ، لا رجالهم.

وأما كون عيسى ينزل في آخر الزمان ، فلا يتناقض مع قوله تعالى : ﴿وَخاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾

لأن

المعنى : لا يكون هناك بعد محمد ﷺ نبوة مبتدأة جديدة ، فلا ينبأ أحد بعده ، وعيسى ممن نبّئ قبله ، وحين ينزل يحكم بشريعة محمد ، ويصلي إلى قبلته ، كأنه بعض أمته.

سبب النزول :

نزول الآية (٣٦):

﴿وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ﴾ الآيات ، أخرج الطبراني بسند صحيح عن قتادة قال : خطب النبي ﷺ زينب ، يريدها لزيد ، فظنت أنه يريدها لنفسه ، فلما علمت أنه يريدها لزيد ، أبت ، فأنزل الله : ﴿وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ﴾ الآية ، فرضيت وسلّمت.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش لزيد بن حارثة ، فاستنكفت منه ، وقالت : أنا خير منه حسبا ، فأنزل الله : ﴿وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ﴾ الآية كلها.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال : نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ، وكانت أول امرأة هاجرت من النساء ، فوهبت نفسها للنبي ﷺ ، فزوجها زيد بن حارثة ، فسخطت هي وأخوها ، قالا : إنما أردنا رسول الله ﷺ ، فزوجنا عبده. وهذا قول أضعف مما سبق ، فيكون الراجح ما ذكره قتادة وابن عباس ومجاهد في سبب نزول هذه الآية : أن رسول الله ﷺ خطب زينب بنت جحش ، وكانت بنت عمته ، فظنت أن الخطبة لنفسه ، فلما تبيّن أنه يريدها لزيد ، كرهت وأبت وامتنعت ، فنزلت الآية.

نزول الآية (٣٧):

﴿وَإِذْ تَقُولُ﴾ : أخرج البخاري عن أنس أن هذه الآية نزلت في زينب بنت جحش وزيد بن حارثة. وأخرج الحاكم عن أنس قال : جاء زيد بن

حارثة يشكو إلى رسول الله ﷺ من زينب بنت جحش ، فقال النبي ﷺ : أمسك عليك أهلك ، فنزلت : ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ﴾.

وأخرج مسلم وأحمد والنسائي قال : لما انقضت عدة زينب ، قال رسول الله ﷺ لزيد: اذهب ، فاذكرها علي ، فانطلق ، فأخبرها ، فقالت : ما أنا بصانعة شيئا حتى أوامر[1] ربي ، فقامت إلى مسجدها ، ونزل القرآن ، وجاء رسول الله ﷺ ، فدخل عليها بغير إذن. قال : ولقد رأيتنا حين دخلنا على رسول الله ﷺ أطعمنا عليها الخبز واللحم ، فخرج الناس ، وبقي رجال يتحدثون في البيت بعد الطعام ، فخرج رسول الله ﷺ واتبعته ، فجعل يتبع حجر نسائه ، ثم أخبرته أن القوم قد خرجوا ، فانطلق حتى دخل البيت ، فذهبت أدخل معه ، فألقى الستر بيني وبينه ، ونزل الحجاب. قال : ووعظ القوم بما وعظوا به : ﴿لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ الآية.

نزول الآية (٤٠):

﴿ما كانَ مُحَمَّدٌ ..﴾ : أخرج الترمذي عن عائشة قالت : لما تزوج النبي ﷺ زينب قالوا : تزوج حليلة ابنه ، فأنزل الله : ﴿ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ﴾ الآية.

المناسبة :

بعد أن أمر الله تعالى نبيه ﷺ بتخيير زوجاته بين البقاء معه ، والتسريح الجميل ، حتى لا يظن أن الرسول ﷺ يريد ضرر الغير ، ذكر هنا أن زمام الاختيار ليس بيد الإنسان في كل شيء ، كما في شأن الزوجات ، بل هناك أمور لا اختيار فيها لأحد ، وهي ما حكم الله فيه ، فما أمر به فهو المتّبع ، وما أراد النبي

---

(١) آمره في أمره ، ووامره واستأمره : شاوره.

فهو الحق ، ومن خالفهما فقد ضل ضلالا مبينا ؛ لأن الله هو المقصد ، والنبي هو الهادي الموصل.

ثم ذكر الله تعالى قصة زواج النبي ﷺ بزينب ، تنفيذا لأمر الله ، وتقريرا لشرع محكم دائم مشتمل على فائدة ، خال من المفاسد ، وأن الرسول ﷺ ليس بدعا بين الرسل فيما أباح الله له من الزوجات ، وأنه من أولئك الرسل الكرام الذين يبلّغون رسالات ربهم ، ولا يخشون أحدا غير الله ، وهو بهذا الزواج من زينب قد أبطل بالفعل بعد القول ما كان مقررا في الجاهلية من حرمة الزواج بحليلة الابن بالتبني ، كما قال تعالى في هذه الآيات : ﴿لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْواجِ أَدْعِيائِهِمْ إِذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً ، وَكانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً﴾ ثم أكد ذلك بقوله : ﴿ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ ..﴾ الآية.

التفسير والبيان :

﴿وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ أي ليس لأي مؤمن أو مؤمنة إذا حكم الله ورسوله بأمر أن يختاروا أمرا آخر ، وإنما عليهم الامتثال لأمر الله ورسوله ، وتجنب معصيته. ومبلّغ الأمر هو رسول الله ﷺ ، وذكر الله لتعظيم أمر رسوله ، فصار حكم الله ورسوله واحدا ، وقضاؤهما واحدا ، فإذا قضى الرسول ﷺ بأمر لم يكن لبشر اختيار غيره. وهذه الآية داخلة في ضمن قوله تعالى : ﴿النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب ٣٣ / ٦].

ثم حذر الله تعالى من عصيان الأمر فقال :

﴿وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً﴾ أي ومن يخالف أمر الله أو أمر رسوله ﷺ أو يعصي ما نهيا عنه ، فقد انحرف عن طريق الهدى والرشاد ، ووقع في متاهات الضلال المبين البعيد عن منهج الحق والخير ، المؤدي إلى ضياع

المصالح والانغماس في المفاسد ، كما قال تعالى : ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور ٢٤ / ٦٣].

وإزاء هذا الحكم الإلهي القاطع والتحذير من العصيان ، فإن زينب بنت جحش التي نزلت الآية بسببها ، امتثلت أمر الرسول ﷺ بقبول زواجها من زيد بن حارثة مولى النبي ﷺ وعبده المعتق ، وهي من علية قريش وذؤابة القوم ، وبنت أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ ، وقالت : «إذن لا أعصي رسول الله ﷺ ، قد أنكحته نفسي» بعد أن استنكفت من زيد ، وقالت : أنا خير منه حسبا» لأنها كانت امرأة فيها حدّة.

وكان في زواجها بزيد حكمة بالغة هي إعلان المساواة بين الناس ، والقضاء على فوارق النسب والحسب ، ما دامت مظلة الإسلام واحدة يتساوى فيها الجميع ، وأن التفاضل فيه إنما هو بالتقوى والعمل الصالح.

ولكن بالرغم من الموافقة الظاهرية على هذا الزواج ، ظلت الكوامن النفسية والآلام قائمة ، وبقيت زينب كارهة لزيد ، متعالية عليه ، فاشتكى منها إلى رسول الله ﷺ مرارا ، فكان ﷺ ينصحه قائلا : ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ﴾ إلى أن نفذ حكم الله ، وحدث الطلاق ، وهو ما قررته الآيات التالية :

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ : أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ، وَاتَّقِ اللهَ﴾

أي واذكر يا محمد حين كنت تقول لزيد الذي أنعم الله عليه بالإسلام وأنعمت عليه بالإعتاق والحرية والتربية والتقريب منك : أبق على زواجك بزينب ، واصبر على طبعها وخلقها ، واتق الله في شأنها وفي طلاقها ، فلا تطلقها لتعاليها وشعورها بالرفعة والشرف ، فإن الطلاق مضرة. وهذا نهي تنزيه وتعليم وتربية ، لا نهي تحريم وحظر ؛ لأن الأولى على كل حال ألا يطلقها ، لأن الطلاق شائن لها.

﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ ، وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ﴾ أي وتخفي أيها الرسول في نفسك ما الله مظهره من الحكم ، وهو علمك بأن زيدا سيطلقها وستنكحها ؛ لأن الله قد أعلمه بذلك ، وتخاف من تعيير الناس ونقدهم واعتراضهم النابع من منطق الجاهلية ، والله بعد أن أنزل عليك وحيه وشرعه المصحح لأعراف الجاهلية وتقاليدها أو المبطل لها ، أجدر وحده أن تخاف منه ، وتلزم أمره ، وتمضي حكمه دون مبالاة بشرائع غيره. فقوله : ﴿وَاتَّقِ اللهَ﴾ أي في طلاقها ، فلا تطلّقها ، وأراد بذلك نهي تنزيه ، لا نهي تحريم ؛ لأن الأولى ألا يطلق.

عن عائشة رضي الله عنها : لو كتم رسول الله ﷺ شيئا مما أوحي إليه ، لكتم هذه الآية.

والمراد من هذا التوجيه للنبي ﷺ : أن يصمت حين قال له زيد : أريد مفارقتها ، أو يقول له : أنت أعلم بشأنك ، حتى لا يتناقض سرّه مع علانيته ، وليتساوى ظاهر الأنبياء وباطنهم ، ولتبدو ظاهرة التصلب في الأمور الجادة التي نزل فيها وحي إلهي.

ثم أعلن الله تعالى حكم زواج زينب المطلقة بعد انتهاء عدتها من نبي الله ﷺ فقال :

﴿فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ مِنْها وَطَراً ، زَوَّجْناكَها ، لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْواجِ أَدْعِيائِهِمْ إِذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً ، وَكانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً﴾ أي لما طلقها زيد ، وانتهت حاجته منها ، وملّها ، وانقضت عدتها ، جعلناها لك زوجة ، ليرتفع الحرج والضيق من بين المؤمنين إذا أرادوا الزواج بمطلّقات أدعيائهم وهم الذين تبنوهم في الجاهلية ، ثم أبطل الإسلام حكم التبني وألغى جميع آثاره ، وصفّى كل نتائجه ، وكان قضاء الله وقدره نافذا وكائنا لا محالة ، وحكمه سائدا وشرعه دائما في كل زمان ، ومن أحكام الله في سابق علمه أن زينب ستصير زوجة

للنبي ﷺ. والوطر: كل حاجة للمرء له فيها همّة، والجمع: الأوطار، قال ابن عباس: أي بلغ ما أراد من حاجته، يعني الجماع. وفي التعبير إضمار؛ أي لما قضى وطره منها، وطلّقها زوجناكها، وقراءة أهل البيت: زوجتكها.

وفي هذا إشارة إلى أن التزويج لزينب من النبي ﷺ لم يكن لقضاء شهوة، بل لبيان الشريعة بفعل النبي ﷺ، فإن الفعل أوكد، والشرع يستفاد على نحو أقطع من فعل النبي ﷺ، وقد أريد من هذا الزواج نفي الحرج عن المؤمنين في إجراء أزواج المتبنين مجرى أزواج البنين في تحريمهن عليهم بعد انتهاء رابطة الزوجية بينهم وبينهن.

روى البخاري والترمذي رحمهما الله عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «إن زينب بنت جحش رضي الله عنها كانت تفخر على أزواج النبي ﷺ، فتقول: زوّجكن أهاليكنّ، وزوجني الله تعالى من فوق سبع سموات».

وقال محمد بن عبد الله بن جحش: تفاخرت زينب وعائشة رضي الله عنهما فقالت زينب رضي الله عنها: أنا التي نزل تزويجي من السماء، وقالت عائشة رضي الله عنها: أنا التي نزل عذري من السماء، فاعترفت لها زينب رضي الله عنها.

وذكر ابن جرير عن الشعبي رضي الله عنه عن الشعبي قال: كانت زينب رضي الله عنها تقول للنبي ﷺ: إني لأدلّ عليك بثلاث، ما من نسائك امرأة تدلّ بهن: إن جدّي وجدّك واحد، وإن الله عز وجل أنكحك إياي من السماء، وإن السفير في ذلك جبريل عليه السلام».

ثم أخبر الله تعالى عن سنته وحكمه في الرسل والأنبياء، فقال:

﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ، سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ، وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَقْدُوراً﴾ أي لم يكن على النبي حرج أو عيب فيما أحل

له وأمره من زواج زينب مطلّقة دعيه ومتبناة سابقا زيد بن حارثة ﷺ . وهذا حكم الله تعالى في الأنبياء قبله ، لم يكن ليأمرهم بشيء ، وعليهم في ذلك حرج وضيق ، وكان أمر الله الذي يقدره كائنا لا محالة ، وواقعا لا محيد عنه ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

وهذا رد على المنافقين الذين عابوا رسول الله في تزوجه امرأة زيد مولاه ودعيّه الذي كان قد تبناه ، ورد أيضا على اليهود الذين عابوه من كثرة الزوجات ، فقد كان لداود وسليمان عليهما السلام عدد كثير من النساء.

ثم مدح الله رسله الكرام ، فقال :

﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللهَ ، وَكَفى بِاللهِ حَسِيباً﴾ أي إن أولئك الرسل الذين رفع الله الحرج عنهم فيما أحل لهم ، وخاتمهم محمد ﷺ مهمتهم تبليغ رسالات الله وشرائعه إلى الناس وأداؤها بأمانة ، وهم يخافون الله وحده في ترك تبليغ شيء من الوحي ، ولا يخافون أحدا سواه ، فلا تمنعهم سطوة أحد أو انتقاده عن إبلاغ رسالات الله تعالى ، وكفى بالله ناصرا ومعينا ، وحافظا لأعمال عباده ومحاسبهم عليها.

ثم رد الله تعالى على نقد من قالوا : إن محمدا تزوج حليلة ابنه ، فقال : ﴿ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ ، وَلكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ أي إن التزوج بزوجة الابن النسبي بالفعل هو غير جائز ، أما التزوج بزوجة المتبنى بالتبني المصطنع فهو جائز ، خلافا لشرعة الجاهلية ، وإن زيدا لم يكن ابنا لمحمد ﷺ حقيقة وإن كان قد تبناه ، وليس هو أبا على الحقيقة لأحد من الرجال ، وإنما هو رسول الله لتبليغ رسالته وشرعه إلى الناس ، وهو الذي ختم به أنبياء الله ورسله ، وكان الله وما يزال عليما مطلعا على كل شيء ، يعلم من بدئت به النبوة ومن ختمت به ، ولا يفعل إلا ما هو الأصلح ، ولا يختار إلا من هو

الأجدر ، كما قال تعالى : ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ﴾ [الأنعام ٦ / ١٢٤].

فليس بين محمد ﷺ وبين أحد من الناس أبوة شرعية يترتب عليها حرمة المصاهرة ونحوها ، وإنما هو أب روحي لجميع المؤمنين ، شديد الإشفاق عليهم ، يستوجب التوقير والاحترام ، كما قال تعالى : ﴿النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب ٣٣ / ٦] وهذا أمر أجمع وأعم ، وأما قوله تعالى : ﴿وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ ..﴾ فهو خاص.

وأما أبوته ﷺ الخاصة فهو أب لأربعة ذكور ، وأربع بنات ، فقد ولد له القاسم والطيب والطاهر من خديجة رضي الله عنها ، ثم ماتوا صغارا ، وولد له إبراهيم من مارية القبطية ثم مات رضيعا ، وكان له أربع بنات من خديجة : زينب ورقيّة وأم كلثوم وفاطمة ، وقد ماتت الثلاث الأول في حياته ﷺ ، ثم ماتت فاطمة بعده لستة أشهر.

وهذه الآية نص في أنه لا نبي بعد نبي الله محمد ، ولا رسول بعده بالطريق الأولى ؛ لأن النبوة أعم من الرسالة ، والرسالة أخص من مقام النبوة ، فإن كل رسول نبي ولا عكس ، وإذا انتفى وجود النبي بصريح الآية ، انتفى وجود الرسول أيضا.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآية على ما يأتي :

١ ـ يحظر ويمنع على أي مؤمن أو مؤمنة إذا قضى الرسول ﷺ بأمر أن يختار غيره ؛ لأن لفظة ما كان ، وما ينبغي معناها هنا الحظر والمنع ، فتجيء لحظر الشيء والحكم بأنه لا يكون ، كما في هذه الآية. وربما كان امتناع ذلك الشيء عقلا ، كقوله تعالى : ﴿ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَها﴾

[النمل ٢٧ / ٦٠]. وربما كان العلم بامتناعه شرعا كقوله تعالى : ﴿ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ [آل عمران ٣ / ٧٩] وقوله تعالى : ﴿وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ﴾ [الشورى ٤٢ / ٥١]. وربما كان في المندوبات ؛ كما تقول : «ما كان لك يا فلان أن تترك النوافل» ونحو هذا.

٢ ـ في هذه الآية دليل للمالكية على أن الكفاءة لا تعتبر في الأحساب وإنما تعتبر في الأديان ، خلافا للجمهور ؛ لأن الموالي تزوجت في قريش ، تزوج زيد زينب بنت جحش ، وتزوج المقداد بن الأسود ضباعة بنت الزبير ، وزوّج أبو حذيفة سالما من فاطمة بنت الوليد بن عتبة ، وتزوج بلال أخت عبد الرحمن بن عوف. وقد أراد الله امتحان زينب بزواج زيد لهدم مبدأ العصبية الجاهلية والامتياز الطبقي أو العنصري ، وجعل أساس التمايز هو الإسلام والتقوى.

٣ ـ يجب اتباع أمر الله ورسوله ؛ لأن الله أخبر أن من يعصي الله ورسوله فقد ضل طريق الهدى. قال القرطبي : وهذا أدل دليل على ما ذهب إليه الجمهور من فقهائنا ، وفقهاء أصحاب الإمام الشافعي وبعض الأصوليين ، من أن صيغة «افعل» للوجوب في أصل وضعها ؛ لأن الله تبارك وتعالى نفى خيرة المكلّف عند سماع أمره وأمر رسوله ﷺ ، ثم أطلق على من بقيت له خيرة عند صدور الأمر اسم المعصية ، ثم علّق على المعصية بذلك الضلال ، فلزم حمل الأمر على الوجوب [١].

٤ ـ أراد الله تعالى من عتاب نبيه بآية : ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ ..﴾ إظهار صلابة الأنبياء في بيان الأحكام الإلهية ، وأن يكون ظاهرهم

---

(١) تفسير القرطبي : ١٤ / ١٨٨

وباطنهم سواء ؛ لأن الله تعالى أعلم نبيه بأن زيدا سيطلّق زينب وينكحها هو ، فما الداعي لوعظه وقوله له : ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ﴾؟.

وقد أخفى النبي ﷺ ما أخبره الله به من طلاق زينب وزواجه ، لا أنه أخفى استحسانها وحبّه لها والحرص على طلاق زيد إياها ، كما يقول قتادة وابن زيد وجماعة من المفسرين ، منهم الطبري وغيره ، فهذا لا يليق بمنصب النبوة ، ولا يتفق مع الواقع ، فإنه كان بإمكانه أن يتزوجها وهي بكر ، وهو يعرفها ؛ لأنها ابنة عمته أميمة بنت عبد المطلب ، وكانت هي ترغب بذلك ، بدليل أنه ﷺ لما خطبها لزيد ، ظنت أنه خطبها لنفسه ، والخلاصة : أن قائل ذلك ـ إن تعمد ـ جاهل بعصمة النبي ﷺ عن مثل هذا ، أو مستخف بحرمته.

وأشد قبحا ما قال مقاتل : زوّج النبي ﷺ زينب بنت جحش من زيد ، فمكثت عنده حينا ، ثم إنه ﷺ أتى زيدا يوما يطلبه ، فأبصر زينب قائمة ، كانت بيضاء جميلة جسيمة من أتم نساء قريش ، فهويها وقال : «سبحان مقلّب القلوب» فسمعت زينب بالتسبيحة ، فذكرتها لزيد ، ففطن زيد ، فقال : يا رسول الله ، ائذن لي في طلاقها ، فإن فيها كبرا ، تعظم علي وتؤذيني بلسانها ، فقال ﷺ : ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ﴾.

وأحسن ما قيل في تأويل هذه الآية ، وهو الذي عليه أهل التحقيق من المفسرين والعلماء الراسخين ، كالزهري والقاضي بكر بن العلاء القشيري الفقيه المالكي الذي ولي قضاء العراق ، والقاضي أبي بكر بن العربي وغيرهم : هو ما روي عن علي بن الحسين : أن النبي ﷺ كان قد أوحى الله تعالى إليه أن زيدا يطلّق زينب ، وأنه يتزوجها بتزويج الله إياها ، فلما تشكّى زيد للنبي ﷺ خلق زينب ، وأنها لا تطيعه ، وأعلمه أنه يريد طلاقها ، قال له رسول الله ﷺ على جهة الأدب

والوصية : «اتق الله في قولك وأمسك عليك زوجك» وهو يعلم أنه سيفارقها ويتزوجها ؛ وخشي رسول الله ﷺ أن يلحقه قول من الناس في أن يتزوج زينب بعد زيد ، وهو مولاه ، وقد أمره بطلاقها ، فعاتبه الله تعالى على هذا القدر من خشيته الناس في شيء قد أباحه الله له ، بأن قال : «أمسك» مع علمه بأنه يطلّق ، وأعلمه أن الله أحق بالخشية ، أي في كل حال.

ويدل تحرج النبي ﷺ من هذا الزواج على أن للأعراف والعادات تأثيرا كبيرا في المجتمعات والسلوك.

٥ ـ اقترنت واقعة زواج النبي ﷺ بزينب في السيرة بأحكام شرعية ، منها : استخارة الله في الأمور ، فعند ما جاء زيد يخطبها للنبي ﷺ فرحت وقالت : ما أنا بصانعة شيئا حتى أوامر ربي ، فقامت إلى مسجدها ، ونزل القرآن.

ومنها : ندب وليمة الزواج ، قال أنس بن مالك فيما يرويه مسلم : «ما رأيت رسول الله ﷺ أولم على امرأة من نسائه ما أولم على زينب ، فإنه ذبح شاة.

ومنها : أن يقول الإنسان لصاحبه : اخطب علي فلانة ، وهو زوجها المطلقة منه ، ولا حرج في ذلك ، كما قال النبي ﷺ لزيد في رواية : «اذكرها علي» أي اخطبها.

٦ ـ اختصاص النبي ﷺ بتزويج الله تعالى له ، فلما وكّلت زينب أمرها إلى الله ، وصح تفويضها إليه ، تولى الله إنكاحها ، ولما أعلمه الله بذلك دخل عليها بغير إذن ، ولا تجديد عقد ولا تقرير صداق ، ولا شيء مما يكون شرطا في عقود زواجنا ، ولهذا كانت زينب تفاخر نساء النبي ﷺ ، وتقول : «زوجكن آباؤكن ، وزوّجني الله تعالى». أخرج النسائي عن أنس بن مالك قال : كانت

زينب تفخر على نساء النبي ﷺ تقول : إن الله عز وجل أنكحني من السماء ، وفيها نزلت آية الحجاب.

٧ . المنعم عليه في هذه الآية هو زيد بن حارثة ؛ إذ أعتقه النبي ﷺ عند ما اختار البقاء عنده ، مفضلا إياه على أبيه وعمه ، وقال الرسول ﷺ : «اشهدوا أني وارث وموروث» فلم يزل يقال : زيد بن محمد ، إلى أن نزل قوله تعالى : ﴿ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ﴾ ونزل : ﴿ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ﴾.

٨ . قال الإمام أبو القاسم عبد الرحمن السّهيلي رحمه الله تعالى : كان يقال : زيد بن محمد ، حتى نزل : ﴿ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ﴾ فقال : أنا زيد بن حارثة ، وحرم عليه أن يقول : أنا زيد بن محمد. فلما نزع عنه هذا الشرف وهذا الفخر ، وعلم الله وحشته من ذلك شرفه بخصيصة لم يكن يخصّ بها أحدا من أصحاب النبي ﷺ ، وهي أنه سماه في القرآن ؛ فقال تعالى : ﴿فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ مِنْها وَطَراً﴾ يعني من زينب. ومن ذكره الله تعالى باسمه في الذكر الحكيم حتى صار اسمه قرآنا يتلى في المحاريب ، نوّه به غاية التنويه ، فكان في هذا تأنيس له وعوض من الفخر بأبوّة محمد ﷺ له.

فهو لا يزال مترددا على ألسنة المؤمنين ، ومذكورا على الخصوص عند رب العالمين ؛ إذ القرآن كلام الله القديم ، وهو باق لا يبيد ؛ فاسم زيد هذا في الصحف المكرّمة المرفوعة المطهرة ، تذكره في التلاوة السّفرة الكرام البررة. وليس ذلك لاسم من أسماء المؤمنين إلا لنبي من الأنبياء ، ولزيد بن حارثة تعويضا من الله تعالى له مما نزع عنه.

وزاد في الآية أن قال : ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ﴾ أي بالإيمان ؛ فدل على أنه من أهل الجنة ، علم ذلك قبل أن يموت ، وهذه فضيلة أخرى.

٩ . قوله تعالى : ﴿زَوَّجْناكَها﴾ دليل على ثبوت الولي في النكاح.

١٠ ـ أعلم الله جميع الأمة أنه سنّ لمحمد ﷺ التوسعة عليه في النكاح سنّة الأنبياء الماضية ، كداود وسليمان ، فكان لداود مائة امرأة ، وثلاث مائة سرّية ، ولسليمان ثلاث مائة امرأة وسبع مائة سرّية.

١١ ـ دلت آية ﴿ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ﴾ على أن محمدا ﷺ ليس بأب شرعي لزيد ، وليس زيد ابنا له ، حتى تحرم عليه حليلته ، ولكنه أبو أمّته في التبجيل والتعظيم ، وأن نساءه عليهم حرام. فأذهب الله بهذه الآية ما وقع في نفوس المنافقين وغيرهم ، واعتراضهم بقولهم : تزوج النبي امرأة ابنه ؛ وأعلم أن محمدا لم يكن أبا أحد من الرجال المعاصرين له في الحقيقة.

ولم يقصد بهذه الآية أن النبي ﷺ لم يكن له ولد ، فقد ولد له ذكور كما تقدم : إبراهيم ، والقاسم ، والطيب ، والمطهّر ، ولكن لم يعش له ابن حتى يصير رجلا. وأما الحسن والحسين فكانا طفلين ، ولم يكونا رجلين معاصرين له.

١٢ ـ الحقيقة أن محمدا ﷺ كان رسول الله ، وخاتم النبيين ، وقوله ﴿خاتَمَ﴾ بفتح التاء ، بمعنى أنهم به ختموا ، فهو كالخاتم والطابع لهم ، وبكسر التاء : بمعنى أنه ختمهم ، أي جاء آخرهم.

وهذا دليل قاطع على أنه لا نبي ولا رسول بعده ﷺ ، وفيه وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ من حديث جماعة من الصحابة رضي الله عنهم ، منها ما رواه أحمد ومسلم والترمذي عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : «مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى دارا فأتمها وأكملها إلا موضع لبنة ، فجعل الناس يدخلونها ، ويتعجبون منها ، ويقولون : لو لا موضع اللّبنة ، فأنا موضع اللّبنة حيث جئت ، فختمت الأنبياء» ونحوه عن أبي هريرة ، غير أنه قال : «فأنا اللّبنة وأنا خاتم النبيين». ومنها ما أخرجه الصحيحان عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن لي

أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحي الذي يمحو الله تعالى بي الكفر ، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي ، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي».

ومنها ما رواه أحمد والترمذي عن أنس بن مالك ﵁ قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الرسالة والنبوة قد انقطعت ، فلا رسول بعدي ولا نبي» فشق ذلك على الناس ، فقال : «ولكن المبشّرات» قالوا : يا رسول الله ، وما المبشّرات؟ قال : «رؤيا الرجل المسلم ، وهي جزء من أجزاء النبوة».

وروي عن النبي ﷺ أنه قال : «لا نبوة بعدي إلا ما شاء الله» قال ابن عبد البر : يعني الرؤيا ـ والله أعلم ـ التي هي جزء منها ؛ كما قال ﷺ : «ليس يبقى بعدي من النبوة إلا الرؤيا الصالحة».

وإتمام النبوات مشابه لإتمام الأخلاق ، قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه الحاكم عن أبي هريرة : «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

وهذا كله رد قاطع على المتنبئين كالأسود العنسي باليمن ، ومسيلمة الكذّاب باليمامة ، وسجاح ، وغيرهم من أدعياء النبوة الأفاكين ، كما قال تعالى : ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّياطِينُ ، تَنَزَّلُ عَلى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء ٢٦ / ٢٢١ ـ ٢٢٢].

تعظيم الله تعالى وإجلاله بالأذكار والتسابيح الكثيرة

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَكانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً (٤٣) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً (٤٤)﴾

البلاغة :

﴿بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية :

﴿اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً﴾ أي في أغلب الأوقات ، ويشمل مختلف أنواع التقديس والتمجيد والتهليل والتحميد ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ أول النهار وآخره ، وتخصيصهما بالذكر للدلالة على فضلهما على سائر الأوقات ، لكونهما مشهودين بملائكة الليل والنهار ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾ أي بالرحمة ﴿وَمَلائِكَتُهُ﴾ بالاستغفار لكم ، والاهتمام بما يصلحكم ، والمراد بالصلاة المشتركة بين الله وملائكته : هو العناية بصلاح أمركم ، وظهور شرفكم ورفعة شأنكم ﴿لِيُخْرِجَكُمْ﴾ ليديم إخراجه إياكم ﴿مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ﴾ من ظلمات الكفر والمعصية إلى نور الإيمان والطاعة ﴿وَكانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾ أي كان الله وما يزال رحيما بعباده المؤمنين ، حتى اعتنى بصلاح أمرهم ورفع قدرهم وهو دليل على أن المراد بالصلاة الرحمة ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ أي تحية الله للمؤمنين بلسان الملائكة هي السلام ، وهو من إضافة المصدر إلى المفعول ، أي يحيّون ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ﴾ يوم لقائه عند الموت أو الخروج من القبر ، أو دخول الجنة ﴿سَلامٌ﴾ إخبار بالسلامة من كل مكروه وآفة ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً﴾ هي الجنة.

سبب النزول : نزول الآية (٤٣):

﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي ..﴾ : أخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال : لما نزلت : ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب ٣٣ / ٥٦] قال أبو بكر ﷺ : يا رسول الله ، ما أنزل الله تعالى عليك خيرا إلا أشركنا فيه ، فنزلت : ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ﴾.

المناسبة :

بعد بيان ما ينبغي أن يكون عليه النبي ﷺ مع الله وهو التقوى والإخلاص ، وما ينبغي أن يكون عليه مع أهله وأقاربه بقوله تعالى : ﴿يا أَيُّهَا

﴿النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ﴾ وهو تحقيق الحرية والاستقرار الزوجي ، أمر الله تعالى عباده المؤمنين بما أمر به أنبياءه المرسلين من تعظيم الله وإجلاله بذكره وتسبيحه في أغلب الأوقات ومختلف أنواع الطاعات ، بقوله : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً﴾ ليحقق لهم أجزل الثواب ويخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان.

التفسير والبيان :

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بكثرة ذكر ربهم تبارك وتعالى ، المنعم عليهم بأنواع النعم ، لينالوا جزيل الثواب وجميل المآب ، فيقول :

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ أي يا أيها الذين أيقنوا وصدقوا بالله ورسوله اذكروا الله بألسنتكم وقلوبكم ذكرا كثيرا ، يملأ عليكم مشاعركم ، في جميع الأحوال ، ويحقق في نفوسكم خشية ربكم ، ونزهوه عن كل ما لا يليق به أول النهار وآخره ، أي في غالب الأوقات ؛ لأن بداية الشيء ونهايته تشمل وسطه أيضا بحكم الاستمرار ، قال الزمخشري في تفسير ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ أي في كافة الأوقات. وإنما ذكر هذان الوقتان لكونهما مشهودين بملائكة الليل والنهار. قال رسول الله ﷺ : «ذكر الله على فم كل مسلم»وروي «في قلب كل مسلم» وعن قتادة : «قولوا : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

وأخرج الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم ، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم ، فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ، قالوا : وما هو يا رسول الله؟ قال ﷺ : ذكر الله عزّ وجلّ ».

ونظير الآية في وصف المؤمنين : ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلى جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران ٣ / ١٩١].

وقرن التسبيح بالذكر معناه : إذا ذكرتم الله تعالى ، فينبغي أن يكون ذكركم إياه على وجه التعظيم والتنزيه عن كل سوء ، وهو المراد بالتسبيح.

ثم حرّض تعالى على الذكر والتسبيح وأبان سببه فقال :

﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ ، وَكانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾ أي إن الله ربكم الذي تذكرونه وتسبحونه هو الذي يرحمكم ، وملائكته تستغفر لكم ، وهو بهذه الرحمة يريد هدايتكم وإخراجكم من ظلمات الكفر والجهل والضلال إلى نور الحق والهدى والإيمان ، وكان ربكم وما يزال رحيما تام الرحمة بعباده المؤمنين في الدنيا والآخرة. أما في الدنيا : فإنه هداهم إلى الحق الذي جهله غيرهم ، وبصّرهم الطريق الذي حاد عنه سواهم من الدعاة إلى الكفر أو البدعة وأتباعهم ، وأما في الآخرة : فآمنهم من الفزع الأكبر ، وأمر ملائكته أن يتلقوهم بالبشارة بالفوز بالجنة والنجاة من النار ، وما ذاك إلا لمحبته لهم ورأفته بهم.

ومن مظاهر رحمته تعالى ما ورد في صحيح الإمام البخاري عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى امرأة من السبي قد أخذت صبيا لها ، فألصقته إلى صدرها وأرضعته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أترون هذه تلقي ولدها في النار ، وهي تقدر على ذلك؟ قالوا : لا ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فو الله أرحم بعباده من هذه بولدها».

ثم ذكر تعالى دليل رحمته الشامل في الآخرة وعنايته فيها بعد بيان عنايته في الدنيا ، فقال:

﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ : سَلامٌ ، وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً﴾ تحيتهم من الله تعالى بواسطة ملائكته يوم لقائه في الآخرة هو السلام ، كما قال تعالى : ﴿سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ [يس ٣٦ / ٥٨] وقال عزّوجلّ : ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ ، سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ ، فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد ١٣ / ٢٣ ـ ٢٤].

وهيّأ لهم ثوابا حسنا في الآخرة وهو الجنة وما فيها من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والملاذّ والمناظر ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ الحض على ذكر الله وشكره على نعمه ، وتسبيحه في معظم الأحوال بالتسبيح والتهليل والتحميد والتكبير ، دون تقدير بقدر معين أو تحديد بحد ، ليسهل الأمر على العبد ، وليعظم الأجر فيه. روى أحمد وأبو يعلى وغيرهما عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلّى الله عليه وسلّم : «أكثروا ذكر الله حتى يقولوا : مجنون».

٢ ـ إسباغ الرحمة الإلهية على المؤمنين وتسخير الملائكة للاستغفار لهم ، بقصد هدايتهم وإخراجهم من ظلمة الكفر والجهل إلى نور الهدى واليقين. والصلاة من الله على العبد : هي رحمته له وبركته لديه ، وصلاة الملائكة : دعاؤهم للمؤمنين واستغفارهم لهم ، كما قال تعالى : ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر ٤٠ / ٧].

قال ابن عباس : لما نزل ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب ٣٣ / ٥٦] قال المهاجرون والأنصار : هذا لك يا رسول الله خاصّة ، وليس لنا فيه شيء ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية ، أي ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ ..﴾.

وقال القرطبي : وهذه نعمة من الله تعالى على هذه الأمة من أكبر النعم ؛ ودليل على فضلها على سائر الأمم ، وقد قال : ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران ٣ / ١١٠].

ذكر النحاس حديثا : أن بني إسرائيل سألوا موسى عليه السلام : أيصلّي ربّك جلّ وعزّ؟ فأعظم ذلك ؛ فأوحى الله جل وعز : «إن صلاتي بأن رحمتي سبقت غضبي».

٣ ـ قوله تعالى : ﴿لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي من الضلالة إلى الهدى : معناه التثبيت على الهداية ؛ لأنهم كانوا في وقت الخطاب على الهداية. وقوله : ﴿وَكانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾ إخبار برحمته تعالى للمؤمنين وتأنيس لهم ، فهو يرحمهم في الدنيا بهدايتهم إلى الحق ، ويؤمنهم من عذاب الله يوم القيامة ، وتكون تحية الله لهم يوم القيامة بعد دخول الجنة : سلام ، أي سلامة من عذاب الله ، وقيل : عند الموت وقبض الروح.

قال ابن كثير : الظاهر أن المراد ـ والله أعلم ـ تحيتهم ، أي من الله تعالى يوم يلقونه : سلام ، أي يوم يسلم عليهم ، كما قال عزّ وجلّ : ﴿سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ [يس ٣٦ / ٥٨]. وزعم قتادة أن المراد أنهم يحيي بعضهم بعضا بالسلام يوم يلقون الله في الدار الآخرة ، واختاره ابن جرير. وكذا قال القرطبي : ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ أي تحية بعضهم لبعض ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿دَعْواهُمْ فِيها سُبْحانَكَ اللهُمَّ ، وَتَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ ، وَآخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ [يونس ١٠ / ١٠].

مهام دعوة النبي ﷺ

﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (٤٥) وَداعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِراجاً مُنِيراً (٤٦) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيراً (٤٧) وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ وَدَعْ أَذاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفى بِاللهِ وَكِيلاً (٤٨) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَما لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَها فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَراحاً جَمِيلاً (٤٩)﴾

الإعراب :

﴿شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ، وَداعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ ، وَسِراجاً مُنِيراً﴾ كلها منصوبات على الحال. وقوله : ﴿وَسِراجاً﴾ أي وذا سراج ؛ لأن الحال لا يكون إلا وصفا للفاعل أو المفعول ، والسراج ليس وصفا ؛ لأن النبي ﷺ لم يكن سراجا حقيقة.

البلاغة :

﴿وَسِراجاً مُنِيراً﴾ تشبيه بليغ ، حذف منه وجه الشبه وأداة التشبيه ، أي أنت يا محمد كالسراج المضيء في الهداية والإرشاد.

﴿وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَسِراجاً مُنِيراً فَضْلاً كَبِيراً﴾ توافق الفواصل. وكذا أيضا ﴿وَكَفى بِاللهِ وَكِيلاً سَراحاً جَمِيلاً﴾.

المفردات اللغوية :

﴿شاهِداً﴾ على من أرسلت إليهم بتصديقهم وتكذيبهم ﴿وَمُبَشِّراً﴾ من صدّقك وأطاعك

بالجنة ﴿وَنَذِيراً﴾ من كذبك وعصاك بالنار ﴿وَداعِياً إِلَى اللهِ﴾ إلى الإقرار به وبتوحيده وما يجب الإيمان به من صفاته وإلى طاعته ﴿بِإِذْنِهِ﴾ بتيسيره وأمره ﴿وَسِراجاً مُنِيراً﴾ أي كالسراج الوضاء يستضاء به ، ويكون مثله في الاهتداء به ﴿فَضْلاً كَبِيراً﴾ على سائر الأمم في الدنيا ، وأجرا واسعا على أعمالهم في جنات النعيم.

﴿وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ﴾ فيما يخالف شريعتك ، والمراد به التهييج والإثارة له على ما هو عليه من مخالفتهم ، تحقيقا لاستقلال الذات وصون الشريعة من الاختلاط. ويحتمل كون المراد به : الدوام والثبات على ما كان عليه ﴿وَدَعْ أَذاهُمْ﴾ أي اترك إلحاق الأذى والضرر بهم ، وخذ بظاهرهم ، وحسابهم على الله في باطنهم. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ فوض أمرك إليه ، فهو كافيك ﴿وَكَفى بِاللهِ وَكِيلاً﴾ مفوضا إليه الأمر في الأحوال كلها.

﴿نَكَحْتُمُ﴾ النكاح هنا العقد ﴿أَنْ تَمَسُّوهُنَ﴾ أي تجامعوهن ، ويعبر عن الجماع في القرآن أدبا بالمس والملامسة والقربان والتغشي والإتيان ﴿فَما لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَها﴾ أي ليس عليهن انتظار أيام أو أقراء تستوفون عددها ، يمتنعن فيها عن الزواج بآخرين ، فالعدة : الشيء المعدود ﴿فَمَتِّعُوهُنَ﴾ أعطوهن ما يستمتعن به ، والمتعة سنة للمفروض لها المهر ، وواجب لمن لم يفرض لها مهر وهي المفوضة في رأي الحنابلة والحنفية ، وسنة فقط في غير المفوضة عند الجمهور ، وواجبة لكل مطلّقة عند الشافعية ، إلا المطلقة قبل الدخول التي سمي لها مهر ، فإنه يكتفى لها بنصف المهر ، وتكون المتعة سنة مستحبة لها ، وهو كسوة شاملة أو ثلاثون درهما ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَراحاً جَمِيلاً﴾ أي خلّوا سبيلهن من غير إضرار ولا إيذاء ؛ إذ ليس لكم عليهن عدة.

سبب النزول :

نزول الآية (٤٧):

﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ : أخرج ابن جرير عن عكرمة والحسن البصري قالا : لما نزل ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ﴾ [الفتح ٤٨ / ٢] قال رجال من المؤمنين : هنيئا لك يا رسول الله ، قد علمنا بما يفعل بك ، فما ذا يفعل بنا ، فأنزل الله ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ﴾ الآية [الفتح ٤٨ / ٥]. وأنزل في سورة الأحزاب ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيراً﴾.

وأخرج البيهقي في دلائل النبوة عن الربيع بن أنس قال : لما نزلت :

﴿وَما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ﴾ [الأحقاف ٤٦ / ٩] نزلت بعدها : ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ﴾ [الفتح ٤٨ / ٢] فقالوا : يا رسول الله قد علمنا ما يفعل بك ، فما ذا يفعل بنا؟ فنزل : ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيراً﴾ قال : الفضل الكبير : الجنة. وأخرجه أيضا ابن جرير وعكرمة عن الحسن البصري.

المناسبة :

موضوع السورة متعلق بآداب النبي ﷺ ، فبعد أن أمره الله تعالى بما ينبغي أن يكون عليه مع ربه بقوله : ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ﴾ [الأحزاب ٣٣ / ١] وما ينبغي أن يكون عليه مع أزواجه بقوله : ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ﴾ أمره بما ينبغي أن يكون عليه مع عامة الخلق بقوله : ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ﴾.

وكلما ذكر الله تعالى أدبا أو مكرمة للنبي ﷺ ، ذكر للمؤمنين ما يناسبه ، ففي مقابل أمر النبي ﷺ بالتقوى ، أمر المؤمنين بالذكر : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ﴾ وفي مقابل أدب الزوجات ذكر ما يتعلق بأزواج المؤمنين ، ثم في الآيات التالية ذكر تعالى في مقابل بيان مهام النبي ﷺ أدب المؤمنين مع النبي ﷺ بقوله : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب ٣٣ / ٥٣] ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ﴾.

التفسير والبيان :

ذكر الله تعالى في هذه الآيات سبع مهامّ للنبي ﷺ ، فقال :

١ ـ ٣ : ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً ، وَمُبَشِّراً ، وَنَذِيراً﴾ أي يا أيها الرسول المنزل عليه الوحي ، إنا بعثناك شاهدا على من أرسلت إليهم بتصديقك

وتكذيبك ، واتباع هداك ومخالفتك ، أي متحملا للشهادة في الدنيا ، ومؤديا لما تحمّلته في الآخرة أمام ربك ، وأرسلناك لتبشير من أطاعك بالجنة ، ولإنذار من عصاك بالنار ، فهذه ثلاث مهام من مهمات الدعوة المكلّف بتبليغها إلى البشر كافة. ونظير الآية في الشهادة قوله تعالى : ﴿لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ ، وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ [البقرة ٢ / ١٤٣].

روى الإمام أحمد والبخاري وابن أبي حاتم عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، فقلت : أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة ، قال : «أجل ، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن : ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ وحرزا للأميين ، أنت عبدي ورسولي ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخّاب في الأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويصفح ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء ، بأن يقولوا : لا إله إلا الله ، فيفتح بها أعينا عميا ، وآذانا صمّا ، وقلوبا غلفا».

٤ ـ ٥ : ﴿وَداعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ ، وَسِراجاً مُنِيراً﴾ أي وداعيا الخلق إلى عبادة ربهم ، وطاعته ومراقبته سرا وعلانية ، بأمره إياه ، والإقرار به ، والإيمان بما يجب له من صفات الكمال ، وجعلناك ذا سراج أو كالسراج الوضاء الذي يستضاء به في الظلمات ، ليهتدي بك الناس ، ويستنيروا بشرعك في تحقيق سعادتي الدنيا والآخرة. فقوله ﴿بِإِذْنِهِ﴾ معناه : بأمره إياك ، وتقديره ذلك في وقته وأوانه ، ﴿وَسِراجاً﴾ معناه : ذا سراج ، أو يكون كقول القائل : «رأيته أسدا» أي شجاعا ، فيكون قوله : ﴿سِراجاً﴾ أي هاديا مبينا كالسراج ، يري الطريق ويبين الأمر ، ويهدي الناس إلى الحق وإلى صراط مستقيم.

ومقتضى تشبيه النبي ﷺ بالسراج أن دينه أو أمره يكون ظاهرا واضح الحجة والبرهان ، لا تعقيد فيه ولا التواء ، ولا خفايا فيه ولا أستار.

وإنما شبّه بالسراج لا بالشمس التي هي أشد إضاءة من السراج ؛ لأن ضوء الشمس يبهر العين ، وأما ضوء السراج فترتاح له الأعين.

ووصف السراج بالإنارة ؛ لأن بعض السرج لا يضيء لضعفه ودقة فتيلته.

٦ ـ ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيراً﴾ أي أعلن البشارة لكل من آمن برسالتك وأطاع شرعك بأن لهم فضلا كبيرا على سائر الأمم ، وأجرا عظيما لا يوصف في الدار الآخرة ، وبعد البشارة أتى بالإنذار ، فقال :

٧ ـ ﴿وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ ، وَدَعْ أَذاهُمْ ، وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ، وَكَفى بِاللهِ وَكِيلاً﴾ أي لا تطع هؤلاء الذي كفروا برسالتك ، أو نافقوا فأظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر ، ولا تسمع منهم اعتراضا أو نقدا في أمر الدعوة ، ولا تأبه بهم ، وبلّغ رسالة ربك إلى الناس قاطبة ، ودع عنك أذاهم ، واصفح عنهم ، وتجاوز عن سيئاتهم ، وامض لما أمرك به ربك ، وفوّض أمرك إلى الله تعالى في كل ما تعمل وتذر ، وثق به ، فإن فيه كفاية لهم ، وهو حافظك وراعيك ، وكفى بالله كافيا عبده. والوكيل : الحافظ القائم على الأمر. وفي هذا الكلام القوي وعد بالنصر.

وبعد بيان مهمات النبي ﷺ ، عاد الكلام إلى قضايا الأزواج ، فلما ذكر تعالى قصة زيد وزينب وتطليقه إياها ، وكانت مدخولا بها ، واعتدت ، وخطبها الرسول ﷺ بعد انقضاء عدتها ، بيّن حال من طلقت قبل الدخول (المسيس) وأنها لا عدة عليها ، فقال :

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ ، فَما لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَها ، فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَراحاً جَمِيلاً﴾ أي يا أيها الذين صدقوا بالله ورسوله ، إذا عقدتم عقد النكاح على النساء المؤمنات ، ثم أوقعتم الطلاق عليهن من قبل الدخول بهن ، فلا عدّة لكم عليهن بأيام تستوفون

عددها ، ولكن قدموا لهن بعد الطلاق تطييبا لخاطرهن متعة وهي كسوة تليق بكم وبهن بحسب الزمان والمكان ، وطلقوهن طلاقا لا ضرر فيه ؛ إذ ليس لكم عليهن عدة. والجمال في التسريح : ألا يطالبها بما آتاها.

وتخصيص المؤمنات بالذكر في الآية إرشاد إلى أن المؤمن ينبغي أن ينكح المؤمنة ، فإنها أشد تحصينا لدينه.

وقوله : ﴿فَمَتِّعُوهُنَ﴾ قيل بأنه واجب مختص بالمفوّضة التي لم يسم لها مهر إذا طلقت قبل الدخول ، وقيل : بأنه عام يشمل المفوضة وغيرها ، والأمر إما أمر وجوب أو أمر ندب على حسب اختلاف العلماء ، فمنهم من قال للوجوب ، فيجب مع نصف المهر المتعة أيضا ، ومنهم من قال للاستحباب ، فيستحب أن يمتّعها مع الصداق بشيء.

فقه الحياة أو الأحكام :

تضمنت الآيات الأحكام التالية :

أولا ـ وصف النبي ﷺ بسبع صفات أو أسماء ، فهو الشاهد على أمته بالتبليغ إليهم ، وعلى سائر الأمم بتبليغ أنبيائهم ، وهو المبشر للمؤمنين برحمة الله وبالجنة ، وهو المنذر للعصاة والمكذبين من النار وعذاب الخلد ، وهو الداعي إلى الله بتبليغ التوحيد والأخذ به ومكافحة الكفرة ، وهو نور كالسراج الوضاء بشرعه الذي أرسله الله به ، وهو الذي بشر المؤمنين بالفضل الكبير من الله تعالى ، وهو ذو شرع مستقل مطالب بألا يطيع الكافرين فيما يشيرون عليه من أنصاف الحلول والمداهنة في الدين والممالأة ، لكنه مأمور أيضا أن يدع أذاهم مجازاة على إذايتهم إياه ، فلا يعاقبهم ، وإنما يصفح عن زللهم ، معتمدا على الله وحده بنصر دينه وحفظه وتأييده وعصمته من الناس.

روى ابن أبي حاتم والطبراني عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ، وَداعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِراجاً مُنِيراً﴾ دعا رسول الله ﷺ عليّا ومعاذا فقال : «انطلقا ، فبشّرا ولا تنفرا ، ويسّرا ولا تعسّرا ، فإنه قد نزل علي الليلة آية : ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً﴾ ـ بالجنة ـ ﴿وَنَذِيراً﴾ ـ من النار ـ ﴿وَداعِياً إِلَى اللهِ﴾ ـ شهادة أن لا إله إلا الله ـ ﴿بِإِذْنِهِ﴾ ـ بأمره ـ ﴿وَسِراجاً مُنِيراً﴾ بالقرآن».

ثانيا ـ قال القرطبي [١] : هذه الآية فيها تأنيس للنبي ﷺ وللمؤمنين ، وتكريم لجميعهم. وهذه الآية تضمنت من أسمائه ﷺ ستة أسماء ، ولنبينا ﷺ أسماء كثيرة وسمات جليلة ، ورد ذكرها في الكتاب والسنة والكتب المتقدمة ، وقد سماه الله في كتابه محمدا وأحمد.

وقال ﷺ فيما روى عنه الثقات العدول عند الطبراني عن جابر : «لي خمسة أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر ، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي ، وأنا العاقب». وفي صحيح مسلم من حديث جبير بن مطعم : وقد سماه الله رؤفا رحيما. وفيه أيضا عن أبي موسى الأشعري قال : كان رسول الله ﷺ يسمّي لنا نفسه أسماء ، فيقول : «أنا محمد وأحمد ، والمقفّي (أي أنه آخر الأنبياء) ، والحاشر ، ونبي التوبة ، ونبي الرحمة».

وذكر القاضي ابن العربي في أحكامه (٣ / ١٥٣٤) بمناسبة هذه الآية سبعا وستين اسما للنبي ﷺ هي :

الرسول ، المرسل ، النبي ، الأمي ، الشهيد ، المصدّق ، النور ، المسلم ، البشير ، المبشّر ، النذير ، المنذر ، المبين ، الأمين [٢] ، العبد ، الداعي ، السراج ،

---

(١) تفسير القرطبي : ١٤ / ٢٠٠

(٢) مكرر مع ما بعده «أمين» ويكون النبيء والنبي اسمين.

المنير ، الإمام ، الذّكر ، المذكّر ، الهادي ، المهاجر ، العامل ، المبارك ، الرحمة ، الآمر ، الناهي ، الطيب ، الكريم ، المحلّل ، المحرّم ، الواضع ، الرافع ، المخبر ، خاتم النبيين ، ثاني اثنين ، منصور ، أذن خير ، مصطفى ، أمين ، مأمون ، قاسم ، نقيب ، مزمّل ، مدثّر ، العليّ ، الحكيم ، المؤمن ، المصدّق [1] ، الرؤوف ، الرحيم ، الصاحب ، الشفيع ، المشفّع ، المتوكل ، محمد ، أحمد ، الماحي ، الحاشر ، المقفي ، العاقب ، نبي التوبة ، نبي الرحمة ، نبي الملحمة ، عبد الله ، نبي الحرمين. ذكر ذلك أهل ما وراء النهر.

فالرسول : الذي تتابع خبره عن الله ، وهو المرسل من ربّه ، والمرسل غيره لتبليغ الشرائع إلى الناس مشافهة ، والنبيء مهموز من النبأ وهو الخبر ، وغير مهموز من النّبوة : وهو المرتفع من الأرض ، فهو مخبر عن الله ، رفيع القدر عنده ، والأمي : الذي لا يقرأ ولا يكتب ، والشهيد لشهادته على الخلق في الدنيا والآخرة ، والمصدّق بجميع الأنبياء قبله ، وصدّق ربه بقوله ، وصدق قوله بفعله ، والمنور الذي نور الله به الأفئدة بالإيمان والعلم ، وبدد ظلمات الكفر والجهل ، والمسلم خير المسلمين وأولهم ، والبشير : الذي أخبر الخلق بثوابهم إن أطاعوا وبعقابهم إن عصوا ، والنذير والمنذر : المخبر عما يخاف ويحذر ، والمبين : الذي أبان عن ربه الوحي والدين وأظهر الآيات والمعجزات ، والأمين : الذي حفظ ما أوحي إليه وما وظف به ، والعبد : الذي ذل لله خلقا وعبادة ، والداعي الخلق إلى الحق وترك الضلال ، والسراج : النور الذي يبصر به الخلق الرشد ، والمنير : المنور ، والإمام : المقتدى به المرجوع إلى قوله وفعله ، والذّكر : الشريف في نفسه ، المشرّف غيره ، والمذكّر : الذي يخلق الله على يديه الذّكر ، أي تذكر الله ، والهادي : الذي أبان النجدين ، أي طريقي الخير والشر ، والمهاجر : لأنه هجر ما نهى الله عنه ، وهجر أهله ووطنه ، والعامل : لأنه قام

---

(١) مكرر مع ما قبله ، ويكون المرسل والمرسل اسمين.

بطاعة ربه ، ووافق فعله قوله واعتقاده ، والمبارك : الذي جعل الله في حاله زيادة الثواب ، وفي حال أصحابه فضائل الأعمال ، وفي أمته زيادة العدد على جميع الأمم ، والرحمة : الذي رحم الله به العالمين في الدنيا من العذاب الشامل ، وفي الآخرة بتعجيل الحساب ، والآمر والناهي : المبلّغ الأمر والنهي ، والطيب : فلا أطيب منه ، لسلامته عن خبث القلب وخبث القول وخبث الفعل. والكريم : الجواد على التمام والكمال ، والمحلّل والمحرّم : مبيّن الحلال والحرام ، والواضع والرافع : الذي وضع الله به قوما ورفع آخرين ، والمخبر : النبيء ، وخاتم النبيين : آخرهم ، وثاني اثنين : أحد اثنين والآخر أبو بكر في غار جبل ثور ، والمنصور : المعان من قبل الله بالعزة والظهور على الأعداء ، وأذن خير : لا يعي من الأصوات إلا خيرا ولا يسمع إلا الأحسن ، والمصطفى : المخبر عنه بأنه صفوة الخلق ، والأمين كما تقدم : المؤتمن على المعاني ، والمأمون : الذي لا يخاف من جهته شرّ ، وقاسم : يقسم الزكوات والأخماس وسائر الأموال بين الناس ، ونقيب : يتولى الأمور ، ويحفظ الأخبار ، وقد وصف نفسه للأنصار بذلك فقال : أنا نقيبكم ، والمزمّل : المتلفف بثيابه ، والمدثر : المتغشّي بثيابه ، والعلي : الرفيع القدر والمكان ، الشريف الشأن ، والحكيم : العامل بما علم ، والمؤمن : المصدّق لربه اعتقادا وفعلا ، والرؤوف الرحيم : لما أعطاه الله من الشفقة على الناس ، والصاحب : الذي كان مع أتباعه حسن المعاملة ، عظيم الوفاء ، والشفيع المشفّع : الراغب إلى الله في أمر الخلق بتعجيل الحساب ، وإسقاط العذاب وتخفيفه ، والمتوكل : الملقي مقاليد الأمور إلى الله علما وعملا ، والمقفّي : العابد ، ونبي التوبة : لأنه تاب الله على أمته بالقول والاعتقاد ، دون تكليف بقتل أو إصر ، ونبي الرحمة : المشفق على الناس ، ونبي الملحمة : المبعوث بحرب الأعداء والنصر عليهم.

ثالثا ـ يرى مجاهد أن الأمر بالعفو والصفح عن الكافرين في قوله تعالى : ﴿وَدَعْ أَذاهُمْ﴾ منسوخ بآية السيف.

رابعا ـ في آية ﴿إِذا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِناتِ ..﴾ أحكام كثيرة منها :

١ ـ المرأة المطلقة قبل الدخول لا عدة عليها بنص الكتاب وإجماع الأمة على ذلك ، فإن دخل بها فعليها العدّة إجماعا.

والمشهور عند الفقهاء أن العدّة ليست خالص حق العبد ، وإنما يتعلق بها حق الله وحق العبد معا ؛ لأن منع الفساد باختلاط الأنساب من حق الشارع أيضا ، ولا تسقط العدة إذا أسقطها المطلّق ؛ لأن الشرع أثبتها. والعدة شرعا : المدة التي تنتظر فيها المرأة لمعرفة براءة رحمها من الحمل ، أو للتعبد ، أو للتفجع على زوج مات.

٢ ـ إطلاق النكاح على العقد وحده ، وليس في القرآن آية أصرح في ذلك منها ، وقد اتفق العلماء على أن المراد بالنكاح هنا العقد ، ولم يرد لفظ النكاح في كتاب الله إلا في معنى العقد. والنكاح في الأصل حقيقة في الوطء ، لكن من أدب القرآن الكناية عن الوطء أو الجماع بلفظ : الملامسة والمماسّة والقربان والتغشّي والإتيان. وسمي العقد نكاحا من حيث إنه طريق إليه ، كتسمية الخمر إثما ؛ لأنه سبب في اقتراف الإثم.

٣ ـ إباحة طلاق المرأة قبل الدخول بها ، وهذه الآية مخصّصة لقوله تعالى : ﴿وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة ٢ / ٢٢٨] ولقوله تعالى : ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ ، فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ﴾ [الطلاق ٦٥ / ٤].

٤ ـ قوله تعالى : ﴿الْمُؤْمِناتِ﴾ خرج مخرج الغالب من حال المؤمنين أنهم لا يتزوجون إلا بمؤمنات ، ولكن لا فرق في الحكم بين المؤمنة والكتابية في إباحة الزواج بالاتفاق.

٥ ـ استدل جمهور العلماء منهم الشافعي أحمد بقوله تعالى : ﴿إِذا نَكَحْتُمُ

﴿**الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ**﴾ بمهلة ﴿**ثُمَّ**﴾ على أن الطلاق لا يكون إلا بعد نكاح ، ولا طلاق قبل النكاح ، فمن طلق المرأة قبل نكاحها وإن عيّنها ، فلا يلزمه ، فمن قال : كل امرأة أتزوجها فهي طالق ، أو إن تزوجت فلانة فهي طالق ، لا يعد طلاقا ، فإذا تزوج لم تطلق زوجته حينئذ ، سواء خص أو عم ، وسواء أنجز أو علّق.

وسئل ابن عباس عن ذلك ، فقال : هو ليس بشيء ، فقيل له : إن ابن مسعود كان يقول : إن طلق ما لم ينكح فهو جائز ، فقال : رحم الله أبا عبد الرحمن ، لو كان كما قال ، لقال الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا طلّقتم المؤمنات ، ثم نكحتموهن) ولكن إنما قال : ﴿**إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ**﴾.

وروى ابن ماجه عن علي والمسور بن مخرمة رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال : «لا طلاق قبل النكاح».

وروى أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : «لا طلاق لابن آدم فيما لا يملك».

وقال أبو حنيفة رحمه الله : لا فرق بين من خص أو عم ؛ لأن الطلاق يقع في الملك ، فإن عمّ ، فقال : كل امرأة أتزوجها فهي طالق ، تطلق منه ، وهذا تعليق معنوي للطلاق على الملك ، ومثله التعليق اللفظي : «إن تزوجت فلانة فهي طالق» [1]. أما تنجيز الطلاق على الأجنبية فلا يقع ؛ لأن الطلاق الناجز لا يقع في غير الملك بالاتفاق.

وقال مالك رحمه الله : إن عم لم يقع ؛ لأنه ضيق على نفسه أنواع الزواج ،

---

(١) أحكام القرآن للجصاص : ٣ / ٣٦٤

والأمر إذا ضاق اتسع وإن عين امرأة بذاتها أو بقبيلة أو ببلد معين ، يلزم ويقع.

٦ . هل الخلوة قبل الدخول بمثابة الجماع؟

يرى الشافعي وأحمد أن الخلوة ليست كالجماع ؛ لأن ظاهر التقييد بعدم المس في قوله تعالى : ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَ﴾ دليل على الفرق بين الخلوة والجماع ؛ والمس كناية عن الجماع ، كما بينا ، والخلوة لا توجب ما يوجبه الجماع من العدة بعد الطلاق.

ويرى الحنفية والمالكية أن الخلوة الصحيحة كالجماع توجب العدة ؛ لما رواه الدار قطني والجصاص الرازي في أحكام القرآن : «من كشف خمار امرأة ، ونظر إليها ، وجب الصداق ، دخل بها أو لم يدخل».

وروي عن زرارة بن أبي أوفى أنه قال : قضى الخلفاء الراشدون المهديون أنه إذا أرخى الستور ، وأغلق الباب ، فلها الصداق كاملا ، وعليها العدة ، دخل بها أو لم يدخل.

والعدة عند الحنفية واجبة بعد الخلوة قضاء وديانة ، فلا يحل للمرأة أن تتزوج بزوج آخر قبل أن تعتد ، ما دامت الخلوة بالأول كانت صحيحة ، ولو من غير وقاع. ومنهم من يقول : إنه يحل لها ذلك متى كان الزوج لم يواقعها ، أما في القضاء فلا اعتبار إلا بالظاهر.

٧ . استدلّ داود الظاهري بظاهر الآية على أنه لا عدّة على المرأة المدخول بها المطلقة الرجعية أو البائنة بينونة صغرى إذا راجعها زوجها أو عقد عليها قبل انقضاء عدتها ، ثم طلقها قبل أن يمسها ؛ لأنها مطلقة قبل الدخول بها ، فليس عليها عدة جديدة للطلاق الثاني ؛ لأنه طلاق قبل الدخول ، وليس عليها أيضا

أن تكمل العدة الأولى ؛ لأن الطلاق الثاني قد أبطل الطلاق الأول ، ثم يكون لها نصف الصداق في صورة البينونة.

وقال عطاء بن أبي رباح والشافعي في أحد قوليه : يجب على المرأة في الحالتين أن تبني على عدة الطلاق الأول ، ولا تستأنف عدة جديدة ؛ إذ الطلاق الثاني لا عدة له ، ولكن لا يبطل ما وجب بالطلاق الأول ، فإنه طلاق بعد دخول ، يجب أن تراعى فيه حكمة الشارع في إيجاب الاعتداد ، وعلى الزوج نصف الصداق في صورة البينونة ، كما قال الظاهرية.

وقال أبو حنيفة وأبو يوسف والثوري والأوزاعي : يجب على المرأة أن تستأنف عدة جديدة في الحالتين ؛ لأنه وإن لم يحصل دخول ، فإن المرأة كان مدخولا بها من قبل ، وعلى الرجل في صورة البينونة مهر كامل بسبب كون المرأة مدخولا بها.

وفرق المالكية بين الطلاق الرجعي والبائن ، فأوجبوا على الرجعية أن تستأنف عدة كاملة ؛ إذ إنها في حكم الموطوءة بعد المراجعة ، ولم يوجبوا على البائن عدة ؛ لأن النكاح بعد البينونة عقد جديد ، فالطلاق بعده يصدق عليه أنه طلاق قبل الدخول ، فلا يوجب عدة ، لكنه لا يصح أن يهدم ما وجب على المرأة بالطلاق ، فعليها أن تكمل العدة الأولى ، ولها على المطلّق نصف المهر.

٨ . استدل الحسن البصري وأبو العالية بظاهر قوله تعالى : ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ على إيجاب المتعة للمطلقة قبل الدخول ، سواء أفرض لها مهر أم لم يفرض ، ويؤيد ذلك ظاهر قوله تعالى : ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ ، حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة ٢ / ٢٤١].

وهذا مذهب الشافعية أيضا ، لكنهم استثنوا المطلقة قبل الدخول التي سمي لها مهر ، فإن لها نصف المهر فقط ، والمتعة سنة مستحبة ، ودليلهم قوله تعالى :

﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ ، وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ ما فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة ٢ / ٢٣٧] فلم يذكر متعة ، قال سعيد بن المسيب : هذه الآية ناسخة لآية الأحزاب : ﴿فَمَتِّعُوهُنَ﴾.

ويرى الحنفية والحنابلة أن المرأة المفوّضة وهي التي لم يفرض لها مهر تجب لها المتعة ، وأما غيرها فالمتعة لها سنة ، واستدلوا بقوله تعالى : ﴿لا جُناحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّساءَ ما لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ، وَمَتِّعُوهُنَّ ، عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ ، وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ ، مَتاعاً بِالْمَعْرُوفِ ، حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة ٢ / ٢٣٦].

وجعل المالكية المتعة سنة مستحبة لكل مطلقة ؛ لأنهم حملوا الأوامر الواردة في شأن المتعة كلها على الندب والاستحباب ؛ لظاهر قوله تعالى : ﴿مَتاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾.

والخلاصة : أن هناك تعارضا بين آية البقرة وبين آية الأحزاب ، وقد دفع بعض العلماء التعارض بجعل آية البقرة مخصصة لآية الأحزاب أو ناسخة لعمومها ، ويكون المعنى : فمتعوهن إن لم يكن مفروضا لهن المهر في النكاح ، وهو مذهب الحنفية والشافعية.

ومن العلماء من حمل المتعة في آية الأحزاب على العطاء مطلقا ، فيشمل نصف المفروض والمتعة المعروفة في الفقه ، إلا أن ذلك الشيء في صورة الفرض مقدر بنصف المفروض بالنص ، وفي صورة عدم الفرض غير مقدر ، فإن اتفقا على شيء فذاك ، وإلا قدرها القاضي باجتهاده على حسب حال الزوجين يسارا وعسرا.

ومنهم من حمل الأمر في آية ﴿فَمَتِّعُوهُنَ﴾ على الإذن الشامل للوجوب والندب ، مع بقاء المتعة على معناها المعروف ، فيكون التمتيع واجبا في صورة

عدم الفرض ؛ لقوله تعالى : ﴿وَمَتِّعُوهُنَ﴾ ومستحبا في صورة الفرض الصحيح ؛ لأنه من الفضل المندوب إليه عموما في قوله تعالى : ﴿وَلا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة ٢ / ٢٣٧].

٩ ـ المتعة : كسوة كاملة ، روى البخاري عن سهل بن سعد وأبي أسيد رضي الله عنهما قالا : «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج أميمة بنت شراحيل ، فلما أن دخلت عليه صلى الله عليه وسلم بسط يده إليها ، فكأنها كرهت ذلك ، فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رازقيين [1]».

النساء اللاتي أحلّ الله زواجهن بالنبي صلى الله عليه وسلم

﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَما مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفاءَ اللهُ عَلَيْكَ وَبَناتِ عَمِّكَ وَبَناتِ عَمَّاتِكَ وَبَناتِ خالِكَ وَبَناتِ خالاتِكَ اللاَّتِي هاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَها لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَها خالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنا ما فَرَضْنا عَلَيْهِمْ فِي أَزْواجِهِمْ وَما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً (٥٠) تُرْجِي مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُناحَ عَلَيْكَ ذلِكَ أَدْنى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِما آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللهُ يَعْلَمُ ما فِي قُلُوبِكُمْ وَكانَ اللهُ عَلِيماً حَلِيماً (٥١) لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ

(١) نوع من الثياب مشهور حينئذ.

مِنْ بَعْدُ وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلاَّ ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكانَ اللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً (٥٢)﴾

الإعراب :

﴿**وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً**﴾ منصوب بالعطف على ﴿**أَزْواجَكَ**﴾ وعامله : ﴿**أَحْلَلْنا**﴾ أو منصوب بتقدير فعل ، أي ويحل لك امرأة مؤمنة.

﴿**إِنْ وَهَبَتْ**﴾ بالفتح إما بدل من ﴿**امْرَأَةً**﴾ أو على حذف حرف الجر ، أي لأن وهبت.

﴿**خالِصَةً لَكَ**﴾ مصدر مؤكد أو حال من ضمير ﴿**وَهَبَتْ**﴾ أو صفة لمصدر محذوف ، أي هبة خالصة.

﴿**لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ**﴾ متعلق ب ﴿**أَحْلَلْنا**﴾ أي أحللنا لك هذه الأشياء ، لكيلا يكون عليك حرج ، أي ضيق.

﴿**وَيَرْضَيْنَ بِما آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَ**﴾ : مرفوع ؛ لأنه تأكيد للضمير الفاعل في ﴿**يَرْضَيْنَ**﴾.

﴿**إِلَّا ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ ما**﴾ : إما مرفوع على البدل من ﴿**النِّساءُ**﴾ في قوله تعالى : ﴿**لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ**﴾ وإما منصوب على أصل الاستثناء ، وهو النصب ، و ﴿**ما**﴾ في هذين الوجهين : اسم موصول يفتقر إلى صلة وعائد ، فالصلة ﴿**مَلَكَتْ**﴾ والعائد محذوف للتخفيف. أو أن تكون ﴿**ما**﴾ مصدرية في موضع نصب على الاستثناء المنقطع.

البلاغة :

﴿**إِنْ أَرادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَها**﴾ فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة بلفظ النبي مكررا ، تنويها بشأنه.

المفردات اللغوية :

﴿**أُجُورَهُنَ**﴾ مهورهن. ﴿**وَما مَلَكَتْ يَمِينُكَ**﴾ أي ما كان من الإماء بسبب السبي والغنيمة

في الحرب كصفية وجويرية. ﴿أَفاءَ اللهُ عَلَيْكَ﴾ ردّه عليك. ﴿اللَّاتِي هاجَرْنَ مَعَكَ﴾ من مكة إلى المدينة ، بخلاف من لم يهاجرن. ﴿يَسْتَنْكِحَها﴾ أي إرادته أن ينكحها ، فإن هبتها نفسها جار مجرى القبول ، والاستنكاح : طلب النكاح والرغبة فيه. ﴿خالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي خصوصية لك لشرف نبوتك واستحقاقك التكريم ، وهو النكاح بلفظ الهبة من غير صداق ، وبه احتج الشافعية على أن النكاح لا ينعقد بلفظ الهبة ؛ لأن اللفظ تابع للمعنى ، وقد خصّ عليه الصلاة والسلام بالمعنى ، فيخص باللفظ.

﴿قَدْ عَلِمْنا ما فَرَضْنا عَلَيْهِمْ فِي أَزْواجِهِمْ﴾ أي على المؤمنين في أزواجهم من الأحكام ، من شرائط العقد ، ووجوب المهر بالوطء إذا لم يسمّ في العقد ، ووجوب القسم بين الزوجات ، وألا يزيدوا على أربع نسوة ، ولا يتزوجوا إلا بولي وشهود ومهر. ﴿وَما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ﴾ من الإماء بشراء أو غيره من أصل رقيق لا من الأحرار ، وبأن تكون الأمة ممن تحل لمالكها كالكتابية ، بخلاف المجوسية والوثنية ، وأن تستبرأ بحيضة قبل الوطء. ﴿لِكَيْلا﴾ متعلق ب ﴿أَحْلَلْنا﴾. ﴿حَرَجٌ﴾ ضيق ومشقة. ﴿وَكانَ اللهُ غَفُوراً﴾ فيما يعسر التحرز عنه. ﴿رَحِيماً﴾ بالتوسعة في مظان الحرج.

﴿تُرْجِي﴾ تؤخر من الإرجاء : وهو التأخير ، قرئ مهموزا وغير مهموز ، وهما لغتان ، يقال : أرجيت الأمر وأرجأته : إذا أخرته. ﴿مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَ﴾ أي من أزواجك عن نوبتها. ﴿وَتُؤْوِي﴾ تضم وتضاجع. ﴿ابْتَغَيْتَ﴾ طلبت. ﴿مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ تجنبت ، من العزلة : الإزالة والتنحية من القسمة. ﴿فَلا جُناحَ عَلَيْكَ﴾ لا إثم عليك ، في طلبها وضمها إليك. وهذا تيسير على النبي ﷺ بعد أن كان القسم واجبا عليه. ﴿ذلِكَ﴾ التخيير. ﴿أَدْنى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَ﴾ أقرب إلى قرة أعينهن وارتياحهن ، وتقرّ : تسرّ. ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ ما فِي قُلُوبِكُمْ﴾ من أمر النساء والميل إلى بعضهن ، فاجتهدوا في الإحسان ، وإنما خيرناك يا رسول الله فيهن تيسيرا عليك في كل ما أردت. ﴿وَكانَ اللهُ عَلِيماً﴾ بخلقه وبذات الصدور. ﴿حَلِيماً﴾ لا يعاجل بالعقوبة ، فهو حقيق بأن يتقى.

﴿لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ﴾ من بعد التسع التي اخترنك ، وهو في حقه كالأربع في حقنا ، أو من بعد اليوم ، حتى لو ماتت واحدة ، لم يحل له نكاح أخرى. وقرئ : يحل وتحل بالياء والتاء ، وعلى قراءة الياء ؛ لأن تأنيث الجمع غير حقيقي. ﴿وَلا أَنْ تَبَدَّلَ﴾ أي تتبدل ، بأن تطلقهن كلهن أو بعضهن ، ثم تتزوج بدل المطلقة. ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَ﴾ حسن الأزواج المستبدلة ، وهو حال من فاعل ﴿تَبَدَّلَ﴾. ﴿إِلَّا ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ من الإماء ، فتحل لك ، وهو استثناء من النساء اللاتي يشملن الأزواج والإماء ، وقيل : استثناء منقطع ، وقد ملك ﷺ بعدهن مارية القبطية ، وولدت له إبراهيم ومات في حياته. ﴿رَقِيباً﴾ مراقبا ومحافظا ، فلا تتخطوا ما حدّ لكم.

سبب النزول :

نزول الآية (٥٠):

﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنا لَكَ﴾ : أخرج الترمذي وحسنه والحاكم وصححه عن ابن عباس عن أم هانئ بنت أبي طالب قالت : خطبني رسول الله ﷺ ، فاعتذرت إليه ، فعذرني ، فأنزل الله : ﴿إِنَّا أَحْلَلْنا لَكَ﴾ إلى قوله : ﴿اللَّاتِي هاجَرْنَ مَعَكَ﴾ فلم أكن أحل له ؛ لأني لم أهاجر.

وأخرج ابن أبي حاتم عن أم هانئ قالت : نزلت فيّ هذه الآية : ﴿وَبَناتِ عَمِّكَ وَبَناتِ عَمَّاتِكَ وَبَناتِ خالِكَ وَبَناتِ خالاتِكَ اللَّاتِي هاجَرْنَ مَعَكَ﴾. أراد النبي ﷺ أن يتزوجني ، فنهي عني ، إذ لم أهاجر.

وقوله تعالى : ﴿وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً﴾ : أخرج ابن سعد عن عكرمة في قوله : ﴿وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً﴾ الآية قال : نزلت في أم شريك الدوسية. وأخرج ابن سعد عن منير بن عبد الله الدؤلي أن أم شريك غزية بنت جابر بن حكيم الدوسية عرضت نفسها على النبي ﷺ ، وكانت جميلة ، فقبلها ، فقالت عائشة : ما في امرأة حين تهب نفسها لرجل خير ، قالت أم شريك : فأنا تلك ، فسماها الله مؤمنة ، فقال : ﴿وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَها لِلنَّبِيِّ﴾ فلما نزلت هذه الآية ، قالت عائشة : إن الله يسرع لك في هواك.

نزول الآية (٥١):

﴿تُرْجِي مَنْ تَشاءُ﴾ : أخرج الشيخان عن عائشة : أنها كانت تقول : أما تستحي المرأة أن تهب نفسها! فأنزل الله : ﴿تُرْجِي مَنْ تَشاءُ﴾ الآية ، فقالت عائشة : أرى ربك يسارع لك في هواك.

وأخرج ابن سعد عن أبي رزين العقيلي قال : همّ رسول الله ﷺ أن يطلق

من نسائه ، فلما رأين ذلك ، جعلناه في حلّ من أنفسهن ، يؤثر من يشاء على من يشاء ، فأنزل الله : ﴿إِنَّا أَحْلَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ﴾ إلى قوله : ﴿تُرْجِي مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَ﴾ الآية.

نزول الآية (٥٢):

﴿لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ﴾ : أخرج ابن سعد عن عكرمة قال : لما خيّر رسول الله ﷺ أزواجه اخترن الله ورسوله ، فأنزل الله : ﴿لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ ، وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ﴾. وهذا ما ذكره غير واحد من العلماء كابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وابن زيد وابن جرير وغيرهم : أن هذه الآية نزلت مجازاة لأزواج النبي ﷺ ورضا عنهن على حسن صنيعهن في اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة لما خيرهن رسول الله ﷺ ، كما تقدم في الآية.

المناسبة :

سبق الكلام في أنكحة المؤمنين وأحكامها ، وهنا خصص الكلام لنساء النبي ﷺ اللاتي يحل له نكاحهن ، وقصر التحريم عليهن ، وتخييره في القسم بين الزوجات دون إلزام ، بالمبيت عند من يشاء ، وترك البيتوتة عند من يريد ، وزواجه بهبة المرأة نفسها له بغير صداق ، مما يجري مجرى القبول ، وكل من ترك إيجاب القسم والزواج بلفظ الهبة خصوصية للنبي ﷺ دون بقية المؤمنين.

التفسير والبيان :

١ ـ ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَ﴾ ذكر الله تعالى في هذه الآية أربع مجموعات أو فئات من النساء اللاتي أباح الله لنبيه الزواج بهن ، وهذه هي الفئة الأولى وهي النساء الممهورات ، والمعنى : يا أيها الرسول ،

إنا أبحنا لك الأزواج اللاتي أعطيتهن مهورهن ، وهي الأجور هنا ، والمرأة التي أوتيت مهرها أو صداقها أفضل وأولى ممن لم تأخذ صداقها ، فهذه هي الحالة الكاملة التي بدأ النص بها ، ويكون الأكمل إيتاء المهر كاملا ، دون تأخير شيء منه ، وأما تأخير الناس الآن بعض المهر ، فهو من مستحدثات العرف ، بقصد الحذر ، وبسبب التغالي في المهور وتعذر دفع كامل المهر.

وقد كان مهره ﷺ لنسائه اثنتي عشرة أوقية ونصفا ، أي خمس مائة درهم فضة ، إلا أم حبيبة بنت أبي سفيان ، فإن النجاشي رحمه الله أمهرها عنه أربع مائة دينار ، وإلا صفية بنت حييّ ، فإنه اصطفاها من سبي خيبر ، ثم أعتقها وجعل عتقها صداقها ، وكذلك جويريّة بنت الحارث المصطلقية أدى عنها نجوم كتابتها إلى ثابت بن قيس بن شماس ، وتزوجها.

٢ . ﴿وَما مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفاءَ اللهُ عَلَيْكَ﴾ أي وأباح لك التسري مما أخذت من المغانم ، وهذه هي الفئة الثانية من النساء ، وهي الإماء المملوكات. وقد ملك ﷺ كما بيّنا صفية وجويرية ، وريحانة بنت شمعون النضرية ، ومارية القبطية أم إبراهيم ، وكانتا من السراري.

٣ . ﴿وَبَناتِ عَمِّكَ وَبَناتِ عَمَّاتِكَ وَبَناتِ خالِكَ وَبَناتِ خالاتِكَ اللَّاتِي هاجَرْنَ مَعَكَ﴾ أي وأحللنا لك من الأقارب بنات العم ، وبنات العمات ، وبنات الخال ، وبنات الخالة المهاجرات معك ، دون غير المهاجرات. وهذه هي الفئة الثالثة التي شرط فيها كون المرأة مهاجرة ، ولم تحل له غير المهاجرة كأم هانئ ، كما تقدم. والمراد من بنات العم والعمة : القرشيات ، فإنه يقال للقرشيين قربوا أم بعدوا : أعمامه ﷺ ، ويقال للقرشيات قربن أم بعدن : عماته ، والمراد من بنات الخال والخالة : بنات بني زهرة ، وقد كان عند النبي ﷺ ستّ من القرشيات ، ولم يكن عنده زهرية.

والحكمة في إفراد العم مجاراة مألوف العرب بإفراده في حال إضافة الابن والبنت له ، وجاء الكلام في الخال على مثاله ، وقيل : جاء الكلام في العمة والخالة بالجمع ، وإن كانتا مضافين ، لمكان تاء الوحدة ، وهي تأبى العموم في الظاهر ، وأما عدم الجمع في العم والخال فقد جاء على الأصل من إرادة العموم عند الإضافة.

٤ . ﴿وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَها لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَها خالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ويحل لك أيها النبي المرأة المؤمنة التي تهب نفسها لك أن تتزوجها بغير مهر إن شئت ذلك ، وهذه هي الفئة الرابعة ، وإباحتها بشرطين : هبة نفسها للنبي ﷺ ، ورغبة النبي ﷺ في نكاحها ، والزواج بلفظ الهبة من خصوصيات النبي ﷺ دون سائر المؤمنين ، فله الزواج بها من غير مهر ولا ولي ولا شهود.

هذه هي الأصناف الأربعة التي أحلها الله لنبيه : الممهورات ، والمملوكات ، والأقارب ، والواهبات أنفسهن من غير مهر. والمراد بالإحلال : الإذن العام بالنكاح. ويلاحظ كما قال ابن عباس ومجاهد : «لم يكن عند النبي ﷺ امرأة موهوبة» ، وأما المرأة التي وهبت نفسها له وهي أم شريك الدوسية ، فإنها لما قالت للنبي : وهبت نفسي لك ، سكت عنها حتى قام رجل ، فقال : زوّجنيها يا رسول الله ، إن لم تكن لها بها حاجة. وكذلك وهبت نساء أخريات أنفسهن للنبي ﷺ ، ولكن لم يكن عنده ﷺ امرأة وهبت نفسها ، أخرج ابن سعد «أن ليلى بنت الحطيم وهبت نفسها للنبي ﷺ ، ووهب نساء أنفسهن ، فلم نسمع أن النبي ﷺ قبل منهن أحدا».

فإن كانت الواهبة نفسها كافرة فلا تحل للنبي ﷺ ، قال ابن العربي : والصحيح عندي تحريمها عليه ، وبهذا يتميز علينا ، فإنه ما كان من جانب

الفضائل والكرامة فحظّه فيه أكثر ، وما كان من جانب النقائص فجانبه عنها أظهر ، فجوز لنا نكاح الحرائر من الكتابيات ، وقصر هو لجلالته على المؤمنات ، وإذا كان لا يحلّ له من لم يهاجر لنقصان فضل الهجرة ، فأحرى ألا تحلّ له الكتابية الحرة ، لنقصان الكفر (١).

أما لو وهبت امرأة نفسها لرجل غير النبي ﷺ ، وهي المفوّضة ، وجب عليه لها مهر مثلها بالدخول أو بالموت ، وقد حكم بذلك رسول الله ﷺ في بروع بنت واشق ، لما فوضت نفسها ، ومات عنها زوجها ، فقضى لها بصداق مثلها.

ثم أكد تعالى مضمون جملة ﴿خالِصَةً لَكَ ..﴾ ببيان مغايرة أحكامه ﷺ لأحكام المؤمنين أحيانا ، فقال :

﴿قَدْ عَلِمْنا ما فَرَضْنا عَلَيْهِمْ فِي أَزْواجِهِمْ وَما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ ، لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ، وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ أي إن ما ذكر حكمك أيها الرسول مع نسائك ، وأما حكم أمتك مع نسائهم ، فعندنا علمه ، نبينه لهم على حسب مقتضى الحكمة والمصلحة ، والمعنى : قد علم الله ما فرض من أحكام وشرائط وقيود في شأن أزواج المؤمنين والمملوكات ، مما فيه صلاحهم وجعلهم غير النبي ﷺ في تلك الأحكام ، من حصرهم في أربع نسوة حرائر ، وما شاؤوا من الإماء المؤمنات والكتابيات غير الوثنيات والمجوسيات ، وعدم إباحة الزواج لهم بلفظ الهبة ، واشتراط الولي والمهر والشهود.

وهذه جملة اعتراضية تؤكد ما سلف وتبينه ، ثم ذكر تعالى علة اختصاصه ﷺ ببعض الأحكام مثلما تقدم ، وهو أننا أبحنا أو أحللنا لك ما ذكر من النساء والمملوكات والأقارب والواهبة ، لندفع عنك الضيق والمشقة التي تلحقك ، وتتفرغ لتبليغ الرسالة ، وكان الله وما يزال غفورا لك وللمؤمنين

---

(١) أحكام القرآن : ٣ / ١٥٤٧

ما لا يمكن التحرز عنه ، رحيما بك وبهم بدفع الحرج والعنت (المشقة) ، وعدم العقاب على ذنب تابوا عنه. وفي الجملة : إن قوله : ﴿وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ آنس به تعالى جميع المؤمنين بغفرانه ورحمته.

ثم أجاب الله تعالى عن غيرة بعض نساء النبي ﷺ مثل عائشة من النساء اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ ، وعن تفويضهن أمر القسم للرسول ﷺ ، فقال :

﴿تُرْجِي مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ ، وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشاءُ﴾ أي لك يا رسول الله الحرية المطلقة في القسم بين زوجاتك ، فلك أن تؤخر مضاجعة من تشاء من نسائك ، وتبيت مع من تشاء ، لا حرج لك أن تترك القسم لهن ، ولا يجب عليك قسم ، بل الأمر لك ، فتقدم من شئت ، وتؤخر من شئت. ومع هذا كان النبي ﷺ يقسم لهن.

﴿وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُناحَ عَلَيْكَ﴾ أي ومن طلبت إلى المبيت معك ممن تجنبت وتركت البيتوتة معهن ، فلا إثم ولا حرج ولا ضيق عليك في ذلك ، وكذلك لا ضير عليك في إرجاع من طلقت منهن.

ثم أبان الله تعالى سبب هذا التفويض للنبي ﷺ في الإيواء والإرجاء وأنه لمصلحتهن ، فقال :

﴿ذلِكَ أَدْنى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ ، وَلا يَحْزَنَّ ، وَيَرْضَيْنَ بِما آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَ﴾ أي إذا علمن أن الله قد وضع عنك الحرج في القسم وأنه غير واجب عليك ، فإن شئت قسمت ، وإن شئت لم تقسم ، وأنت مع ذلك تقسم لهن باختيارك لا جبرا عنك ، فرحن بذلك ، واستبشرن به ، وقدرن جميلك ، واعترفن بمنتك عليهن في قسمك لهن ، وتسويتك بينهن ، وإنصافك لهن ، وعدلك فيهن ، ورضين كلهن بما تفعل ، دون إقلاق ولا بلبلة.

ثم خاطب الله النبي ﷺ وأزواجه بطريق تغليب الذكور ، فقال :

﴿وَاللهُ يَعْلَمُ ما فِي قُلُوبِكُمْ ، وَكانَ اللهُ عَلِيماً حَلِيماً﴾ أي إن الله عليم تام العلم بالميل إلى بعضهن دون بعض ، من غير اختيار ، ومما لا يمكن دفعه ، وكان الله وما يزال عليما بما تخفيه النفوس ، وتكتمه السرائر ، حليما يحلم ويغفر ، فلا يعاجل المذنبين بالعقوبة ، ليتمكنوا من التوبة والإنابة. وفي هذا حثّ على حسن النوايا ، وسلامة الطوية ، وتحسين معاملة النساء للتغلب على أثر الغيرة.

روى الإمام أحمد وأصحاب السنن الأربعة عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه ، فيعدل ، ثم يقول : «اللهم هذا فعلي فيما أملك ، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك» زاد أبو داود : يعني القلب.

ثم ذكر الله تعالى مجازاة نساء النبي ﷺ اللاتي اخترن الله ورسوله ، فمنع طلاقهن ، وحرّم غيرهن عليه ، فقال :

﴿لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ﴾ أي يحرم عليك أيها الرسول الزواج بغير هؤلاء النساء التسع اللاتي عندك الآن ، جزاء لاختيارهن الله ورسوله ، أخرج أبو داود في ناسخه وابن مردويه والبيهقي في سننه عن أنس قال : «لما خيّرهنّ ، فاخترن الله ورسوله ﷺ ، قصره سبحانه عليهن».

وهذا هو الحكم الأول : تحريم بقية النساء عليه.

﴿وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ ، وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ، إِلَّا ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ وهذا هو الحكم الثاني : منع استبدالهن وتحريم طلاقهن ، أي ولا يحلّ لك أيها الرسول أن تتزوج غير اللاتي في عصمتك ، وأن تستبدل بهن غيرهن ، بأن تطلق واحدة منهن وتتزوج بدلها أخرى ، وإن أعجبك حسنها ، إلا ما ملكت يمينك من الإماء ، مثل مارية القبطية التي أهداها المقوقس له ، فتسرّى بها ، وولدت له إبراهيم ومات رضيعا.

وقوله : ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَ﴾ دليل على جواز النظر إلى المخطوبة ، أخرج أبو داود أن النبي ﷺ قال : «إذا خطب أحدكم المرأة ، فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها ، فليفعل». وقال المغيرة بن شعبة : «خطبت امرأة ، فقال لي النبي ﷺ : هل نظرت إليها؟ قلت : لا ، قال : انظر إليها ، فإنه أحرى أن يؤدم بينكما».

﴿وَكانَ اللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً﴾ أي وكان الله وما يزال مطلعا على كل شيء ، عالما مراقبا كل ما يكون من أحد وما يحدث في الكون ، فاحذروا مخالفة أوامره ، فإن الله يجازي كل امرئ بما عمل.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على الأحكام التالية :

١ ـ إباحة أصناف أربعة من النساء للنبي ﷺ توسعة عليه ، وتيسيرا له في تبليغ الرسالة ، وهنّ :

أ ـ جميع النساء حاشا ذوات المحارم إذا آتاهن مهورهن ، وهذا قول جمهور العلماء ، بدليل ما أخرجه الترمذي عن عطاء قال : قالت عائشة رضي الله عنها : ما مات رسول الله ﷺ حتى أحلّ الله تعالى له النساء. وقال ابن عباس : كان رسول الله ﷺ يتزوج في أي الناس شاء ، وكان يشقّ ذلك على نسائه ، فلما نزلت هذه الآية ، وحرم عليه بها النساء إلا من سمّي ، سرّ نساؤه بذلك.

وقد استنبط الكرخي من تسمية المهر أجرا جواز انعقاد النكاح بلفظ الإجارة ، ولم يتابعه الحنفية في ذلك ، لأن معنى الإجارة يتنافى مع عقد النكاح ، إذ الإجارة عقد مؤقت ، والنكاح عقد مؤبد يبطله التوقيت. ثم إن النكاح ليس عقد تمليك وإنما هو استباحة ، وكذلك المهر في النكاح ليس عوضا ، وإنما هو عطية أوجبها الله تعالى ، إظهارا لخطر المحل.

ب ـ السراري مملوكات اليمين اللاتي ردها الله عليه من غنائم الحرب المأخوذة على وجه القهر والغلبة في وقت كان السبي أو الاسترقاق مشروعا في العالم ، معاملة بالمثل.

ج ـ قريباته بنات العم والخال والعمة والخالة المهاجرات معه من مكة إلى المدينة ، وهن بنات عمه العباس وغيره من أولاد عبد المطلب وبنات أولاد بنات عبد المطلب ، وذلك يشمل القرشيات ، وبنات الخال من ولد بنات عبد مناف بن زهرة. وقد كان عنده خمس قرشيات ، ولم يكن عنده من أولاد الخال والخالة أحد.

والمراد بالمعية في قوله : ﴿مَعَكَ﴾ الاشتراك في الهجرة ، لا في الصحبة فيها ، فمن هاجر حلّ له ، كان في صحبته إذ هاجر أو لم يكن.

وذكر الله تعالى العم فردا والعمات جميعا ، وكذا الخال والخالات لحكمة عدا ما ذكرنا هي : أن العم والخال في الإطلاق اسم جنس كالشاعر والراجز ، وليس كذلك العمة والخالة ، وهذا عرف لغوي.

د ـ النساء اللاتي وهبن له أنفسهن من غير مهر ، وهن أربع : ميمونة بنت الحارث ، وزينب بنت خزيمة أم المساكين الأنصارية ، وأم شريك بنت جابر ، وخولة بنت حكيم. ولكن لم يكن عنده إحدى الواهبات أنفسهن له ، إذ لم يقبل منهن أحدا.

٢ ـ قوله تعالى : ﴿وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً﴾ يدل على أن الكافرة لا تحلّ له ، كما بيّنا.

وقوله سبحانه : ﴿إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَها﴾ دليل على أن النكاح عقد معاوضة على صفات مخصوصة. وقوله تعالى : ﴿إِنْ أَرادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَها﴾ دليل

على أن الهبة لا تتم إلا بقبول النبي ﷺ ، فإن قبل حلّت له ، وإن لم يقبلها لم يلزم ذلك ، كما إذا وهبت شيئا لرجل ، فلا يجب عليه القبول.

وقوله تعالى : ﴿خالِصَةً لَكَ﴾ دليل على أن انعقاد النكاح بلفظ الهبة من خصوصيات النبي ﷺ ، وأن الهبة لا تحلّ لأحد بعد النبي ﷺ إن كانت هبة نكاح ، ولا يحلّ للمرأة أن تهب نفسها لأحد ، وهذا قول جمهور العلماء.

وقال الحنفية والمالكية : ينعقد النكاح لغير النبي ﷺ بلفظ الهبة ، ويكون للمرأة ما سمي من المهر في العقد ، ومهر المثل إن لم يسمّ شيء ، وللمفوضة طلب المهر قبل الدخول ، ومهر المثل بعد الدخول.

ومنشأ الخلاف هو في معنى قوله تعالى : ﴿خالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فذهب جماعة إلى أن الخصوصية في انعقاد النكاح بلفظ الهبة للنبي ﷺ ، لقوله تعالى : ﴿لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وقوله : ﴿إِنْ أَرادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَها﴾ وقوله سبحانه : ﴿إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَها لِلنَّبِيِّ﴾. وهذا رأي الجمهور.

وذهب آخرون إلى أن الخصوصية الواردة في الآية هي في نكاح الواهبة بغير مهر ، أما عقد النكاح بلفظ الهبة فكان جائزا للنبي ﷺ وأمته على السواء ، أي إن الخصوصية في المعنى دون اللفظ ، لأن الله تعالى أضاف لفظ الهبة إلى المرأة بقوله : ﴿وَهَبَتْ﴾ وأضاف إلى النبي ﷺ إرادة الاستنكاح ، فدلت المخالفة على أن المراد مدلول اللفظ الذي من جانب المرأة ، وهو ما يدل عليه لفظ الهبة من ترك العوض.

٣ ـ ذكر ابن العربي والقرطبي [١] بمناسبة هذه الخصوصية ما خصّ الله تعالى به

---

(١) أحكام القرآن : ٣ / ١٥٤٩ ـ ١٥٥٣ ، تفسير القرطبي : ١٤ / ٢١١ ـ ٢١٣

رسوله من أحكام في الشريعة لم يشاركه فيها أحد ، سواء في مجال الفرض أو التحريم أو الإباحة ، ففرضت عليه أشياء لم تفرض على غيره ، وحرمت عليه أفعال لم تحرم عليهم ، وأبيحت له أشياء لم تبح لهم.

فأما ما اختص به من الفرائض فهو تسعة :

الأول ـ التهجد بالليل ، لقوله تعالى : ﴿يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ، قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [المزمل ٧٣ / ١] ، والصحيح أنه كان واجبا عليه ثم نسخ بقوله تعالى : ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ﴾ [الإسراء ١٧ / ٧٩].

الثاني ـ الضحى. الثالث ـ الأضحى. الرابع ـ الوتر. الخامس ـ السواك. السادس ـ قضاء دين من مات معسرا. السابع ـ مشاورة ذوي الأحلام في غير الشرائع. الثامن ـ تخيير النساء. التاسع ـ إذا عمل عملا أثبته.

وأما ما اختص به مما حرّم عليه فهو عشرة :

الأول ـ تحريم الزكاة عليه وعلى آله. الثاني ـ صدقة التطوع عليه ، وفي آله اختلاف. الثالث ـ خائنة الأعين : وهو أن يظهر خلاف ما يضمر ، أو ينخدع عما يجب. الرابع ـ حرّم الله عليه إذا لبس لأمته (درعه) أن يخلعها عنه أو يحكم الله بينه وبين محاربه. الخامس ـ الأكل متكئا. السادس ـ أكل الأطعمة كريهة الرائحة. السابع ـ التبدل بأزواجه. الثامن ـ نكاح امرأة تكره صحبته. التاسع ـ نكاح الحرّة الكتابية. العاشر ـ نكاح الأمة.

وحرّم الله عليه أشياء لم يحرّمها على غيره تنزيها له وتطهيرا ، فحرّم الله عليه الكتابة وقول الشعر وتعليمه ، تأكيدا لحجته وبيانا لمعجزته ، قال الله تعالى : ﴿وَما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ ، وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت ٢٩ / ٤٨]. وهذا هو المشهور. وذكر النقاش أن النبي ﷺ ما مات حتى كتب.

وحرم عليه أن يمد عينيه إلى ما متّع به الناس ، قال الله تعالى : ﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ﴾ [طه ٢٠ / ١٣١].

وأما ما اختص به مما أحلّ له فهو ستة عشر :

الأول ـ صفيّ المغنم. الثاني ـ الاستقلال بخمس الخمس أو الخمس. الثالث ـ صوم الوصال. الرابع ـ الزيادة على أربع نسوة. الخامس ـ النكاح بلفظ الهبة. السادس ـ النكاح بغير ولي. السابع ـ النكاح بغير صداق. الثامن ـ نكاحه في حالة الإحرام. التاسع ـ سقوط القسم بين الأزواج عنه. العاشر ـ إذا وقع بصره على امرأة وجب على زوجها طلاقها ، وحلّ له نكاحها. هذا ما قاله إمام الحرمين. وقد بيّنا في قصة زيد بن حارثة أن هذا لا يليق بمنصب النبوة ، وكل ما روي مما فيه مساس بذلك هو ساقط غير معتبر ولا دليل عليه [1].

الحادي عشر ـ أنه أعتق صفيّة وجعل عتقها صداقها. الثاني عشر ـ دخوله مكة بغير إحرام ، وفي حقنا فيه اختلاف. الثالث عشر ـ القتال بمكة. الرابع عشر ـ أنه لا يورث ، ويصبح ملكه صدقة. الخامس عشر ـ بقاء زوجيته من بعد الموت. السادس عشر ـ إذا طلّق امرأة تبقى حرمته عليها ، فلا تنكح.

وأبيح له ﷺ أخذ الطعام والشراب من الجائع والعطشان ، وإن كان من هو معه يخاف على نفسه الهلاك ، لقوله تعالى : ﴿النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب ٣٣ / ٦] ، وعلى كل أحد من المسلمين أن يقي النبي ﷺ بنفسه ، وأبيح له أن يحمي لنفسه.

وأكرمه الله بتحليل الغنائم. وجعلت الأرض له ولأمته مسجدا وطهورا ، وكان من الأنبياء من لا تصح صلاتهم إلا في المساجد ، ونصر بالرعب ، فكان

---

(١) انظر أحكام القرآن لابن العربي : ٣ / ١٥٣١

يخافه العدو من مسيرة شهر ، وبعث إلى كافة الخلق ، وقد كان من قبله من الأنبياء يبعث الواحد إلى بعض الناس دون بعض.

وجعلت معجزاته كمعجزات الأنبياء قبله وزيادة. وكانت معجزة موسى عليه السلام العصا وانفجار الماء من الصخرة. وقد انشق القمر للنبي ﷺ ، وخرج الماء من بين أصابعه ﷺ . وكانت معجزة عيسى عليه السلام إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص. وقد سبّح الحصى في يد النّبي ﷺ ، وحنّ الجذع إليه ، وهذا أبلغ. وفضّله الله عليهم بأن جعل القرآن معجزة له ، وجعل معجزته فيه باقية إلى يوم القيامة ، ولهذا جعلت نبوته مؤبدة لا تنسخ إلى يوم القيامة.

٤ . لم يكن القسم بين الزوجات واجبا على النبي ﷺ ، توسعة عليه في ترك القسم وإباحة له ، وإنما كان مخيرا في أزواجه ومع هذا كان النبي ﷺ يقسم بينهن ، دون فرض ، تطييبا لنفوسهن ، وصونا لهن عن أقوال الغيرة التي تؤدي إلى ما لا ينبغي. وهذا أصح ما يراد بالآية.

وقيل : كان القسم واجبا على النبي ﷺ ، ثم نسخ الوجوب عنه بهذه الآية. قال أبو رزين : كان رسول الله ﷺ قد همّ بطلاق بعض نسائه ، فقلن له : اقسم لنا ما شئت ، فكان ممن آوى : عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب ، فكان قسمتهن من نفسه وماله سواء بينهن. وكان ممن أرجى سودة وجويرية وأم حبيبة وميمونة وصفية ، فكان يقسم لهن ما شاء.

٥ . قوله تعالى : ﴿ذلِكَ أَدْنى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَ﴾ بيان الحكمة في التخيير بالقسم ، قال قتادة وغيره : أي ذلك التخيير الذي خيّرناك في صحبتهنّ أدنى إلى رضاهن إذ كان من عندنا ، لأنهن إذا علمن أن الفعل من الله قرّت أعينهن بذلك ورضين ، لأن المرء إذا علم أنه لا حقّ له في شيء ، كان راضيا بما أوتي منه وإن قلّ. وإن علم أن له حقّا لم يقنعه ما أوتي منه ، واشتدت غيرته عليه ، وعظم

حرصه فيه ، فكان ما فعل الله لرسوله من تفويض الأمر إليه في أحوال أزواجه أقرب إلى رضاهن معه ، وإلى استقرار أعينهن بما يسمح به لهن ، دون أن تتعلق قلوبهن بأكثر منه.

وكان ﷺ مع هذا يشدد على نفسه في رعاية التسوية بينهن ، تطييبا لقلوبهن ، كما قدّمنا ، ويقول فيما رواه النسائي وأبو داود عن عائشة ﵂ : «اللهم هذه قدرتي فيما أملك ، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك ، يعني ميل قلبه ، لإيثاره عائشة ﵂ ، دون أن يكون ذلك ظاهرا في شيء من فعله. وكان في مرضه الذي توفي فيه يطاف به محمولا على بيوت أزواجه ، إلى أن استأذنهن أن يقيم في بيت عائشة. أخرج البخاري في صحيحة عن عائشة قالت : «أول ما اشتكى رسول الله ﷺ في بيت ميمونة ، فاستأذن أزواجه أن يمرّض في بيتها ـ يعني بيت عائشة ـ فأذنّ له» وفي الصحيح أيضا عن عائشة ﵂ قالت : إن كان رسول الله ﷺ ليتفقد ، يقول : «أين أنا اليوم ، أين أنا غدا؟» استبطاء ليوم عائشة ﵂ ، قالت : فلما كان يومي قبضه الله بين سحري ونحري (١) ، ﷺ.

٦ ـ على الرجل أن يعدل بين نسائه لكل واحدة منهن يوما وليلة ، ولا يسقط حق الزوجة مرضها ولا حيضها ، ويلزمه المقام عندها في يومها وليلتها. وعليه أن يعدل بينهن في مرضه كما يفعل في صحته ، إلا أن يعجز عن الحركة ، فيقيم حيث غلب عليه المرض ، فإذا صح استأنف القسم. والإماء والحرائر والكتابيات والمسلمات في ذلك سواء ، وأما السراري فلا قسم بينهن وبين الحرائر. روى أبو داود عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : «من كانت له امرأتان ، فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشقه مائل».

---

(١) أي بين جنبي وصدري. والسحر : الرئة ، أطلق على الجنب مجازا ، من باب تسمية المحل باسم الحال فيه ، والنحر : الصدر.

ولا يجمع بينهن في منزل واحد إلا برضاهن ، ولا يدخل لإحداهن في يوم الأخرى وليلتها لغير حاجة ، ويجوز عند الأكثرين دخوله لحاجة وضرورة.

قال مالك : ويعدل بينهن في النفقة والكسوة إذا كن معتدلات الحال ، ولا يلزم ذلك في المختلفات المناصب. وأجاز مالك أن يفضل إحداهما في الكسوة على غير وجه الميل. فأما الحبّ والبغض فخارجان عن الكسب ، فلا يتأتى العدل فيهما ، وهو المعنيّ بقوله ﷺ في قسمه : «اللهم هذا فعلي فيما أملك ، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك» وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّساءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء ٤ / ١٢٩] وقوله تعالى : ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ ما فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الأحزاب ٣٣ / ٥١].

٧ ـ قوله تعالى : ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ ما فِي قُلُوبِكُمْ﴾ خبر عام ، يدخل فيه الإشارة إلى ما في قلب رسول الله ﷺ من محبة شخص دون شخص ، ويدخل في المعنى أيضا المؤمنون. أخرج البخاري عن عمرو بن العاص «أن النبي ﷺ بعثه على جيش ذات السلاسل ، فأتيته فقلت : أي الناس أحبّ إليك؟ فقال : عائشة ، فقلت : من الرجال؟ قال : أبوها ، قلت : ثم من؟ قال : عمر بن الخطاب ، فعدّ رجالا».

والقلب قد يكون مصدر خير أو شر ، يروى أن لقمان الحكيم كان عبدا نجارا قال له سيده : اذبح شاة وائتني بأطيبها بضعتين ، فأتاه باللسان والقلب. ثم أمره بذبح شاة أخرى ، فقال له : ألق أخبثها بضعتين ، فألقى اللسان والقلب. فقال : أمرتك أن تأتيني بأطيبها بضعتين ، فأتيتني باللسان والقلب ، وأمرتك أن تلقي بأخبثها بضعتين ، فألقيت اللسان والقلب؟! فقال : ليس شيء أطيب منهما إذا طابا ، ولا أخبث منهما إذا خبثا.

٨ ـ حظر على النبي ﷺ أن يتزوج على نسائه ، لأنهن اخترن الله ورسوله

والدار الآخرة ، ويكون ذلك قصرا للنبي ﷺ على أزواجه مجازاة لهن ، وشكرا على هذا الاختيار ، كما قصرهن الله عليه إكراما له في قوله : ﴿وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [الأحزاب ٣٣ / ٥٣].

وقيل : إن هذه الآية منسوخة بالسنة ، وهو حديث عائشة ، قالت : ما مات رسول الله ﷺ حتى أحلّ له النساء. وبه قال الشافعي وقيل : إنها منسوخة بآية أخرى ، روى الطحاوي عن أم سلمة قالت : لم يمت رسول الله ﷺ حتى أحلّ الله له أن يتزوج من النساء من شاء ، إلا ذات محرم ، وذلك قوله عزوجل : ﴿تُرْجِي مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشاءُ﴾.

والراجح أن الآية محكمة غير منسوخة ، لأن حديث عائشة كما قال ابن العربي حديث ضعيف واه ، أي شديد الضعف [١]. وأما نسخها بآية : ﴿تُرْجِي مَنْ تَشاءُ ...﴾ فقال فيه بعض فقهاء الكوفة : محال أن تنسخ هذه الآية : ﴿تُرْجِي مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَ لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ﴾ وهي قبلها في المصحف الذي أجمع عليه المسلمون.

وأما القول بأن الترتيب في التلاوة ليس دليل الترتيب في النزول ، فهو صحيح ، لكن النسخ في الحقيقة يتطلب أمرين : ثبوت تأخر الناسخ عن المنسوخ ، وأن يكون بينهما تعارض. وهذان لم يتوافرا هنا.

٩ ـ ظاهر قوله تعالى : ﴿وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ﴾ ناسخ لما كان قد ثبت له ﷺ من أنه إذا رأى واحدة ، فوقعت في قلبه موقعا كانت تحرم على الزوج ، ويجب عليه طلاقها. وهو دليل على منع تبديل زوجات النبي ﷺ اللاتي اخترنه وهن تسع.

---

(١) أحكام القرآن : ٣ / ١٥٥٩

قال ابن زيد : هذا شيء كانت العرب تفعله ، يقول أحدهم : خذ زوجتي وأعطني زوجتك.

ولكن أنكر الطبري والنحاس وغيرهما ما حكاه ابن زيد عن العرب ، من أنها كانت تبادل بأزواجها. قال الطبري : وما فعلت العرب قط هذا.

١٠ ـ قوله سبحانه : ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَ﴾ دليل كما تقدم على جواز أن ينظر الرجل إلى من يريد زواجها ، وقد أراد المغيرة بن شعبة زواج امرأة ، فقال له النبي ﷺ فيما رواه الخمسة (أحمد وأصحاب السنن الأربعة) عن المغيرة : «انظر إليها فإنه أجدر أن يؤدم [١] بينكما» وأخرج البخاري في صحيحة أنه ﷺ قال لآخر : «انظر إليها فإن في أعين الأنصار شيئا» أي صفرة أو زرقة أو رمص.

والأمر بالنظر إلى المخطوبة إنما هو على جهة الإرشاد إلى المصلحة ، فإنه إذا نظر إليها ، فلعله يرى منها ما يرغّبه في نكاحها ، بدليل ما ذكره أبو داود من حديث جابر عن النبي ﷺ أنه قال : «إذا خطب أحدكم المرأة ، فإن استطاع أن ينظر منها إلى ما يدعوه إلى نكاحها ، فليفعل» فقوله : «فإن استطاع فليفعل» لا يقال مثله في الواجب. وهذا قول جمهور الفقهاء من الحنفية والمالكية والشافعية والظاهرية وغيرهم.

واختلف العلماء فيما يجوز أن ينظر منها ، فقال مالك : ينظر إلى وجهها وكفّيها ، ولا ينظر إلا بإذنها. وقال الشافعي وأحمد : بإذنها وبغير إذنها إذا كانت مستترة. وقال الأوزاعي : ينظر إليها ويجتهد وينظر مواضع اللحم منها. وأما قول داود الظاهري : ينظر إلى سائر جسدها ، تمسكا بظاهر اللفظ ، فأصول الشريعة ترد عليه في تحريم الاطلاع على العورة.

---

(١) أي يؤلف ويوفق.

١١ـ ظاهر عموم قوله تعالى : ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ يدل على إحلال الأمة الكافرة للنبي ﷺ ، وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير وعطاء والحكم. والأصح أن الكافرة لا تحل له ، تنزيها لقدره عن مباشرة الكافرة ، وقد قال الله تعالى : ﴿وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوافِرِ﴾ [الممتحنة ٦٠ / ١٠] فكيف به ﷺ ؟!

١٢ـ إن الذي استقر عليه عدد أزواج النبي ﷺ كما تقدم هو تسع نسوة مات عنهن النبي ﷺ ، ولم يكن هذا التعدد لغرض جنسي أو شهواني ، وإنما من أجل غاية أسمى هي نشر الدعوة الإسلامية ، وتأليف القبائل العربية وترغيبهم في قبول عقيدة الإسلام ، والدليل على ذلك أن النبي ﷺ ظل على زوجة واحدة هي السيدة خديجة بنت خويلد حتى نهاية الرابعة والخمسين ، وفي هذه السن تفتر الرغبة الجنسية عادة ، وقد تزوجها وهو ابن خمس وعشرين سنة ، وهي ثيّب بنت أربعين سنة ، ومنها رزق الأولاد ، وماتت وهي في سن الخامسة والستين. ثم تزوج بعد خديجة سودة بنت زمعة.

وتزوج بعائشة البكر الوحيدة تقديرا لجهود وتضحيات والدها أبي بكر ، وتزوج حفصة حبا في عمر ، وتقديرا لصدقه وجهاده ، مع أنها لم تكن جميلة ، وكان زواجه بأم سلمة ذات الأولاد الكثر وفي سن كبيرة تعويضا عن مصابها بزوجها الذي هاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة ، وتزوج سودة بنت زمعة العجوز المسن أرملة السكران بن عمرو وفاء له لموته في سبيل الدفاع عن الحق في الحبشة التي هاجر إليها هربا من أذى المشركين ، وتزوج زينب بن جحش لإبطال عادة التبني وإلغاء جميع آثاره بتزويج الله له كما بينا ، وأم حبيبة بنت أبي سفيان زعيم قريش التي أسلمت قبل أبيها وهاجرت إلى الحبشة ، وقد أصدقها النجاشي أربع مائة دينار عن النبي ﷺ ، تزوجها إكراما لها وتقديرا لإخلاصها وصدقها ، وصفية بنت حييّ بن أخطب زعيم اليهود تزوجها رأفة بها بعد سبيها ، وجويرية بنت الحارث زعيم بني المصطلق ، تزوجها بعد سبيها وإعتاقها وكان

عمرها زهاء خمسين عاما ، فآمنت قبيلتها بالإسلام ، وكانت سببا في إسلام خالد بن الوليد البطل الشهير.

هذه هي الأسباب الخاصة بالزواج من أمهات المؤمنين ، أما الأسباب العامة فتتلخص في أن المصاهرة من أقوى عوامل التالف والتناصر ، ونشر دعوة الإسلام في مبدأ أمرها بحاجة إلى الأعوان ، وكان المؤمنون يرون أن أعظم شرف مصاهرتهم للنبي ﷺ وقربهم منه ، كما أن تشريعات الإسلام الخاصة بالنساء تحتاج معرفتها إلى نسوة يبلغن الأحكام إلى المسلمات ، فكانت أزواج النبي ﷺ يقمن بهذه المهمة.

وأما أسباب تعدد الزوجات لغير النبي ﷺ فهي كثيرة ، منها : إصابة المرأة بالعقم أو بالمرض الفتاك ، المعدي أو المزمن ، ومنها : قلة الرجال أحيانا كما يحدث عقب الحروب ، ومنها : الترغيب في كثرة النسل لتقوية الإسلام ، ومنها تفاقم الرغبة الجنسية أحيانا عند بعض الرجال.

آداب دخول البيت النبوي وحجاب نساء النبي ﷺ

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلى طَعامٍ غَيْرَ ناظِرِينَ إِناهُ وَلكِنْ إِذا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذلِكُمْ كانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتاعاً فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَراءِ حِجابٍ ذلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذلِكُمْ كانَ عِنْدَ اللهِ عَظِيماً (٥٣) إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ

فَإِنَّ اللهَ كانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (٥٤) لا جُناحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبائِهِنَّ وَلا أَبْنائِهِنَّ وَلا إِخْوانِهِنَّ وَلا أَبْناءِ إِخْوانِهِنَّ وَلا أَبْناءِ أَخَواتِهِنَّ وَلا نِسائِهِنَّ وَلا ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللهَ إِنَّ اللهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً (٥٥)﴾

الإعراب :

﴿**غَيْرَ ناظِرِينَ إِناهُ غَيْرَ**﴾ منصوب على الحال من واو ﴿**تَدْخُلُوا**﴾.

﴿**أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ أَنْ**﴾ وصلتها : في موضع رفع اسم ﴿**كانَ**﴾ وكذلك قوله تعالى : ﴿**وَلا أَنْ تَنْكِحُوا**﴾ لأنه عطف عليه.

البلاغة :

﴿**لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِ**﴾ الإضافة للتشريف.

﴿**فَادْخُلُوا فَانْتَشِرُوا**﴾ بينهما طباق ، وكذا بين ﴿**تُبْدُوا تُخْفُوهُ**﴾.

﴿**فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِ**﴾ بينهما طباق السلب.

﴿**بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً**﴾ عليم وشهيد على وزن فعيل للمبالغة.

المفردات اللغوية :

﴿**إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ**﴾ أي إلا وقت أن يؤذن لكم في الدخول بالكلام أو الإشارة ، أو إلا مأذونا لكم. ﴿**إِلى طَعامٍ**﴾ متعلق بيؤذن ، لأنه متضمن معنى (يدعى) للإشعار بأنه لا يحسن الدخول على الطعام من غير دعوة وإن أذن بالدخول ، لقوله : ﴿**غَيْرَ ناظِرِينَ إِناهُ**﴾ غير منتظرين نضجه أو وقته وإدراكه. وأنىّ : هو مصدر : أنى يأني ، أي أدرك وحان نضجه. ﴿**فَانْتَشِرُوا**﴾ تفرقوا ولا تمكثوا. ﴿**مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ**﴾ أي مستمعين لحديث أهل البيت أو لبعضكم بعضا. ﴿**إِنَّ ذلِكُمْ**﴾ المكث أو اللبث. ﴿**كانَ يُؤْذِي النَّبِيَ**﴾ لتضييق المنزل عليه وعلى أهله واشتغاله فيما لا يعنيه. ﴿**فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ**﴾ من إخراجكم. ﴿**وَاللهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِ**﴾ أي لا يترك بيان الحق وهو الأمر بخروجكم.

﴿وَإِذا سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾ أي سألتم أزواج النبي ﷺ. ﴿مَتاعاً﴾ شيئا محتاجا إليه ينتفع به. ﴿فَسْئَلُوهُنَّ﴾ المتاع ﴿مِنْ وَراءِ حِجابٍ﴾. ﴿ذلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ من الخواطر الشيطانية المريبة. ﴿وَما كانَ لَكُمْ﴾ وما صح لكم. ﴿أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ﴾ أن تفعلوا ما يكرهه. ﴿كانَ عِنْدَ اللهِ عَظِيماً﴾ ذنبا عظيما.

﴿إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ﴾ من التحدث بزواجهن بعده. ﴿فَإِنَّ اللهَ كانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ يعلم ذلك، فيجازيكم عليه. قال البيضاوي: وفي هذا التعميم مع البرهان على المقصود مزيد تهويل، ومبالغة في الوعيد.

﴿لا جُناحَ﴾ لا إثم. ﴿وَلا نِسائِهِنَّ﴾ أي النساء المؤمنات. ﴿وَلا ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَّ﴾ من العبيد والإماء. ﴿وَاتَّقِينَ اللهَ﴾ فيما أمرتن به. ﴿إِنَّ اللهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً﴾ لا تخفى عليه خافية.

سبب النزول:

نزول الآية (٥٣):

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا﴾: أخرج أحمد والشيخان وابن جرير والبيهقي وابن مردويه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «لما تزوج النبي ﷺ زينب بنت جحش، دعا القوم، فطعموا، ثم جلسوا يتحدثون، فإذا كأنه يتهيأ للقيام، فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام وقام من القوم من قام، وقعد ثلاثة، ثم انطلقوا، فجئت، فأخبرت النبي ﷺ أنهم انطلقوا، فجاء حتى دخل، وذهبت أدخل، فألقى الحجاب بيني وبينه، وأنزل الله: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ذلِكُمْ كانَ عِنْدَ اللهِ عَظِيماً﴾».

وأخرج الترمذي وحسنه عن أنس قال: كنت مع رسول الله ﷺ، فأتى باب امرأة عرّس بها، فإذا عندها قوم، فانطلق، ثم رجع، وقد خرجوا، فدخل، فأرخى بيني وبينه سترا، فذكرته لأبي طلحة، فقال: لئن كان كما تقول لينزلن في هذا شيء، فنزلت آية الحجاب.

وأخرج الطبراني بسند صحيح عن عائشة قالت : كنت آكل مع النبي ﷺ في قعب ، فمرّ عمر ، فدعاه ، فأكل ، فأصابت أصبعه أصبعي ، فقال : أوّه لو أطاع فيكنّ ، ما رأتكنّ عين ، فنزلت آية الحجاب. وفي رواية البخاري : أن عمر رضي الله عنه قال : يا رسول الله ، يدخل عليك البر والفاجر ، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب ، فنزلت.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : دخل رجل على النبي ﷺ ، فأطال الجلوس ، فخرج النبي ﷺ ثلاث مرات ليخرج ، فلم يفعل ، فدخل عمر ، فرأى الكراهية في وجهه ، فقال للرجل : لعلك آذيت النبي ﷺ ، فقال النبي ﷺ : لقد قمت ثلاثا لكي يتبعني فلم يفعل ، فقال له عمر : يا رسول الله ، لو اتخذت حجابا ، فإن نساءك لسن كسائر النساء ، وذلك أطهر لقلوبهن ، فنزلت آية الحجاب. وفي رواية : «بقي ثلاثة نفر يتحدثون ، فأطالوا».

قال الحافظ ابن حجر : يمكن الجمع بأن ذلك وقع قبل قصة زينب ، فلقربه منها أطلق نزول آية الحجاب بهذا السبب ، ولا مانع من تعدد الأسباب.

قوله تعالى : ﴿وَلكِنْ إِذا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا ، فَإِذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾ : قال البيضاوي : الآية خطاب لقوم كانوا يتحينون طعام رسول الله ﷺ ، فيدخلون ويقعدون ، منتظرين لإدراكه ، مخصوصة بهم وبأمثالهم ، وإلا لما جاز لأحد أن يدخل بيوته بالإذن لغير الطعام ، ولا اللبث بعد الطعام لمهمّ. أخرج عبد بن حميد عن أنس قال : كانوا يتحينون فيدخلون بيت النبي ﷺ ، فيجلسون فيتحدثون ليدرك الطعام ، فأنزل الله : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ..﴾ الآية.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : حسبك في الثقلاء أن الله تعالى لم يحتملهم ، وقال : ﴿فَإِذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾ وأخرج ابن أبي حاتم عن سليمان بن أرقم قال : نزلت هذه في الثقلاء ، ومن ثم قيل : هي آية الثقلاء.

وقوله تعالى : ﴿وَما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ﴾ : أخرج ابن زيد قال : بلغ النبي ﷺ أن رجلا يقول : لو قد توفي النبي ﷺ تزوجت فلانة من بعده ، فنزلت : ﴿وَما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ﴾ الآية.

وأخرج ابن زيد أيضا عن ابن عباس قال : نزلت في رجل همّ أن يتزوج بعض نساء النبي ﷺ بعده ، قال سفيان : ذكروا أنها عائشة. وأخرج عن السدّي قال : بلغنا أن طلحة بن عبيد الله قال : أيحجبنا محمد عن بنات عمنا ، ويتزوج نساءنا ، لئن حدث به حدث لنتزوجن نساءه من بعده ، فأنزلت هذه الآية.

وأخرج ابن سعد عن أبي بكر عن محمد بن عمرو بن حزم قال : نزلت في طلحة بن عبيد الله ؛ لأنه قال : إذا توفي رسول الله ﷺ تزوجت عائشة.

وأخرج جويبر عن ابن عباس أن رجلا أتى بعض أزواج النبي ﷺ ، فكلمها وهو ابن عمها ، فقال النبي ﷺ : لا تقومنّ هذا المقام بعد يومك هذا ، فقال : يا رسول الله : إنها ابنة عمي ، والله ما قلت منكرا ، ولا قالت لي ، قال النبي ﷺ : قد عرفت ذلك ، إنه ليس أحد أغير من الله ، وإنه ليس أحد أغير مني ، فمضى ، ثم قال : يمنعني من كلام ابنة عمي؟ لأتزوجنها من بعده ، فأنزل الله هذه الآية.

قال ابن عباس : فأعتق ذلك الرجل رقبة ، وحمل على عشرة أبعرة في سبيل الله ، وحج ماشيا ، توبة من كلمته.

والخلاصة : رويت روايات كثيرة في أسباب نزول هذه الآيات قال فيها أبو بكر بن العربي : إنها ضعيفة كلها ما عدا الذي ذكرنا . أي رواية أحمد والبخاري ومسلم والترمذي عن أنس . وما عدا الذي روي أن عمر قال : قلت : يا رسول الله ، إن نساءك يدخل عليهن البرّ والفاجر ، فلو أمرتهن أن يحتجبن ، فنزلت آية الحجاب.

وقد كان سبب نزول أدب الطعام والجلوس وليمة النبي ﷺ عند زواجه بزينب ، وسبب نزول الحجاب بسبب القعود في بيت زينب.

المناسبة :

بعد بيان حال النبي ﷺ مع أمته بأنه المبشر المنذر الداعي إلى الله تعالى ، أبان الله تعالى حال المؤمنين مع النبي ﷺ ، فكما أن دخولهم الدين كان بدعوته ، كذلك لا يكون دخول بيته إلا بدعوته ، إرشادا إلى الأدب معه واحترامه وتوفير راحته في بيته ، ثم تعظيمه بين الناس بالأمر بعد هذه الآيات بالصلاة والسلام عليه.

ولا يقتصر الأدب معه على الدخول إلى بيته ، بل يشمل الخروج منه بعد انتهاء الحاجة من استفتاء أو تناول طعام ، فذلك حق وأدب ، ثم ذكر الله أدبا آخر ، وهو طلب شيء من الحوائج من نساء النبي ﷺ مع وجود حجاب أو ستر أو حائل. ومناسبة هذا لما قبله أنه لما منع الله الناس من دخول بيوت النبي ﷺ ، وكان في ذلك تعذر الوصول إلى استعارة بعض الحوائج ، بيّن أن ذلك غير ممنوع منه ، وإنما يجب أن يكون السؤال والطلب من وراء حجاب.

التفسير والبيان :

تضمنت هذه الآيات آدابا عامة في الدخول إلى البيوت والخروج منها ، والحجاب وعدم الاختلاط وتحريم إيذاء النبي ﷺ وزواج نسائه من بعده.

وهي مما وافق الوحي فيها وتنزيلها قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، كما ثبت في الصحيحين عنه أنه قال : وافقت ربي عزّ وجلّ في ثلاث ، قلت : يا رسول الله ، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى ، فأنزل الله : ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة ٢ / ١٢٥]. وقلت : يا رسول الله ، إن نساءك يدخل

عليهن البر والفاجر ، فلو حجبتهن ، فأنزل الله آية الحجاب. وقلت لأزواج النبي ﷺ لما تمالأن عليه : ﴿عَسى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْواجاً خَيْراً مِنْكُنَ﴾ فنزلت كذلك.

وآية الحجاب هذه ـ كما ذكر قتادة والواقدي ـ نزلت في صبيحة عرس رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش التي تولى الله تعالى تزويجها بنفسه ، وكان ذلك في ذي القعدة من السنة الخامسة ، وقد صدّرت الآية بأدب اجتماعي يدفع الحرج عن النبي ، فقال تعالى :

١ ـ ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلى طَعامٍ غَيْرَ ناظِرِينَ إِناهُ﴾ أي يا أيها الذين صدقوا بالله ربّا وبمحمد رسولا إياكم أن تدخلوا بيتا من بيوت النبي ﷺ في كل الأحوال إلا في حال كونكم مصحوبين بالإذن بأن دعيتم إلى وليمة طعام ، غير منتظرين وقت نضجه واستوائه ، فإذا تم النضج وتوافر الإعداد فادخلوا حينئذ.

وهذا قوله تعالى :

٢ ـ ﴿وَلكِنْ إِذا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا ، فَإِذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا ، وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ إذا دعاكم الرسول ﷺ فادخلوا البيت الذي أذن لكم بدخوله ، فإذا تناولتم الطعام الذي دعيتم إليه فتفرقوا ولا تمكثوا فيه من أجل تبادل أطراف الحديث والتحدث في شؤون الدنيا.

وهذا دليل على حظر المؤمنين من دخول منازل النبي ﷺ بغير إذن ، وعدم ارتقاب نضج الطعام ، وعلى حرمة التطفل ، وعلى عدم البقاء في البيوت بعد الأكل ، للاشتغال بلهو الحديث مع بعضكم أو مع أهل البيت ، فذلك أمر غير مرغوب فيه ، ونوع من الثقل غير محمود ؛ لأن أهل البيت بحاجة إلى التفرغ لتنظيف الأواني والراحة من عناء إعداد الطعام ، لذا قال رسول الله ﷺ فيما

واه أحمد والشيخان والترمذي عن عقبة بن عامر : «إياكم والدخول على النساء». وعلل تعالى طلب مغادرة البيوت بعد الطعام بقوله :

﴿إِنَّ ذلِكُمْ كانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ ، وَاللهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِ﴾ أي إن بقاءكم واشتغالكم بالحديث والدخول قبل نضج الطعام كان يؤذي النبي . وإيذاؤه حرام . ويشق عليه ، لمنعه من قضاء بعض حاجته ، ولما فيه من المضايقة لأهل البيت ، ولكن كان النبي ﷺ يكره أن ينهاهم عن ذلك من شدة حيائه ﷺ ، حتى أنزل الله عليه النهي عن ذلك ، والله لا يترك بيان الحق وهو الأمر بالخروج ومنعهم من البقاء والمكث. وهذا أدب عام لا يقتصر على النبي ﷺ ، وإنما يشمل سائر المؤمنين. ويحرم اللبث إذا كان فيه إيذاء لصاحب البيت.

وقد نصت آيات سورة النور [٢٧ . ٣١] على بيوت المؤمنين وآية الأحزاب [٥٩] في حجاب نسائهم في قوله تعالى : ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ وَبَناتِكَ وَنِساءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَ﴾.

٣ . ﴿وَإِذا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتاعاً فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَراءِ حِجابٍ﴾ أي وكما نهيتكم عن الدخول إلى بيوت النبي ﷺ من غير إذن ودون انتظار إدراك الطعام ، كذلك نهيتكم عن النظر إلى زوجات النبي ﷺ ، فإذا طلبتم منهن شيئا ينتفع به ، من ماعون وغيره ، فاطلبوه من وراء حجاب ساتر ، وحائل مانع من النظر.

وسبب النهي عن ذلك ، والأمر بالحجاب كما قال تعالى :

﴿ذلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَ﴾ أي إن هذا الذي أمرتكم به وشرعته لكم من الدخول بالإذن ، والخروج عقب الطعام دون الاستئناس بالحديث ، والحجاب أطهر وأطيب للنفس ، وأبعد عن الريبة والتهمة والفتنة ، وأكثر طمأنينة للقلوب من الهواجس والوساوس الشيطانية.

ولما علّم الله المؤمنين أدب الدخول إلى البيوت وصون الأذن والعين من النظر المحرّم ، أكده بما يحملهم على محافظته ، فقال :

٤ . ﴿وَما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ ، وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي ما صح وما ينبغي لكم أن تكونوا سببا في إيذاء رسول الله ﷺ ، أو تفعلوا فعلا يضايقه ويكرهه ، كالمكث في منزله والاشتغال بالحديث ، فكل ما منعتم عنه مؤذ ، فامتنعوا عنه ، فإنه ﷺ حريص على ما فيه إسعادكم وخيركم في الدنيا والآخرة ، ومن أشد أنواع الأذى ومما هو حرام عليكم أن تتزوجوا أبدا بنسائه بعد مفارقتهن بموت أو طلاق ، تعظيما له ، ولأنهن أمهات المؤمنين ، ولأنه ذنب عظيم كما قال تعالى :

﴿إِنَّ ذلِكُمْ كانَ عِنْدَ اللهِ عَظِيماً﴾ أي إن إيذاء الرسول ﷺ ونكاح أزواجه من بعده ذنب عظيم وإثم كبير. وفي هذا تعظيم الأمر ، وتشديد فيه وتوعد عليه ، ثم أكد ذلك بالبعد عن الإيذاء في الباطن والظاهر فقال :

﴿إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ ، فَإِنَّ اللهَ كانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ أي إن تظهروا شيئا من الأذى أو تكتموه ، فإن الله عليم علما تاما دقيقا به ، يعلم ما تكنّه ضمائركم ، وتنطوي عليه سرائركم ، ولا تخفى عليه خافية : ﴿يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَما تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر ٤٠ / ١٩] وهو مجاز كل إنسان بحسب ذلك العلم.

ثم استثنى الله تعالى من حكم حجاب أزواج النبي على الأجانب المحارم ونساء المؤمنين والأرقاء ، فقال :

﴿لا جُناحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبائِهِنَّ وَلا أَبْنائِهِنَّ وَلا إِخْوانِهِنَّ وَلا أَبْناءِ إِخْوانِهِنَّ وَلا أَبْناءِ أَخَواتِهِنَّ وَلا نِسائِهِنَّ وَلا ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَّ ، وَاتَّقِينَ اللهَ ، إِنَّ اللهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً﴾

أي لا إثم على أزواج النبي ﷺ في ترك الحجاب أمام آبائهن

وأجدادهن ، سواء من جهة النسب أم من جهة الرضاع ، أو أبنائهن من النسب أو الرضاع ، أو إخوانهن الأشقاء أو لأب أو لأم ، أو أبناء إخوانهن أو أبناء أخواتهن ، أو أمام النساء المؤمنات القريبات أو البعيدات ، أو الأرقاء من الذكور والإناث ، إبعادا للحرج والمشقة في ذلك بسبب الخدمة. ثم ختمت الآية بما ينبه على زيادة الحذر والتقوى ، فقال تعالى فيما معناه :

واخشين الله في السرّ والعلانية ، فإنه شهيد على كل شيء ، لا تخفى عليه خافية ، فراقبنه ، فإنه يجازي على كل عمل من خير أو شر ؛ لأنه يعلم علم شهود وحضور ومعاينة كل شيء ، وفي ذلك منتهى التحذير من مخالفة الأوامر والنواهي.

ونساء المؤمنين كنساء النبي ﷺ في ذلك ، بدليل آية النور : ﴿وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبائِهِنَّ أَوْ آباءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنائِهِنَّ أَوْ أَبْناءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَواتِهِنَّ أَوْ نِسائِهِنَّ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجالِ ، أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلى عَوْراتِ النِّساءِ ..﴾ [٣١].

وأما السبب في عدم ذكر العم والخال في هاتين الآيتين فهو .كما ذكر عكرمة والشعبي . لأنهما قد يصفان ذلك لبنيهما ، أو لأن العم والخال بمنزلة الوالدين ، وقد يسمى العم أبا ، كما قال تعالى : ﴿نَعْبُدُ إِلهَكَ وَإِلهَ آبائِكَ إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ﴾ [البقرة ٢ / ١٣٣].

فقه الحياة أو الأحكام :

تضمنت الآيات الأحكام التالية :

١ ـ الأدب في أمر الطعام والجلوس ، فلا يجوز دخول بيت النبي ﷺ إلا

بالإذن ، والدخول حرام إلا لأجل الأكل ونحوه ، وظاهر الآية حرمة مكث المدعو بعد تناول الطعام إذا كان ذلك مؤذيا لصاحب البيت.

ودخل في النهي سائر بيوت المؤمنين ، فلا يجوز دخولها إلا بإذن عند الأكل ، لا قبله لانتظار الطعام.

٢ ـ يجب التفرق والخروج من البيت والانتشار في أرض الله تعالى بعد تناول الطعام ، وانتهاء المقصود من الأكل ونحوه ، لقوله تعالى : ﴿فَإِذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾ والمراد من الأمر : إلزام الخروج من المنزل عند انقضاء المقصود من الأكل ، بدليل أن الدخول من غير إذن حرام ، وإنما جاز لأجل الأكل ، فإذا انقضى الأكل زال السبب المبيح ، وعاد التحريم إلى أصله.

٣ ـ قوله تعالى : ﴿بُيُوتَ النَّبِيِ﴾ دليل على أن البيت للرجل ، ويحكم له به ، فإن الله تعالى أضافه إليه إضافة ملك. وأما الإضافة في قوله تعالى : ﴿وَاذْكُرْنَ ما يُتْلى فِي بُيُوتِكُنَ﴾ [الأحزاب ٣٣ / ٣٤] فهي إضافة محل ، بدليل أنه جعل فيها الإذن للنبي ﷺ ، والإذن إنما يكون للمالك.

وأما سكنى نساء النبي ﷺ في بيوته في حياته وبعد موته من غير تملك ، فهو حق لهن على الصحيح ؛ فإن ذلك من مؤونتهن التي كان رسول الله ﷺ استثناها لهن ، كما استثنى لهن نفقاتهن حين قال فيما رواه أحمد والشيخان وأبو داود والترمذي والنسائي عن عمر وعثمان وغيرهما : «لا تقتسم ورثتي دينارا ولا درهما ، ما تركت بعد نفقة أهلي ومؤونة عاملي ، فهو صدقة» ويدل لذلك أن مساكنهن لم يرثها عنهن ورثتهن ، ولو كان ذلك ملكا لهن كان لا شك قد ورثه عنهن ورثتهن ، وعدم الإرث دليل على أنها لم تكن ملكا لهن ، وإنما كان لهن سكنى حياتهن ، فلما توفّين جعل ذلك زيادة في المسجد الذي يعم المسلمين نفعه ، كما جعل ذلك الذي كان لهن من النفقات في تركة رسول الله ﷺ ، فزيد إلى أصل المال ، فصرف في منافع المسلمين مما يعمّ جميعهم نفعه.

٤ . قوله تعالى : ﴿وَلكِنْ إذا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا﴾ خص وقت الدخول بأن يكون عند الإذن على جهة الأدب ، قال ابن العربي : وتقدير الكلام : ولكن إذا دعيتم وأذن لكم في الدخول فادخلوا ، وإلا فنفس الدعوة لا تكون إذنا كافيا في الدخول [١].

٥ . في قوله تعالى : ﴿فَإِذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾ دليل آخر في غير إلزام الخروج بعد انتهاء الأكل على أن الضيف يأكل على ملك المضيف ، لا على ملك نفسه ؛ لأنه قال : ﴿فَإِذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾ فلم يجعل له أكثر من الأكل ، ولا أضاف إليه سواه ، وبقي الملك على أصله.

٦ . قوله تعالى : ﴿وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ دليل على أن المكث في المنزل بعد الطعام للاستئناس بالحديث أمر غير مرغوب فيه ، وأدب يجب التزامه.

٧ . وقوله تعالى : ﴿وَاللهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِ﴾ أي لا يمتنع من بيانه وإظهاره دليل على ألا حياء في معرفة أحكام الدين وبيان الشرع. جاء في الصحيح عن أم سلمة قالت : جاءت أم سليم إلى النبي ﷺ فقالت : يا رسول الله ، إن الله لا يستحيي من الحق ، فهل على المرأة من غسل إذا احتلمت؟ فقال رسول الله ﷺ : «إذا رأت الماء».

٨ . ﴿وَإِذا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتاعاً﴾ الصواب في المتاع كما قال القرطبي : أنه عام في جميع ما يمكن أن يطلب من المواعين وسائر المرافق للدين والدنيا.

٩ . ﴿فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَراءِ حِجابٍ﴾ في هذه الآية دليل على أن الله تعالى أذن في مسألتهن من وراء حجاب في حاجة تعرض ، أو مسألة يستفتين فيها ، ويدخل في ذلك جميع النساء بالمعنى ، فلا يجوز كشف شيء من جسدها إلا لحاجة

---

(١) أحكام القرآن : ٣ / ١٥٦٥

كالشهادة عليها ، أو داء يكون ببدنها ، أو سؤالها عما يعرض وتعيّن كون الجواب عندها. قال القاضي عياض : فرض الحجاب بما اختصصن به ، فهو فرض عليهن بلا خلاف في الوجه والكفين ، فلا يجوز لهن كشف ذلك في شهادة ولا غيرها ولا إظهار شخوصهن ، وإن كن مستترات إلا ما دعت إليه ضرورة.

١٠ ـ استدل بعض العلماء من الأخذ عن أزواج النبي ﷺ من وراء حجاب على جواز شهادة الأعمى ، وبأن الأعمى يطأ زوجته بمعرفته بكلامها ، وهو رأي المالكية والحنابلة في قبول شهادته ، ولا تقبل شهادته في رأي الحنفية والشافعية.

١١ ـ إن الحجاب وسيلة ناجعة في طهارة القلب من هواجس السوء وخواطر المعصية ، سواء بالنسبة للرجال أو النساء ، فذلك أنفى للريبة ، وأبعد للتهمة ، وأقوى في الحماية والتحصن. وهذا يدل على أنه لا ينبغي لأحد أن يثق بنفسه في الخلوة مع من لا تحل له ؛ فإن مجانبة ذلك أحسن لحاله ، وأحصن لنفسه ، وأتم لعصمته.

١٢ ـ قوله تعالى : ﴿وَما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ﴾ دليل على تعليل الأحكام ، ثم إن بيان العلة وتأكيد إيرادها يقوي دلالة الأحكام الشرعية على المطلوب. وذكر النبي بوصف الرسالة هنا مشعر بتوبيخ من تحدثهم نفوسهم بإيذائه إذ ذلك يكون كفرانا بنعمة الرسالة الواجب شكرانها.

١٣ ـ يحرم التزوج بنساء النبي ﷺ بعد مفارقتهن بطلاق أو موت ، تعظيما للنبي ، ولكونهن أمهات المؤمنين ، والمسلم لا يتزوج أمه.

واختلف العلماء في وجوب العدة عليهن بالموت ، فقيل : عليهن العدة ؛ لأن العدة عبادة ، وقيل : لا عدة عليهن ؛ لأنها مدة تربّص (انتظار) لا ينتظر بها إباحة الزواج ، قال القرطبي : وهو الصحيح ؛ لقوله ﷺ : «ما تركت بعد نفقة عيالي» وروي «أهلي» وهذا اسم خاص بالزوجية ، فأبقى عليهن النفقة

والسكنى مدة حياتهن ؛ لكونهن نساءه ، وحرمن على غيره ؛ وهذا هو معنى بقاء النكاح. وإنما جعل الموت في حقه ﷺ لهن بمنزلة المغيب في حق غيره ؛ لكونهن أزواجا له في الآخرة قطعا ، بخلاف سائر الناس ؛ لأن الرجل لا يعلم كونه مع أهله في دار واحدة ، فربما كان أحدهما في الجنة والآخر في النار ؛ فبهذا انقطع السبب في حق الخلق ، وبقي في حق النبي ﷺ ؛ وقد قال ﷺ : «زوجاتي في الدنيا هن زوجاتي في الآخرة» وقال ﷺ فيما رواه الطبراني والحاكم والبيهقي عن عمر : «كل سبب ونسب ينقطع إلا سببي ونسبي ، فإنه باق إلى يوم القيامة».

وأما النساء اللاتي فارقهن النبي ﷺ قبل الدخول ، فالصحيح جواز نكاحهن لغيره ، كالكلبية التي تزوجها عكرمة بن أبي جهل ، وقيل : تزوجها الأشعث بن قيس الكندي ، وقيل : إنه مهاجر بن أبي أمية.

١٤ . إن إيذاء رسول الله ﷺ أو نكاح أزواجه من الذنوب الكبائر ، ولا ذنب أعظم منه.

١٥ . الله تعالى عالم بكل ما بدا وما خفي ، وما كان وما لم يكن ، لا يخفى عليه ماض انقضى ، ولا مستقبل آت ، فهو سبحانه يعلم ما يخفيه الإنسان من المعتقدات والخواطر المكروهة ويجازيه عليها. والتذييل بهذه الآية توبيخ ووعيد لمن يضمر السوء في مخاطبة أزواج النبي ﷺ وأزواج المؤمنين أيضا.

١٦ . استثنى الله تعالى من فرضية الحجاب على أزواج النبي ﷺ الأقارب المحارم من النسب أو الرضاع ، وهم الآباء والأبناء والإخوة وأبناء الإخوة وأبناء الأخوات والنساء المؤمنات ، وهو رأي ابن عباس ومجاهد ، وتكون إضافتهن إليهن باعتبار أنهن على دينهن ، ويكون ذلك دليل احتجاب نساء النبي ﷺ من الكافرات.

ويرى بعضهم أن المراد منهن النساء القريبات ، وتكون إضافتهن إليهن

لمزيد اختصاصهن بهن ، لما لهن من صلة القرابة ، وكذلك الخادمات.

وأيضا ما ملكت أيمانهن من الذكور والإناث.

١٧ ـ توّج الله تعالى آية الحجاب واستثناء المحارم بالأمر بالتقوى ، كأنه قال : اقتصرن على هذا ، واتقين الله فيه أن تتعدينه إلى غيره ، وخصّ النساء بهذا الأمر وعيّنهن ، لقلة تحفظهن وكثرة استرسالهن ، ثم توعد تعالى بأنه رقيب على كل شيء بقوله : ﴿إِنَّ اللهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً﴾ أي أنه يعلم علم شهود وحضور ومعاينة ، فيجازي على ما يكون.

تعظيم النبي ﷺ وجزاء إيذائه وإيذاء المؤمنين

﴿إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً (٥٦) إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً مُهِيناً (٥٧) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتاناً وَإِثْماً مُبِيناً (٥٨)﴾

البلاغة :

﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ إتباع الفعل بالمصدر للتأكيد.

المفردات اللغوية :

﴿إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِ﴾ محمد ﷺ ، أي يعتنون بإظهار شرفه وتعظيم شأنه.

والصلاة في اللغة : الدعاء ، يقال : صلى عليه ، أي دعا له. وهي من الله : الرحمة والرضوان ، ومن الملائكة : الدعاء والاستغفار ، ومن الأمة : دعاء وتعظيم للنبي ﷺ. ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾

أي اعتنوا أنتم أيضا بالصلاة عليه ، فإنكم أولى بذلك ، وقولوا : اللهم صل وسلّم على محمد. والآية تدل على وجوب الصلاة والسلام عليه في الجملة ، وتجوز الصلاة على غيره تبعا له ، وتكره استقلالا ؛ لأنه في العرف صار شعارا لذكر الرسل ، كما ذكر البيضاوي والشوكاني وغيرهما ، فلا يقال : صلّى الله على فلان ، أو فلان عليه السلام ، وقد اتفق العلماء على أن الصلاة على رسول الله ﷺ فرض على كل مسلم ، وأقلها في العمر مرة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ يرتكبون ما يكرهانه من الكفر والمعاصي وهم الكفار يصفون الله بما هو منزه عنه من الولد والشريك ، ويكذبون رسوله ﷺ . ﴿لَعَنَهُمُ اللهُ﴾ أبعدهم وطردهم من رحمته. ﴿عَذاباً مُهِيناً﴾ ذا إهانة وغاية في الإهانة مع الإيلام ، وهو النار. ﴿بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ يرمونهم بغير جناية استحقوا بها الإيذاء ، أو بغير ما عملوا. ﴿احْتَمَلُوا بُهْتاناً﴾ تحملوا كذبا. ﴿وَإِثْماً مُبِيناً﴾ أي ذنبا ظاهرا واضحا.

سبب النزول :

نزول الآية (٥٧):

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ﴾ : أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية قال : نزلت في الذين طعنوا النبي ﷺ حين اتخذ صفية بنت حييّ زوجة له. وقال جويبر عن الضحاك عن ابن عباس : أنزلت في عبد الله بن أبيّ وناس معه قذفوا عائشة ، فخطب النبي ﷺ وقال : «من يعذرني في رجل يؤذيني ويجمع في بيته من يؤذيني» ، فنزلت.

وروي أنها نزلت في منافقين يؤذون عليا رضي الله عنه ، وقيل : في أهل الإفك كما تقدم ، وقيل : في زناة كانوا يتبعون النساء وهن كارهات.

نزول الآية (٥٨):

﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال ابن عباس : أنزلت في عبد الله بن أبي وناس معه قذفوا عائشة رضي الله عنها ، فخطب النبي ﷺ وقال : «من يعذرني من رجل يؤذيني ، ويجمع في بيته من يؤذيني».

وقيل : نزلت في أناس من المنافقين كانوا يؤذون علي بن أبي طالب. وقيل : نزلت فيمن آذى عمر لضربه جارية من الأنصار متبرجة. وقال جماعة : نزلت في الزناة الذين كانوا يمشون في طرق المدينة يتبعون النساء إذا برزن بالليل لقضاء حوائجهن.

المناسبة :

بعد أن أمر الله المؤمنين بالاستئذان وعدم النظر إلى وجوه نسائه احتراما ، أكمل ذلك ببيان مكانة النبي ﷺ في الملأ الأعلى ، وما يجب له من احترام في الملأ الأدنى ، ثم أردفه بتبيين أضداد الاحترام ، فنهى عن إيذاء الله ، بمخالفة أوامره وارتكاب معاصيه ، وعن إيذاء رسوله ﷺ بالطعن فيه أو في أهل بيته ، أو بنسبة عيب أو نقص فيه.

التفسير والبيان :

﴿إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ، يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ أي إن الله يصلي على نبيه بالرحمة والرضوان ، والملائكة تدعو له بالمغفرة ورفعة الشأن ، لذا فأنتم أيها المؤمنون بالله ورسوله قولوا : اللهم صلّ وسلّم على محمد ، أي ادعوا له بالرحمة ومزيد الشرف والدرجة العليا. ويلاحظ الاهتمام بالحكم من طريق مجيء الخبر مؤكدا ب «إنّ» والإتيان بالجملة الاسمية لإفادة الدوام ، وأن مجيء الجملة اسمية في صدرها : ﴿إِنَّ اللهَ﴾ فعليه في عجزها : ﴿يُصَلُّونَ﴾ للدلالة على أن الثناء من الله على رسوله ﷺ يتجدد على الدوام.

وهذه الآية بمثابة العلة لما ذكر قبلها من أن شأن المؤمنين ألا يؤذوا رسول الله ﷺ ، فكأنه قيل : ما كان لكم أن تؤذوه ؛ لأن الله يصلي عليه والملائكة ، وما دام الأمر كذلك ، فهو لا يستحق إلا الاحترام والإكرام. وقد بدئت الآية بالجملة الاسمية لإفادة الدوام ، وانتهت بالجملة الفعلية للإشارة إلى أن

هذا الإكرام والتمجيد يتجدد مع مرور الزمان على الدوام.

ويكون المقصود من الآية أن الله تعالى أخبر عباده بمنزلة نبيه وعبده في الملأ الأعلى بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين وأن الملائكة تصلي عليه ، لذا أمر الله تعالى العالم الدنيوي بالصلاة والسلام عليه ، ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين : العلوي والسفلي جميعا.

والصلاة كما بينا من الله الرحمة ، ومن الملائكة : الاستغفار ، ومن المؤمنين الدعاء بالمغفرة والتعظيم لشأن النبي ﷺ.

وكيفية الصلاة عليه تعرف بالأحاديث المتواترة التي منها : ما رواه الشيخان وأحمد وغيرهم عن كعب بن عجرة رضي الله عنه قال : «قال رجل : يا رسول الله ، أما السلام عليك فقد عرفناه ، فكيف الصلاة عليك؟! قال : قل : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم ، إنك حميد مجيد. اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد».

وأخرج مالك وأحمد والبخاري ومسلم وغيرهم عن أبي حميد الساعدي أنهم قالوا : يا رسول الله ، كيف نصلي عليك؟ فقال رسول الله ﷺ : قولوا : اللهم صلّ على محمد وأزواجه وذريته كما صليت على آل إبراهيم ، وبارك على محمد وأزواجه وذريته ، كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد.

وأخرج الجماعة عن أبي سعيد الخدري قلنا : «يا رسول الله ، هذا السلام عليك ، قد علمنا ، فكيف الصلاة عليك؟ فقال : قولوا : اللهم صل على محمد عبدك ورسولك كما صليت على إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم».

وأما التسليم فهو بأن يقولوا : السلام عليك يا رسول الله ، ومعنى «السلام عليك» الدعاء له بالسلامة من الآفات والنقائص.

وقد وردت أحاديث كثيرة في فضل الصلاة والسلام على رسول الله ، منها : ما رواه أحمد وابن ماجه عن عامر بن ربيعة قال : سمعت النبي ﷺ يقول : «من صلى علي صلاة لم تزل الملائكة تصلي عليه ما صلى عليه ، فليقلّ عبد من ذلك أو ليكثر».

ومنها : ما رواه أحمد أيضا والنسائي عن عبد الله بن أبي طلحة عن أبيه : أن رسول الله ﷺ جاء ذات يوم ، والسرور ـ أو البشر ـ يرى في وجهه ، فقالوا : يا رسول الله ، إنا لنرى السرور ـ أو البشرى ـ في وجهك ، فقال : «إنه أتاني الملك فقال : يا محمد ، أما يرضيك أن ربك عزّ وجلّ يقول : إنه لا يصلّي عليك أحد من أمّتك إلا صلّيت عليه عشرا ، ولا يسلّم عليك أحد من أمتك إلا سلّمت عليه عشرا ، قلت : بلى».

ومنها : ما رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من صلى علي واحدة ، صلّى الله عليه بها عشرا».

لذا أوجب الشافعي الصلاة على الرسول ﷺ ، وجعلها ركنا في التشهد الأخير من الصلاة ، وتستحب عنده في التشهد الأول.

واتفق العلماء على وجوب الصلاة والتسليم على النبي ﷺ مرة في العمر ، عملا بما يقتضيه الأمر ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا﴾ من الوجوب ، وتكون الصلاة والسلام في ذلك ككلمة التوحيد ؛ لأن الصحيح أن الأمر لا يقتضي التكرار ، وإنما هو للماهية ، المطلقة عن قيد التكرار والمرة ، وحصوله مرة ضرورة لتحقيق مجرد الماهية. وأما القول بالوجوب كلما ذكر ، أو في كل مجلس مرة ، أو الإكثار منها من غير تقيد بعدد ، فهو استدلال بالأحاديث المرغبة في فعلها والمرهبة من

تركها ، كقوله تعالى : ﴿مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها﴾ [الأنعام ٦ / ١٦٠] الذي هو ترغيب في الإحسان.

ويسن الإكثار من الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ في يوم الجمعة وعند زيارة قبره ﷺ ، وبعد النداء للصلاة ، وفي صلاة الجنازة ، روى الإمام أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه عن أوس بن أوس الثقفي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من أفضل أيامكم يوم الجمعة : فيه خلق آدم ، وفيه قبض ، وفيه النفخة ، وفيه الصعقة ، فأكثروا علي من الصلاة فيه ، فإن صلاتكم معروضة علي» قالوا : يا رسول الله ، وكيف تعرض عليك صلاتنا وقد أرمت؟ . يعني وقد بليت . قال : «إن الله حرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء».

وروى أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص يقول : سمع رسول الله ﷺ يقول : «إذا سمعتم مؤذنا فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا علي ، فإنه من صلى عليّ صلّى الله عليه بها عشرا ، ثم سلوا الله لي الوسيلة ، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل لي الوسيلة حلّت عليه الشفاعة» :

وروى النسائي عن أبي أمامة أنه قال : من السنة في الصلاة على الجنازة : أن يكبر الإمام ، ثم يقرأ بفاتحة الكتاب بعد التكبيرة الأولى سرا في نفسه ، ثم يصلي على النبي ﷺ ، ويخلص الدعاء للجنازة ، وفي التكبيرات لا يقرأ في شيء منها ، ثم يسلم سرا في نفسه.

وروى أبو داود ، وصححه النووي في الأذكار ، كما صحح الحديث المتقدم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «ما منكم من أحد يسلم علي إلا ردّ الله علي روحي حتى أردّ عليه السلام ».

ولا شك بأن الإكثار من الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ مجلبة للخير

والثواب ، وسبب لدخول الجنة ، ومذهبة للهم والحزن ، وطرد للنسيان ، أخرج الترمذي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «رغم أنف رجل ذكرت عنده ، فلم يصلّ علي ، ورغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان ، ثم انسلخ قبل أن يغفر له ، ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر ، فلم يدخلاه الجنة».

وبعد الأمر بالصلاة والسلام على النبي ﷺ ، عاد الكلام إلى النهي عن إيذاء الله بمخالفة أوامره وارتكاب زواجره ، وإيذاء رسوله ﷺ بوصفه بعيب أو نقص فقال :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ ، وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً مُهِيناً﴾

أي إن الذين يصدر منهم الأذى لله ورسوله بارتكاب ما لا يرضيانه من الكفر والعصيان ، كقول اليهود : ﴿يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة ٥ / ٦٤] و ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ﴾ [التوبة ٩ / ٣٠] وقول النصارى : ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ﴾ [التوبة ٩ / ٣٠] وقول المشركين : الملائكة بنات الله ، والأصنام آلهة شركاء لله ، وقولهم عن رسول الله ﷺ : إنه شاعر ، أو ساحر أو كاهن أو مجنون ، إن هؤلاء الذين يؤذون الله ورسوله طردهم الله من رحمته في الدنيا والآخرة ، وهيأ لهم عذابا مهينا محقرا مؤلما في نار جهنم.

وهذا دليل على أنه تعالى لم يحصر جزاءهم في الإبعاد من رحمته ، بل أوعدهم وهددهم بعذاب النار الأليم. والآية عامة في كل من آذى النبي ﷺ بشيء ، فمن آذاه فقد آذى الله ، كما أن من أطاعه فقد أطاع الله ، كما قال الإمام أحمد. وروي عن ابن عباس أن الآية نزلت في الذين طعنوا على النبي ﷺ في تزويجه صفية بنت حيي بن أخطب.

وبعد بيان شأن الذين يؤذون الله ورسوله ﷺ ، أبان الله تعالى ما يناسب ذلك ، وهو حكم الذين يؤذون المؤمنين ، فقال :

﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا ، فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتاناً وَإِثْماً مُبِيناً﴾ أي والذين يؤذون أهل الإيمان من الرجال والنساء بوجه من وجوه الأذى من قول أو فعل ، وسواء أكان الإيذاء للعرض ، أو الشرف أو المال ، بأن ينسبوا إليهم ما هم برآء منه ، لم يعملوه ولم يفعلوه ، فهو إيذاء بغير حق ، كأن يشتم المؤمن أحدا ، أو يضربه ، أو يقتله ، فقد أتوا بالكذب المحض والبهتان الكبير : وهو نسبة شيء لهم لا علم لهم به ولم يفعلوه ، على سبيل العيب والإنقاص ، وارتكبوا ذنبا واضحا بينا. ونظير الآية : ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ، ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتاناً وَإِثْماً مُبِيناً﴾ [النساء ٤ / ١١٢]. والبهتان : الفعل الشنيع ، أو الكذب الفظيع.

ومن أشد أنواع الأذى : الطعن في الصحابة ، والغيبة ، واستباحة عرض المسلم ، روى الإمام أحمد والترمذي عن عبد الله بن المغفّل المزني قال : قال رسول الله ﷺ : «الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضا بعدي ، فمن أحبهم فبحبي أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله ، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه».

وروى أبو داود والترمذي عن أبي هريرة : أنه قيل : «يا رسول الله ، ما الغيبة؟ قال : ذكرك أخاك بما يكره ، قيل : أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته».

وروى ابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : «أي الربا أربى عند الله؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : أربى الربا عند الله استحلال عرض امرئ مسلم» ثم قرأ : ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتاناً وَإِثْماً مُبِيناً﴾.

فإن كان الإيذاء بحق لم يحرم ، مثل الإيذاء بالقصاص ، والإيذاء بقطع اليد في السرقة ، والإيذاء بالتعزيرات المختلفة ، وقتال المرتدين ، لقوله ﷺ في الحديث المتواتر الذي رواه أصحاب الكتب الستة عن أبي هريرة : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها». فهم أبو بكر رضي الله عنه من هذا الحديث أن الزكاة حق المال ، فقاتل مانعيه من أجله ، وقال : «والله لو منعوني عناقا كانوا يعطونه لرسول الله ، لقاتلتهم عليه» وحاجه في ذلك عمر فقال : «إلا بحقها» والزكاة حق الأموال ، فانشرح صدره لما رآه أبو بكر.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ إن آية الصلاة على النبي ﷺ تشريف له حياته وموته ، وتنويه بمنزلته ومكانته السامية ، والصلاة كما بينا من الله : الرحمة والرضوان ، ومن الملائكة : الدعاء والاستغفار ، ومن الأمة : الدعاء والتعظيم لأمره.

٢ ـ أمر الله تعالى عباده بالصلاة على نبيه محمد ﷺ دون أنبيائه تشريفا له ، ولا خلاف في أنها فرض في العمر مرة ، وسنة مؤكدة في كل حين لا يسع المسلم تركها ، ولا يغفلها إلا من لا خير فيه.

وقد عرفنا صفة الصلاة والسلام على النبي ﷺ ، وهي صيغة الصلاة الإبراهيمية ، وبينا فضل الصلاة على النبي ﷺ وهو كما ورد عنه فيما رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن أبي هريرة : «من صلّى علي واحدة ، صلّى الله عليه بها عشرا» وقال أيضا : «من صلى علي في كتاب لم تزل الملائكة يصلون عليه ما دام اسمي في ذلك الكتاب» (١). وقال سهل بن عبد الله : الصلاة

---

(١) لكن قال عنه ابن كثير : ليس هذا الحديث بصحيح من وجوه كثيرة.

على محمد ﷺ أفضل العبادات ؛ لأن الله تعالى تولاها هو وملائكته ، ثم أمر بها المؤمنين ، وسائر العبادات ليس كذلك. وقال أبو سليمان الداراني : من أراد أن يسأل الله حاجة فليبدأ بالصلاة على النبي ﷺ ، ثم يسأل الله حاجته ، ثم يختم بالصلاة على النبي ﷺ ؛ فإن الله تعالى يقبل الصلاتين ، وهو أكرم من أن يرد ما بينهما.

وأما الصلاة على النبي ﷺ في الصلاة فهي سنة مستحبة عند الجمهور ، فإن تركها فصلاته مجزية ، وواجبة لدى الشافعي ، فمن تركها فعليه الإعادة.

وأما الصلاة على غير الأنبياء : فإن كانت على سبيل التبعية مثل : اللهم صل على محمد وآله ، وأزواجه ، وذريته ، فهذا جائز بالإجماع ، فإن أفردوا فقال جماعة : يجوز ذلك ؛ لقوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ﴾ [الأحزاب ٣٣ / ٤٣] وقوله : ﴿أُولئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة ٢ / ١٥٧] وقوله : ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة ٩ / ١٠٣] وحديث الصحيحين عن عبد الله بن أبي أوفى قال : «كان رسول الله ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم قال : «اللهم صلّ عليهم» فأتاه أبي بصدقته فقال : «اللهم صلى على آل أبي أوفى» وحديث جابر أن امرأته قالت : يا رسول الله ، صلّ عليّ وعلى زوجي ، فقال : «صلّى الله عليك وعلى زوجك».

وقال جمهور العلماء : لا يجوز إفراد غير الأنبياء بالصلاة ؛ لأن هذا قد صار شعارا للأنبياء إذا ذكروا ، فلا يلحق بهم غيرهم ، فلا يقال : أبو بكر صلّى الله عليه ، أو قال عليّ صلّى الله عليه ، وإن كان المعنى صحيحا ، كما لا يقال : محمد عزّ وجلّ ، وإن كان عزيزا جليلا ؛ لأن هذا من شعار ذكر الله عزّ وجلّ . وأما ما ورد في الكتاب والسنة من ذلك ، فمحمول على الدعاء لهم ، ولهذا لم يثبت شعارا لآل أبي أوفى ولا لجابر وامرأته.

والصحيح أن هذا المنع من الصلاة على غير الأنبياء مكروه كراهة تنزيه ؛ لأنه شعار أهل البدع ، وقد نهينا عن شعارهم.

والسلام هو في معنى الصلاة ، فلا يستعمل في الغائب ، ولا يفرد به غير الأنبياء ، فلا يقال : علي عليه‌السلام ، وهذا سواء في الأحياء والأموات. وأما الحاضر فيخاطب به ، فيقال : سلام عليك ، وسلام عليكم ، أو السلام عليك أو عليكم ، وهذا مجمع عليه.

وقال النووي : إذا صلى على النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم فليجمع بين الصلاة والتسليم ، فلا يقتصر على أحدهما ، فلا يقول : صلّى الله عليه فقط ، ولا عليه‌السلام فقط ؛ لقوله تعالى : ﴿**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً**﴾.

٣ ـ إن من يؤذي الله ورسوله يستحق اللعنة والطرد من رحمة الله في الدنيا والآخرة ، وله عذاب محقر مؤلم في نار جهنم. وإيذاء الله : يكون بالكفر ونسبة الصاحبة والولد والشريك إليه ، ووصفه بما لا يليق به ، كقول اليهود : ﴿**يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ**﴾ [المائدة ٥ / ٦٤] ، و ﴿**عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ**﴾ [التوبة ٩ / ٣٠] ، وقول النصارى : ﴿**الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ**﴾ [التوبة ٩ / ٣٠] ، وقول المشركين : الملائكة بنات الله ، والأصنام شركاؤه.

وجاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم : «يقول الله عزوجل : يؤذيني ابن آدم ، يسبّ الدهر ، وأنا الدهر. أقلّب ليله ونهاره» ، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال الله تبارك وتعالى : «يؤذيني ابن آدم يقول : يا خيبة الدهر ، فلا يقولن أحدكم : يا خيبة الدهر ، فإني أنا الدهر ، أقلّب ليله ونهاره ، فإذا شئت قبضتهما». هكذا جاء هذا الحديث موقوفا على أبي هريرة في هذه الرواية. وقد جاء مرفوعا عنه بلفظ آخر عند مسلم أيضا : «يؤذيني ابن آدم يسبّ الدهر ، وأنا الدهر أقلّب الليل

والنهار». وقال عكرمة : معناه بالتصوير والتعرض لفعل ما لا يفعله إلا الله بنحت الصور وغيرها ، وقد قال رسول الله ﷺ : «لعن الله المصوّرين».

والطعن في تأمير أسامة بن زيد [1] لغزو «أبنى» قرية عند مؤتة أذية له ﷺ ، من حيث إنه كان من الموالي ، ومن حيث إنه كان صغير السن ؛ لأنه كان إذ ذاك ابن ثمان عشرة سنة ، ومات النبي ﷺ بعد خروج هذا الجيش إلى ظاهر المدينة ، فنفّذه أبو بكر بعده ﷺ . جاء في صحيح البخاري عن ابن عمر قال : بعث رسول الله ﷺ بعثا ، وأمّر عليهم أسامة بن زيد ، فطعن الناس في إمرته ؛ فقام رسول الله ﷺ فقال : «إن تطعنوا في إمرته ، فقد كنتم تطعنون في إمرة أبيه من قبل ، وايم الله إن كان لخليقا للإمارة ، وإن كان لمن أحب الناس إليّ ، وإن هذا لمن أحب الناس إليّ بعده».

وفي هذا الحديث دلالة على جواز إمامة المولى والمفضول على غيرهما ما عدا الإمامة الكبرى ، ويؤكده أن رسول الله ﷺ قدّم سالما مولى أبي حذيفة على الصلاة بقباء ، فكان يؤمهم ، وفيهم أبو بكر وعمر وغيرهم من كبراء قريش.

٤ . إن إيذاء المؤمنين والمؤمنات بغير حق بالأقوال أو الأفعال القبيحة بهتان وإثم واضح. ومن أنواع الأذى : التعيير بحسب مذموم ، أو حرفة مذمومة ، أو شيء يثقل عليه إذا سمعه.

وقد ميّز الله بين أذاه سبحانه وأذى الرسول ﷺ وأذى المؤمنين ، فجعل الأول كفرا موجبا اللعن ، والثاني كبيرة ، فقال في أذى المؤمنين : ﴿فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتاناً وَإِثْماً مُبِيناً﴾.

---

(١) كان أسامة رضي الله عنه يدعى : الحبّ ابن الحبّ ، وكان أسود شديد السواد ، وكان زيد أبوه أبيض.

آية جلباب النساء لستر العورة

﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ وَبَناتِكَ وَنِساءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ ذلِكَ أَدْنى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً (٥٩)﴾

المفردات اللغوية :

﴿يُدْنِينَ﴾ الإدناء : التقريب ، والمراد الإرخاء والسدل على الوجه والبدن ، وستر الزينة ، ولذا عدّي بعلى ﴿مِنْ جَلَابِيبِهِنَ﴾ جمع جلباب ، وهو الملاءة التي تشتمل بها المرأة فوق القميص ، أو الثوب الذي يستر جميع البدن. و ﴿مِنْ﴾ للتبعيض ، فإن المرأة تغطي بعض جلبابها وتتلفع ببعض ، والمراد : يرخين بعضها على الوجوه إذا خرجن لحاجتهن إلا شيئا قليلا كعين واحدة ﴿ذلِكَ﴾ أي إدناء الجلابيب ﴿أَدْنى﴾ أقرب ﴿أَنْ يُعْرَفْنَ﴾ أي أقرب إلى أن يميزن بأنهن حرائر ، ويبعدن عن الإساءة ﴿فَلا يُؤْذَيْنَ﴾ أي فلا يؤذيهن أهل الريبة بالتعرض لهن ﴿وَكانَ اللهُ غَفُوراً﴾ لما سلف منهن لترك الستر ﴿رَحِيماً﴾ بعباده ، حيث يراعي مصالحهم بالأمر بالستر وغيره.

سبب النزول :

أخرج البخاري عن عائشة قالت : خرجت سودة بعد ما ضرب الحجاب لحاجتها ، وكانت امرأة جسيمة لا تخفى على من يعرفها ، فرآها عمر ، فقال : يا سودة ، أما والله ما تخفين علينا ، فانظري كيف تخرجين ، قالت : فانكفأت راجعة ورسول الله ﷺ في بيتي ، وإنه ليتعشى ، وفي يده عرق ، فدخلت ، فقالت : يا رسول الله ، إني خرجت لبعض حاجتي ، فقال لي عمر كذا وكذا ، قالت : فأوحى الله إليه ، ثم رفع عنه ، وإن العرق في يده ما وضعه ، فقال : إنه قد أذن ، لكن أن تخرجن لحاجتكن.

وأخرج ابن سعد في الطبقات عن أبي مالك قال : كان نساء النبي ﷺ يخرجن بالليل لحاجتهن ، وكان ناس من المنافقين يتعرضون لهن ، فيؤذين ، فشكوا ذلك ، فقيل للمنافقين ، فقالوا : إنما نفعله بالإماء ، فنزلت هذه الآية : ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ وَبَناتِكَ وَنِساءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ، ذلِكَ أَدْنى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ﴾.

المناسبة :

بعد بيان أن من يؤذي مؤمنا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا ، منعا وزجرا للمكلف من إيذاء المؤمن ، أمر الله تعالى المؤمن باجتناب المواضع التي فيها التهم التي قد تؤدى إلى الإيذاء ، بالتستر وإرخاء الجلباب ، خلافا لما كان عليه الحال في الجاهلية من خروج النساء مكشوفات يتبعهن الزناة.

التفسير والبيان :

﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ وَبَناتِكَ وَنِساءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾ أي يطلب الله من رسوله ﷺ أن يأمر النساء المؤمنات وبخاصة أزواجه وبناته إذا خرجن من بيوتهن بأن يسدلن ويغطين من جلابيبهن ليتميزن عن الإماء. والجلباب : الرداء فوق الخمار. وهناك روايات في كيفية هذا التستر.

ـ قال ابن عباس : أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطّين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب ، ويبدين عينا واحدة.

ـ وقال محمد بن سيرين فيما رواه ابن جرير عنه : سألت عبيدة السّلماني عن قول الله عزوجل : ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾ فغطّى وجهه ورأسه ، وأبرز عينه اليسرى.

. وأخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم عن أم سلمة قالت : لما نزلت هذه الآية : ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَ﴾ خرج نساء الأنصار ، كأن على رؤوسهن الغربان من السكينة ، وعليهن أكسية سود يلبسنها.

والمقصود بالآية التي نزلت بعد استقرار الشريعة أن يكون الستر المأمور به زائدا على ما يجب من ستر العورة ، وهو أدب حسن يبعد المرأة عن مظان التهمة والريبة ، ويحميها من أذى الفساق.

واللباس الشرعي : هو الساتر جميع الجسد ، الذي لا يشف عما تحته ، فإن كانت المرأة في بيتها وأمام زوجها فلها أن تلبس ما تشاء.

﴿ذلِكَ أَدْنى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ ، وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ أي إن إدناء الجلابيب أو التستر أقرب أن يعرفن أنهن حرائر ، لسن بإماء ولا عواهر ، فلا يتعرّض لهن بالأذى من أهل الفسق والريبة ، وكان الله غفورا لما سلف منهن من إهمال التستر ، ولمن امتثل أمره إذا أخل بالتستر خطأ بغير قصد ، واسع الرحمة بعباده حيث راعى مصالحهم وأرشدهم إلى هذا الأدب الحسن.

أما الإماء فلم يكلفهن الشرع بالتستر الكامل دفعا للحرج والمشقة في التقنع ، وتيسيرا لهن القيام بخدمات السادة. هذا رأي الجمهور. وقال أبو حيان : والظاهر أن قوله : ﴿وَنِساءِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يشمل الحرائر والإماء ، والفتنة بالإماء أكثر لكثرة تصرفهن ، بخلاف الحرائر ، فيحتاج إخراجهن ـ أي الإماء ـ من عموم النساء إلى دليل واضح (١).

---

(١) البحر المحيط : ٧ / ٢٥٠

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآية على ما يأتي :

١ ـ الأمر بالتقنع والتستر عام يشمل جميع النساء ، وذلك لا يكون إلا بما لا يصف جلدها ، إلا إذا كانت مع زوجها ، فلها أن تلبس ما شاءت ؛ لأن له أن يستمتع بها كيف شاء.

ومن المأمورات بالستر : زوجات الرسول ﷺ وبناته. أما زوجاته فقال قتادة : مات رسول الله ﷺ عن تسع : خمس من قريش : عائشة ، وحفصة ، وأم حبيبة ، وسودة ، وأم سلمة ، وثلاث من سائر العرب : ميمونة ، وزينب بنت جحش ، وجويرية. وواحدة من بني هارون : صفية ، وأما أولاده : فكان للنبي ﷺ أولاد ذكور وإناث.

وأولاده الذكور : القاسم والطاهر وعبد الله والطيب أبناء خديجة.

وبناته : فاطمة الزهراء بنت خديجة زوجة علي رضي الله عنهما ، وزينب بنت خديجة زوجة ابن خالتها أبي العاص ، ورقيّة وأم كلثوم بنتا خديجة ، زوجتا عثمان ، كما تقدم سابقا.

ويلاحظ أن الدعوة لا تثمر إلا إذا بدأ الداعي بها في نفسه وأهله ، لذا بدأ الأمر بالحجاب بنساء الرسول ﷺ وبناته.

٢ ـ صورة إرخاء الجلباب : تغطية المرأة جميع جسدها إلا عين واحدة تبصر بها ، كما قال ابن عباس وعبيدة السّلماني. وقال قتادة ، وابن عباس في رواية أخرى : أن تلويه فوق الجبين وتشدّه ، ثم تعطفه على الأنف ، وإن ظهرت عيناها ، لكنه يستر الصدر ومعظم الوجه. وقال الحسن البصري : تغطي نصف وجهها.

٣ ـ الحكمة من أمر الحرائر بالتستر هي ألا يختلطن بالإماء ، فإذا عرفن لم يقابلن بأدنى معارضة ، مراعاة لرتبة الحرية ، فتنقطع الأطماع عنهن.

٤ ـ وقوله : ﴿وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ تأنيس للنساء في ترك الجلابيب قبل هذا الأمر المشروع.

٥ ـ في الطبقات الكبرى لابن سعد أن أحمد بن عيسى من فقهاء الشافعية استنبط من هذه الآية أن ما يفعله العلماء والسادات من تغيير لباسهم وعمائمهم أمر حسن ؛ وإن لم يفعله السلف ؛ لأن فيه تمييزا لهم ، حتى يعرفوا ، فيعمل بأقوالهم.

هذا وقد استدل بالآية على لزوم تغطية وجه المرأة ؛ لأن العلماء والمفسرين كابن الجوزي والطبري وابن كثير وأبي حيان وأبي السعود والجصاص الرازي فسروا إدناء الجلباب بتغطية الوجوه والأبدان والشعور عن الأجانب ، أو عند الخروج لحاجة.

تهديد المنافقين وجزاؤهم

﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجاوِرُونَكَ فِيها إِلاَّ قَلِيلاً (٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَما ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً (٦١) سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً (٦٢)﴾

الإعراب :

﴿مَلْعُونِينَ﴾ إما منصوب على الحال من واو ﴿لا يُجاوِرُونَكَ﴾ وإما منصوب على الذم ، أي أذمّ ملعونين.

﴿سُنَّةَ اللهِ﴾ مصدر مؤكد.

البلاغة :

﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ المرجفون هم من المنافقين ، ففيه ذكر الخاص بعد العام ، زيادة في التقبيح والتشنيع عليهم.

﴿ثُقِفُوا أُخِذُوا﴾ بينهما طباق.

﴿وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً﴾ إتباع الفعل بالمصدر للتأكيد.

المفردات اللغوية :

﴿لَئِنْ﴾ اللام لام القسم ﴿لَمْ يَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ﴾ عن نفاقهم وهو إظهار الإسلام وإبطان الكفر ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ ضعف إيمان وقلة ثبات عليه ، أو فسوق وعصيان ﴿وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ هم اليهود وغيرهم المشيعون للأكاذيب والأباطيل الملفقون أخبار السوء ونشرها بين جنود المسلمين قائلين : قد أتاكم العدو ، وسرايا المسلمين هزموا أو قتلوا أو غلبوا ، ونحو ذلك من الأخبار المتضمنة توهين جانب المسلمين ، من الإرجاف والرّجفان : الزلزلة والاضطراب الشديد.

﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ لنسلطنك عليهم ولنأمرنك بقتالهم وإجلائهم ﴿ثُمَّ لا يُجاوِرُونَكَ﴾ يساكنونك ، والعطف ب ﴿ثُمَّ﴾ للدلالة على أن الجلاء ومفارقة جوار رسول الله ﷺ أعظم ما يصيبهم ﴿مَلْعُونِينَ﴾ مبعدين عن الرحمة ، أي لا يجاورونك إلا ملعونين ﴿ثُقِفُوا﴾ وجدوا ﴿أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً﴾ أي أن هذا الحكم فيهم مأمور به.

﴿سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا﴾ أي سنّ الله ذلك في الأمم الماضية ، وهو أن يقتل المنافقون الذين نافقوا الأنبياء وسعوا في وهنهم بالإرجاف ونحوه أينما ثقفوا ، وخلوا : مضوا ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾ أي لأنه لا يبدلها الله ، أو لا يقدر أحد أن يبدلها.

المناسبة :

هذا هو الصنف الثالث من المؤذين ، فبعد أن ذكر الله تعالى حال المشرك الذي يؤذي الله ورسوله ، وأتبعه بذكر المجاهر الذي يؤذي المؤمنين ، ذكر حال المسرّ المبطن الذي يظهر الحق ، ويضمر الباطل ، وهو المنافق.

ثم ذكر مظاهر ثلاثة للنفاق في مواجهة الأقوام الثلاثة المؤذين : وهم المؤذون

الله ، والمؤذون الرسول ﷺ ، والمؤذون المؤمنين ، وهذه المظاهر : هي المنافق الذي يؤذي الله سرا ، والذي في قلبه مرض الذي يؤذي المؤمن باتباع نسائه ، والمرجف الذي يؤذي النبي ﷺ بالإرجاف ، بقوله : غلب محمد ﷺ ، وسيخرج من المدينة وسيؤخذ أسيرا. وهذا كله من آثار النفاق العملي.

التفسير والبيان :

توعد الله المنافقين وحذرهم وهم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ، فقال :

﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ ، وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ، وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ ، لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ، ثُمَّ لا يُجاوِرُونَكَ فِيها إِلَّا قَلِيلاً﴾ أي لئن لم يكف المنافقون عما هم عليه من النفاق ، والذين في قلوبهم ضعف إيمان وشك وريبة في أمر الدين ، وأهل الإرجاف في المدينة الذين يشيعون الأخبار الملفقة الكاذبة المتضمنة توهين جانب المسلمين ، وإظهار تفوق المشركين وغلبتهم عليهم ، لنسلطنك عليهم ونأمرنك بقتالهم وإجلائهم عن المدينة ، فلا يساكنونك فيها إلا زمنا قليلا.

وهذه الأوصاف الثلاثة : النفاق ، ومرض القلب ، والإرجاف هي لشيء واحد ، فإن من لوازم النفاق مرض القلب بضعف الإيمان ، والإرجاف بالفتنة وإشاعة أخبار السوء ، والمنافقون متصفون بهذه الأوصاف الثلاثة كلها.

وكل وصف من هذه الأوصاف خطر على المجتمع الإسلامي ، سواء إبطان الكفر ، أو الفسوق والعصيان وتتبع النساء للاطلاع على عوراتهن والإساءة لهن بالقول القبيح والفعل الشنيع ، أو إشاعة الأكاذيب المغرضة التي تنشر القلق والخوف والاضطراب ، وتضعف من معنويات الجماعة ، مما يسهل هزيمتهم ، وانتصار الأعداء عليهم.

ثم الله أبان تعالى جزاءهم في الدنيا والآخرة فقال :

﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَما ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً﴾ أي إنهم في حال مدة إقامتهم في المدينة فترة زمنية قليلة مطرودون من رحمة الله منبوذون ، وأينما وجدوا وأدركوا أخذوا لذلتهم وقلتهم ، وقتّلوا شر تقتيل ، فلن يجدوا أحدا يؤويهم ، بل ينكل بهم ويؤسرون ويقتّلون تقتيلا شديدا يستأصلهم.

وهذا دليل على أخذهم أسرى ، والأمر بقتلهم إذا ظلوا على النفاق ، وقد كان ذلك في أواخر حياة الرسول ﷺ.

ثم أوضح الله تعالى أن هذا الجزاء عام في جميع المنافقين الغابرين واللاحقين فقال :

﴿سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾ أي إن هذا الحكم. وهو لعن المنافقين وأخذهم وتقتيلهم وتسليط المؤمنين عليهم وقهرهم. هو سنة الله وطريقته في المنافقين في كل زمان مضى ، إذا بقوا على نفاقهم وكفرهم ، ولم يرجعوا عما هم عليه ، وسنة الله في ذلك لا تبدل ولا تغير ، لقيامها على الحكمة والمصلحة وصلاح الأمة ، بل هي ثابتة دائمة في أمثال هؤلاء على ممر التاريخ.

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما هو آت :

١ ـ اتفق أهل التفسير على أن الأوصاف الثلاثة : النفاق ، ومرض القلب ، والإرجاف لشيء واحد كما تقدم ، أي إن المنافقين قد جمعوا هذه الأشياء [1]. والآية دليل على تحريم الإيذاء بالإرجاف وعلى أن تتبع عورات النساء نفاق.

---

(١) قالوا : والواو مقحمة ، كما قال الشاعر :

إلى الملك القرم وابن الهمام ... وليث الكتيبة في المزدحم

أي إلى الملك القرم ابن الهمام ليث الكتيبة.

٢ ـ إن جزاء هؤلاء المنافقين إن أصروا على نفاقهم تسليط أهل الحق والإيمان عليهم ، لاستئصالهم بالقتل ، وطردهم من البلاد ، فلا يساكنون النبي ﷺ والمؤمنين في المدينة إلا مدة يسيرة حتى يهلكوا ، وطردهم من رحمة الله.

٣ ـ إن هذا العقاب هو ما سنه الله عَزَّجَلَّ فيمن أرجف بالأنبياء ، وأظهر نفاقه أن يؤخذ ويقتل ، ولا تبديل ولا تغيير لسنة الله وحكمه ، فلا يغيره هو سبحانه ، ولا يستطيع أحد تغييره.

٤ ـ لكن يجوز تأخير تطبيق هذا العقاب ، فليس هو على الفور ، قال القرطبي : وفي الآية دليل على جواز ترك إنفاذ الوعيد ، والدليل على ذلك بقاء المنافقين معه ـ ﷺ ـ حتى مات. والمعروف من أهل الفضل إتمام وعدهم وتأخير وعيدهم [1].

وقد تأخر بالفعل عقاب المنافقين إلى أواخر عهد النبي ﷺ ، فإنه لما نزلت سورة «براءة» جمعوا ، فقال النبي ﷺ : «يا فلان قم فاخرج ، فإنك منافق ، ويا فلان قم» فقام إخوانهم من المسلمين ، وتولوا إخراجهم من المسجد.

توعد الكفار بقرب الساعة وبيان نوع جزائهم

﴿يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللهِ وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً (٦٣) إِنَّ اللهَ لَعَنَ الْكافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً (٦٤) خالِدِينَ فِيها أَبَداً لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً (٦٥) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يا لَيْتَنا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا (٦٦) وَقالُوا رَبَّنا إِنَّا أَطَعْنا سادَتَنا وَكُبَراءَنا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا (٦٧) رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً (٦٨)﴾

---

(١) تفسير القرطبي : ١٤ / ٢٤٨

البلاغة :

﴿يَقُولُونَ : يا لَيْتَنا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا﴾ تحسر وتفجع من طريق التمني.

﴿سَعِيراً نَصِيراً كَبِيراً﴾ فيها ما يسمى بمراعاة الفواصل ، لما فيها من وقع حسن.

المفردات اللغوية :

﴿يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ أي يسألك أهل مكة المشركون عن وقت يوم القيامة وحصوله استهزاء ، أو تعنتا ، أو امتحانا ﴿قُلْ : إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللهِ﴾ أي لم يطلع عليه ملكا ولا نبيا ﴿وَما يُدْرِيكَ ، لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً﴾ أي وما يعلمك يا محمد؟ أي أنت لا تعلمها ، فكيف بغيرك من الناس؟ وربما توجد الساعة في زمن قريب. وفيه تهديد للمستعجلين وإسكات للمتعنتين.

﴿لَعَنَ الْكافِرِينَ﴾ أبعدهم وطردهم عن رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً﴾ نارا شديدة الاتقاد والاستعار يدخلونها ﴿خالِدِينَ﴾ مقدرا خلودهم ﴿لا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يواليهم ويحفظهم عنها ﴿وَلا نَصِيراً﴾ ينصرهم ويدفع العذاب عنهم ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ تصرّف من جهة إلى جهة أخرى ، كاللحم يشوى بالنار. ﴿يا لَيْتَنا يا﴾ : للتنبيه ﴿وَقالُوا﴾ أي الأتباع منهم ﴿سادَتَنا﴾ أي ملوكنا وقادتنا الذين لقنوهم الكفر ، وقرئ «ساداتنا» جمع الجمع ، للدلالة على الكثرة ﴿وَكُبَراءَنا﴾ علماءنا ﴿فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ أي أضلونا طريق الهدى بما زينوا لنا من الكفر بالله ورسوله ﴿ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذابِ﴾ مثلي ما أوتينا من العذاب ؛ لأنهم ضلوا وأضلوا ﴿وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً﴾ أي عذبهم وأبعدهم بلعن هو أشد اللعن وأعظمه ، وقوله ﴿كَبِيراً﴾ أي عدده ، أي عظيما.

المناسبة :

بعد بيان حال الفئات الثلاث في الدنيا (المشركين الذين يؤذون الله ورسوله ، والمجاهرين الذين يؤذون المؤمنين ، والمنافقين الذين يظهرون الحق ويضمرون الباطل) وأنهم يلعنون ويهانون ويقتلون ، ذكر حالهم في الآخرة ، فتوعدهم بقرب يوم القيامة ، وبين نوع عذابهم فيه.

التفسير والبيان :

﴿يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ، قُلْ : إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللهِ﴾ أي يتساءل الناس بكثرة عن وقت قيام القيامة ، فالمشركون يسألون عنها تهكما واستهزاء ، والمنافقون يسألون عنها تعنتا ، واليهود يسألون عنها امتحانا واختبارا ، فيجيبهم النبي ﷺ بتعليم الله له : إن علمها محصور بالله تعالى ، لم يطلع عليها ملكا ولا نبيا مرسلا ، فهو وحده الذي يعلم وقت حدوثها.

وأكد نفي علمها عن أحد غيره فقال :

﴿وَما يُدْرِيكَ ، لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً﴾ أي وما يعلمك بها ، فإنها من المغيبات المختصة بالله تعالى ، وربما توجد في وقت قريب ، كما قال تعالى : ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر ٥٤ / ١] وقال عزّ وجلّ : ﴿أَتى أَمْرُ اللهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل ١٦ / ١] وقال النبي ﷺ فيما رواه البخاري : «بعثت والساعة كهاتين» وأشار إلى السبابة والوسطى.

وفي هذا تهديد للمستعجلين ، وتوبيخ للمتعنتين ، كما تقدم. وكلمة ﴿قَرِيبٌ﴾ فعيل يستوي فيه المذكر والمؤنث ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف ٧ / ٥٦] لذا لم يقل : لعل الساعة تكون قريبة.

ثم ذكر الله تعالى نوع جزاء الكفار الذي ينتظرهم يوم القيامة ، فقال :

﴿إِنَّ اللهَ لَعَنَ الْكافِرِينَ ، وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً﴾ أي إن الله تعالى طرد الكافرين وأبعدهم عن رحمته ، وهيأ لهم في الآخرة نارا شديدة الاستعار والاتقاد.

﴿خالِدِينَ فِيها أَبَداً ، لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً﴾ أي إنهم في ذلك العذاب في نار جهنم مخلدون ماكثون فيه على الدوام ، ولا أمل لهم في النجاة منه ، فلا يجدون

من يواليهم ويكون لهم مغيثا ومعينا ينقذهم مما هم فيه ، ولا من ينصرهم ويخلصهم منه. والمقصود أنه لا شفيع لهم يدفع عنهم العذاب.

ثم ذكر وصف حال العذاب فقال :

﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ : يا لَيْتَنا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا﴾ أي إنهم يسحبون في النار على وجوههم ، وتلوى وجوههم على جهنم ، ويتقلبون فيها من جهة إلى أخرى كاللحم يشوى في النار ، وحينئذ يقولون ويتمنون : يا ليتنا لو كنا في الدار الدنيا ممن أطاعوا الله وأطاعوا الرسول ﷺ ، وآمنوا بما جاء به ، لينجوا من العذاب كما نجا المؤمنون ، كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ يَقُولُ : يا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾ [الفرقان ٢٥ / ٢٧] وقال أيضا مخبرا عنهم : ﴿رُبَما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر ١٥ / ٢].

ثم اعتذروا بالتقليد ، فقال الله تعالى واصفا ذلك :

﴿وَقالُوا : رَبَّنا إِنَّا أَطَعْنا سادَتَنا وَكُبَراءَنا ، فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ أي وقال الكافرون حينئذ وهم في عذاب جهنم : يا ربنا إنا أطعنا في الشرك والكفر رؤساءنا وقادتنا وعلماءنا ، وخالفنا الرسل ، واعتقدنا أنهم محقون فيما يقولون ، فأخطؤوا بنا سواء الطريق ، وأضلونا عن طريق الهدى بما زينوا لنا من الكفر بالله ورسوله ، وعدم الإقرار بالوحدانية ، وإخلاص الطاعة لله تعالى.

ثم صوّر تعالى ما يغلي في نفوسهم من الحقد الذي أدى بهم إلى طلب التشفي من القادة والأمراء والأشراف فقال :

﴿رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً﴾ أي يا ربنا عذّبهم مثل عذابنا مرتين : عذاب الكفر ، وعذاب الإضلال والإغواء إيانا ، وأبعدهم عن

رحمتك بعدا عظيما كثيرا شديد الموقع ، وهذا بمعنى الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو أن أبا بكر قال : يا رسول الله ، علّمني دعاء أدعو به في صلاتي ، قال : «قل : اللهم ، إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لي مغفرة من عندك ، وارحمني ، إنك أنت الغفور الرحيم» يروى «كبيرا» و «كثيرا» وهما بمعنى واحد ، واستحب بعضهم أن يجمع الداعي بين اللفظين في دعائه ، قال ابن كثير : وفي ذلك نظر ، بل الأولى أن يقول هذا تارة ، وهذا تارة ، كما أن القارئ مخير بين القراءتين ، أيتهما قرأ أحسن ، وليس له الجمع بينهما (١).

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ لما توعد الله المؤذين لرسول الله ﷺ بالعذاب ، سألوا عن الساعة ، استبعادا وتكذيبا ، موهمين أنها لا تكون ، فأجابهم الله بأن علمها عند الله ، وليس في إخفائها عن رسوله ﷺ ما يبطل نبوته ، فليس من شرط النبي أن يعلم الغيب بغير تعليم من الله عزّ وجلّ .

٢ ـ إن وقت حصول الساعة (القيامة) في زمان قريب ، وقد أخفي وقت الساعة ليكون العبد مستعدا لها. وهذا إشارة إلى التخويف.

٣ ـ إن الله عاقب الكافرين بالطرد والإبعاد من رحمته ، وبإعداد نار جهنم المستعرة الشديدة الاتقاد ، وهم فيها خالدون ماكثون على الدوام ، ولا شفيع لهم ينجيهم من عذاب الله والخلود فيه ، ويتقلبون في السعير ذات اليمين وذات الشمال كما يشوى اللحم في النار. وهذا يدل على أنهم ملعونون في الدنيا ، وملعونون عند الله ، وأن العذاب دائم مستمر لا أمل في الخروج منه.

---

(١) تفسير ابن كثير : ٣ / ٥١٩

٤ ـ يتمنى الكافرون في أثناء العذاب في نار جهنم أن لو كانوا أطاعوا الله وأطاعوا رسوله ، فآمنوا بالله وحده لا شريك له ، وآمنوا برسوله ﷺ خاتم النبيين ، وأدوا فروض الطاعة والولاء ، وأخلصوا لله في أعمالهم.

٥ ـ إنهم يقولون أيضا على سبيل الأسف والاعتذار غير المفيد : إنا أطعنا القادة والأمراء والأشراف والعلماء بدل طاعة الله تعالى ، فبدّلنا الخير بالشر ، وأضلونا عن السبيل الصحيح وهو توحيد الله تعالى.

٦ ـ لا يجدون بدا من المطالبة على سبيل التشفي والانتقام بمضاعفة العذاب على أولئك المضللين : عذاب الكفر وعذاب الإضلال ، أي عذبهم مثلي ما تعذّبنا ؛ فإنهم ضلّوا وأضلوا.

بل إنهم يطلبون أيضا إبعادهم وطردهم من رحمة الله إبعادا كبيرا كثيرا ؛ لأن ما كبر كان كثيرا عظيم المقدار. وهذا في كلا الطلبين يتضمن معنى جديدا ، فإنهم طلبوا لهم ما ليس بحاصل وهو زيادة العذاب بقولهم : ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ وزيادة اللعن بقولهم : ﴿لَعْناً كَبِيراً﴾.

تحريم الإيذاء الذي لا يؤدي إلى الكفر والأمر بالتقوى

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسى فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قالُوا وَكانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهاً (٦٩) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فازَ فَوْزاً عَظِيماً (٧١)﴾

البلاغة :

﴿لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسى﴾ تشبيه مرسل مجمل ، ذكر فيه أداة الشبه ، وحذف وجه التشبيه.

المفردات اللغوية :

﴿لا تَكُونُوا﴾ مع نبيكم محمد ﷺ ﴿كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسى﴾ وهم اليهود ، كقولهم : ما يمنعه أن يغتسل معنا إلا أنه آدر ، أو اتهامه بالفاحشة ، كما روي أن قارون حرض امرأة على قذف موسى بنفسها ، فعصمه الله وبرّأه مما قالوا ﴿فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قالُوا﴾ من كثير من التهم الباطلة ، منها أنه وضع ثوبه على حجر ليغتسل ، فطار الثوب مع الحجر ، حتى استقر أمام ملأ من بني إسرائيل ، فأدركه موسى ، فأخذ ثوبه ، فاستتر به ، فرأوه ولا أدرة به وهي نفخة في الخصية. ﴿وَكانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهاً﴾ ذا جاه وقدر وقربة ووجاهة عنده تعالى.

﴿اتَّقُوا اللهَ﴾ في ارتكاب ما يكرهه ، فضلا عما يؤذي رسوله ﷺ ﴿وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾ قاصدا إلى الحق ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمالَكُمْ﴾ يوفقكم للأعمال الصالحة أو يصلحها بالقبول والإثابة عليها ويتقبلها ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أي يسترها ويكفّرها بالاستقامة في القول والعمل ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي في الأوامر والنواهي ﴿فَقَدْ فازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ نال غاية مطلوبة ، بالعيش في الدنيا حميدا وفي الآخرة سعيدا.

المناسبة :

بعد أن بيّن الله تعالى أن من يؤذي الله ورسوله ﷺ يلعن ويعذب ، مما يدل على أن إيذاءهما كفر ، أرشد المؤمنين إلى ضرورة الامتناع من إيذاء لا يؤدي إلى الكفر ، مثل عدم الرضا بقسمة النبي ﷺ الفيء بين أصحابه.

أما إيذاء موسى فمختلف فيه ، قال بعضهم : هو إيذاؤهم إياه بنسبته إلى عيب في بدنه ، أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال : قال لموسى قومه : إنه آدر ، فخرج ذات يوم ليغتسل ، فوضع ثيابه على حجر ، فخرجت الصخرة تشتد بثيابه ، فخرج موسى يتبعها عريانا ، حتى انتهت به إلى مجالس بني إسرائيل ، فرأوه وليس بآدر.

وقال بعضهم : إن قارون تآمر مع امرأة أن تقول عند بني إسرائيل : إن موسى زنى بي ، فلما جمع قارون القوم ، والمرأة حاضرة ، ألقى الله في قلبها أنها صدقت ، ولم تقل ما لقّنت.

قال الرازي : وبالجملة الإيذاء المذكور في القرآن كاف ، وهو أنهم قالوا له : ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلا﴾ [المائدة ٥ / ٢٤] وقولهم : ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة ٢ / ٥٥] وقولهم : ﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلى طَعامٍ واحِدٍ﴾ [البقرة ٢ / ٦١] إلى غير ذلك ، فقال للمؤمنين : لا تكونوا أمثالهم إذا طلبكم الرسول ﷺ إلى القتال ، أي لا تقولوا : ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلا﴾ [المائدة ٥ / ٢٤] ولا تسألوا ما لم يؤذن لكم فيه ، «وإذا أمركم الرسول بشيء فأتوا منه ما استطعتم» (١).

التفسير والبيان :

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسى فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قالُوا ، وَكانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهاً﴾ أي يا أيها المؤمنون بالله ورسوله ، لا تؤذوا الرسول ﷺ بالقول أو العمل ، مما يكرهه ولا يحبه ، ولا تكونوا مثل الذين آذوا موسى ، كتعييبه كذبا وزورا ، أو تعجيزه برؤية الله جهرا ، أو تركه يقاتل وحده ، أو مطالبته بأنواع من الطعام ، فبرأه الله مما قالوا من الكذب والزور ، وكان ذا قدر وجاه ومنزلة عند ربه ، قال الحسن البصري : كان مستجاب الدعوة عند الله ، وقال غيره من السلف : لم يسأل الله شيئا إلا أعطاه ، ولكن منع الرؤية لما يشاء عزّوجلّ .

ومن مظاهر إيذاء النبي ﷺ : ما رواه البخاري ومسلم وأحمد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : «قسم رسول الله ﷺ ذات يوم قسما ، فقال

---

(١) تفسير الرازي : ٢٥ / ٢٣٣ والجملة الأخيرة حديث رواه الشيخان عن أبي هريرة بلفظ «وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم».

رجل من الأنصار : إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله ، فاحمرّ وجهه ، ثم قال : رحمة الله على موسى ، فقد أوذي بأكثر من هذا فصبر».

وروى أحمد عن ابن مسعود أيضا قال : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : «لا يبلّغني أحد عن أحد من أصحابي شيئا ، فإني أحب أن أخرج إليكم ، وأنا سليم الصدر».

وأما إيذاء موسى فالظاهر أنه كان بالطعن في تصرفاته ، لا بتعييبه في بدنه ، بدليل الحديث الأول عن ابن مسعود.

وبعد نهي المؤمنين عن إيذاء الرسول ﷺ بالقول أو بالفعل ، أرشدهم إلى ما ينبغي أن يصدر عنهم من الأقوال والأفعال ، أما الأفعال فالخير ، وأما الأقوال فالحق ؛ لأن من أتى بالخير وترك الشر فقد اتقى الله ، ومن قال الصدق قالا قولا سديدا ، فقال :

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ ، وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾ أي يا أيها المؤمنون بالله ورسوله ، اتقوا الله في كل الأمور باجتناب معاصيه ، والتزام أوامره وعبادته عبادة من كأنه يراه ، وقولوا القول الصواب والحق في كل أموركم ، ويدخل فيه قول : لا إله إلا الله ، والإصلاح بين الناس ، كما يدخل فيه القول في شأن زيد وزينب ، ولا تنسبوا النبي ﷺ إلى ما لا يحل.

ثم وعدهم على الأمرين : الخير في الأفعال والصدق في الأقوال بأمرين فقال :

﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أي وعدهم على فعل الخيرات بإصلاح الأعمال ، أي بقبولها ، وجعل صاحبها في الجنة خالدا فيها أبدا ، وعلى القول السديد بمغفرة الذنوب الماضية ، وأما ما قد يقع منهم في المستقبل فيلهمهم التوبة منها.

ثم حرضهم على الطاعة ، فقال :

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ أي ومن يطع أوامر الله والرسول ويجتنب النواهي ، فقد نجا من نار الجحيم ، وصار إلى النعيم المقيم. وبالرغم من أن طاعة الله هي طاعة الرسول ﷺ ، فإنه تعالى جمع بينهما لبيان أن المطيع اتخذ عند الله عهدا ، وعند الرسول ﷺ يدا.

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يأتي :

١ ـ لم تقتصر عناية القرآن وتحذيره على فئة من الناس دون فئة ، فبعد أن ذكر الله تعالى المنافقين والكفار الذين آذوا رسول الله ﷺ والمؤمنين ، حذّر المؤمنين من التعرّض للإيذاء ، ونهاهم عن التشبه ببني إسرائيل في إيذائهم نبيهم موسى عليه‌السلام.

ومظاهر إيذاء محمد ﷺ وموسى عليه‌السلام مختلف فيها ، فقيل : إن أذيّتهم محمدا ﷺ قولهم : زيد بن محمد ، أو أنه قسم قسما ، فقال رجل من الأنصار : إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله ، فغضب النبي ﷺ وقال : «رحم الله موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر».

وأما أذية موسى عليه‌السلام ، فقال ابن عباس وجماعة : هي اتهامه بالأدرة كما تقدم. وقال علي بن أبي طالب رضي‌الله‌عنه : آذوا موسى بأن قالوا : قتل هارون ، مع أنه مات في جبل في سيناء بعد خروج موسى وهارون من التيه (قلب شبه جزيرة طور سينا). وقيل : إن أذية موسى عليه‌السلام رميهم إياه بالسحر والجنون ، وقيل بغير ذلك. قال القرطبي : والصحيح الأول ، ويحتمل أن فعلوا كل ذلك ، فبرّأه الله من جميع ذلك.

وقد استدل بقصة اغتسال موسى عليه السلام على جواز وضع ثوبه على الحجر ، ودخوله في الماء عريانا في منطقة معزولة بعيدة عن الناس ، وهو مذهب الجمهور ، ومنعه ابن أبي ليلى ، واحتج بحديث لم يصح.

٢ ـ كان موسى عليه السلام عند الله وجيها ، أي عظيم القدر ، رفيع المنزلة ، ويروى أنه كان إذا سأل الله شيئا أعطاه إياه.

٣ ـ أوجب الله تعالى الخير في الأفعال أو التقوى ، والصدق في الأقوال وهو ما يقابل الأذى المنهي عنه بالنسبة للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين.

٤ ـ وعد الله تعالى أنه يجازي على القول السديد ، وتقوى الله بإصلاح الأعمال (أي قبولها وجعلها صالحة لا فاسدة بتوفيقهم إليها) وغفران الذنوب ، وحسبك بذلك درجة ورفعة منزلة.

٥ ـ من يطع الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فيما أمر به ونهى عنه ، فقد نجا من النار وفاز بالجنة ، أو وصل إلى ثواب كثير وهو الثواب الدائم الأبدي.

أمانة التكاليف وأثرها في تصنيف المكلفين

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَأَشْفَقْنَ مِنْها وَحَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكاتِ وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً (٧٣)﴾

الإعراب :

﴿وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ نصب ﴿رَحِيماً﴾ إما على الحال من ضمير غفور وهو العامل فيه ، وإما صفة لغفور ، وإما خبرا بعد خبر.

البلاغة :

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبالِ﴾ استعارة تمثيلية ، مثّل الأمانة بما فيها من ثقل وشدة متناهية بشيء لو عرض على السموات والأرض والجبال لأبت حمله وأشفقت منه.

﴿لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ﴾ بينهما ما يسمى بالمقابلة.

وبين بدء السورة : ﴿وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ﴾ وبين ختمها : ﴿لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ﴾ ما يسمى في علم البديع : «رد العجز على الصدر» فالبدء في ذم المنافقين ، والختام لبيان سوء عاقبتهم.

المفردات اللغوية :

﴿عَرَضْنَا﴾ أي عرضها على هذه الأجرام خلافا لما في الطبيعة ﴿الْأَمانَةَ﴾ أي التكاليف الشرعية كالصلوات وغيرها مما في فعلها من الثواب ، وتركها من العقاب ، وسماها أمانة ؛ لأنها واجبة الأداء ﴿عَلَى السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَأَشْفَقْنَ مِنْها﴾ المعنى أن الأمانة لعظمة شأنها ، بحيث لو عرضت على هذه الأجرام العظام ، وكانت ذات شعور وإدراك ، لامتنعت من حملها ، وأشفقت منه وخافت ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسانُ﴾ آدم أبو البشر بعد عرضها عليه ، مع ضعف بنيته ورخاوة قوته ، فإن أدى حقوقها فاز بخير الدارين ﴿إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ أي إن الإنسان حينما التزم بحقوق الأمانة كان ظلوما لنفسه بما حمله ، جهولا به ، وهذا وصف لجنس الإنسان باعتبار الأغلب.

والمقصود بالآية تقرير للوعد السابق بتعظيم الطاعة : ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾.

﴿لِيُعَذِّبَ اللهُ﴾ اللام متعلقة بعرضنا المترتب عليه حمل آدم ، فهي لام الصيرورة ؛ لأنه لم يحملها لأن يعذب ، لكنه حملها ، فآل الأمر إلى أن يعذب من خان الأمانة وكذب الرسل ونقض الميثاق ممن نافق وأشرك ، ويتوب على من آمن ، الذين أدوا ما حملوه من الأمانات من العبادة وغيرها.

وقال الزمخشري : اللام لام التعليل على طريق المجاز ؛ لأن نتيجة حمل الأمانة العذاب ، كما أن التأديب في قولك : «ضربته للتأديب» نتيجة الضرب. وقد جاراه القرطبي في ذلك. ﴿الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكاتِ﴾ المضيعين الأمانة. ﴿وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ﴾ المؤدين الأمانة. والوعد بالتوبة دليل على أن قوله : ﴿إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ موجه إلى حال جبلة الإنسان فهو ظلوم لنفسه جهول بربه.

﴿وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ غفورا للمؤمنين رحيما بهم ، حيث تاب على ما فرطوا من ذنوب ، وأثاب على طاعاتهم.

المناسبة :

بعد بيان أن من أطاع الله ورسوله فاز فوزا عظيما ، أبان الله تعالى الوسيلة التي تنال بها الطاعة وهي فعل التكاليف الشرعية ، وأن تحصيلها شاقّ على النفوس يحتاج إلى مكابدة وجهاد ، ثم ذكر أن ما يحدث من صدور الطاعة من المكلفين ، وإباء القبول ، والامتناع من الالتزام إنما هو باختيار الإنسان دون جبر ولا إكراه.

التفسير والبيان :

يبين الله تعالى خطورة التكاليف وثقلها ، وأنها عظيمة ناءت بحملها السموات والأرض والجبال ، فقال :

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبالِ ، فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَأَشْفَقْنَ مِنْها ، وَحَمَلَهَا الْإِنْسانُ ، إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ أي إنا عرضنا التكاليف كلها من فرائض وطاعات على هذه الأجرام العظام ، فلم تطقها وأبت تحمل مسئوليتها ، وخافت من حملها ، لو فرض أنها ذات شعور وإدراك ، ولكن كلّف بها الإنسان ، فتحملها مع ضعفه ، وهو في ذلك ظلوم لنفسه ، جهول لقدر ما تحمله.

قال ابن عباس : يعني بالأمانة الطاعة والفرائض ، عرضها عليهم قبل أن

يعرضها على آدم ، فلم يطقنها ، فقال لآدم : إني قد عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال ، فلم يطقنها ، فهل أنت آخذ بما فيها؟ قال : يا رب ، وما فيها؟ قال : إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عوقبت ، فأخذها آدم فتحملها ، فذلك قوله تعالى : ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾. والمراد جنس الإنسان بحسب الأغلب.

فالأمانة تشمل الطاعات والفرائض التي يتعلق بأدائها الثواب ، وبتضييعها العقاب ، وتشمل أمانة الأموال كالودائع وغيرها مما لا بيّنة عليه ، وغسل الجنابة أمانة ، والفرج أمانة ، والأذن أمانة ، والعين أمانة ، واللسان أمانة ، والبطن أمانة ، واليد أمانة ، والرّجل أمانة.

وقد حملها الإنسان بسبب جهله بما فيها ، وعلم هذه الأجرام ، وهو مع ذلك يتأثر بالانفعالات النفسية وبالشهوات الذاتية ، ولا يتدبر عواقب الأمور ، وكانت هذه التكاليف وسيلة للحد من سلطان الشهوة ، وتأثير النوازع ، والقوى الداخلية في نفسه.

ثم بيّن الله تعالى نتائج تلك التكاليف بين المكلفين ، فقال :

﴿لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكاتِ ، وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ ، وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ أي إن عاقبة حمل الإنسان لهذه الأمانة وهي التكاليف أن ينقسم الناس فريقين : فريق المنافقين والمنافقات (وهم الذين يظهرون الإيمان خوفا من أهله ويبطنون الكفر متابعة لأهله) والمشركين والمشركات (وهم الذين ظاهرهم وباطنهم على الشرك بالله ومخالفة الرسل) الذين يعذبهم الله لخيانتهم الأمانة ، وتكذيب الرسل ، ونقض الميثاق ، وفريق المؤمنين والمؤمنات (وهم الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله ، العاملين بطاعته)

الذين يتوب الله عليهم إذا تابوا ، وأدوا ما حملوه من الأمانات من العبادة وغيرها ؛ لأن الله غفور لذنوبهم ، كثير الرحمة بهم.

والآية دليل على أن الله أعلم الإنسان بأنه غفور رحيم ، وبصره بنفسه فرآه ظلوما جهولا ، ثم عرض عليه الأمانة ، فقبلها مع ظلمه وجهله ، لعلمه بما يجبرها من الغفران والرحمة. والمعنى أن هناك مرضا جبليا في الإنسان ، وأن هناك علاجا ودواء لهذا المرض وهو سعة المغفرة وكثرة الرحمة الإلهية إذا تعرض الإنسان لهما في الجملة بالتوبة والإنابة والطاعة.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ ختمت السورة المشتملة على الأحكام بأمر إجمالي هو وجوب التزام الأوامر الإلهية ، والآداب الشرعية السامية ، والمواعظ الرائعة.

٢ ـ الأمانة تشمل جميل تكاليف الشرع ووظائف الدين ، على الصحيح من الأقوال ، وهو قول الجمهور ، ومنها الفرائض التي ائتمن الله عليها العباد ، وليست التكاليف سهلة هينة ، وإنما هي من عظائم الأمور التي ناءت بحملها السموات والأرض والجبال.

روى الحكيم الترمذي عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «قال الله تعالى لآدم : يا آدم ، إني عرضت الأمانة على السموات والأرض ، فلم تطقها ، فهل أنت حاملها بما فيها؟ فقال : وما فيها يا رب؟ قال : إن حملتها أجرت ، وإن ضيّعتها عذّبت ، فاحتملها بما فيها ، فلم يلبث في الجنة إلا قدر ما بين صلاة الأولى إلى العصر ، حتى أخرجه الشيطان منها».

٣ ـ العرض على السموات والأرض والجبال إما مجاز ، وإما حقيقة ، وإما

ضرب مثل ، فقام قوم : المعنى : إنا عرضنا الأمانة وتضييعها على أهل السموات وأهل الأرض من الملائكة والإنس والجن ، فأبين أن يحملن وزرها ، مثل : ﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف ١٢ / ٨٢] أي أهلها. فهذا مجاز مرسل. وقال قوم : إن الآية من المجاز ـ بنحو آخر ـ أي إنا إذا قايسنا ثقل الأمانة بقوة السموات والأرض والجبال ، رأينا أنها لا تطيقها ، وأنها لو تكلمت لأبت وأشفقت. وهذا كما تقول : عرضت الحمل على البعير فأباه ، وأنت تريد قايست قوته بثقل الحمل ، فرأيت أنها تقصر عنه.

وقال آخرون : الحسن وغيره : العرض حقيقة أي أنه عرض على السموات والأرض والجبال الأمانة وتضييعها وهي الثواب والعقاب ، أي أظهر لهن ذلك ، فلم يحملن وزرها ، وأشفقت ، وقالت : لا أبتغي ثوابا ولا عقابا ، وكل يقول : هذا أمر لا نطيقه ، ونحن له سامعون ومطيعون فيما أمرن به وسخّرن له. ولكن قال العلماء : معلوم أن الجماد لا يفهم ولا يجيب ، فلا بد من تقدير الحياة ، على القول الأخير. وهذا العرض عرض تخيير لا إلزام.

وقال القفّال وغيره : العرض في هذه الآية ضرب مثل ، أي إن السموات والأرض والجبال على كبر أجرامها ، لو كانت بحيث يجوز تكليفها لثقل عليها تقلد الشرائع ، لما فيها من الثواب والعقاب ، أي إن التكليف أمر حقه أن تعجز عنه السموات والأرض والجبال ، وقد كلّفه الإنسان ، وهو ظلوم جهول لو عقل. وهذا كقوله : ﴿لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ﴾ [الحشر ٥٩ / ٢١] ثم قال : ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ﴾ (الآية نفسها) قال القفال : فإذا تقرر أنه تعالى يضرب الأمثال ، وورد علينا من الخبر ما لا يخرج إلا على ضرب المثل ، وجب حمله عليه.

وعلى أي حال ، المقصود بالآية بيان عظمة التكاليف وثقلها وتنبيه الإنسان

لخطورة التبعة (أو المسؤولية) عنها ، فلا يفرط فيها ، وهو بين خيارين : إما العصيان فالعذاب ، وإما الطاعة فالثواب ، والله غفور رحيم.

٤ . لقد تجشم الإنسان تحمل مسئولية الأمانة ، والتزم القيام بحقها ، وهو في ذلك ظلوم لنفسه أو للأمانة ، جهول بقدر ما دخل فيه أو جهول بربه.

والإنسان : هو النوع كله ، مراعاة لعموم الأمانة ، فيشمل الكافر والمنافق ، والعاصي ، والمؤمن. وقيل : المراد بالإنسان : آدم الذي تحمّل الأمانة.

٥ . اللام في قوله تعالى : ﴿لِيُعَذِّبَ﴾ المتعلقة ب ﴿عَرَضْنَا﴾ أو ب ﴿حَمَلَهَا﴾ سواء قلنا : إنها لام الصيرورة أو لام التعليل ، فإن النتيجة انقسام الناس إزاء التكاليف إلى قسمين : عصاة وطائعين ، فقد حمل الإنسان الأمانة ، ثم كانت حالته أمامها ليست واحدة ، فهناك قوم التزموا القيام بحقها ، فأثابهم الله الجنة ، وهناك آخرون أهملوا القيام بحقها ، فعذبهم الله بالنار.

وإذا تعلقت اللام ب ﴿عَرَضْنَا﴾ يكون المعنى على أن اللام للتعليل : عرضنا الأمانة على الجميع ، ثم قلدناها الإنسان ، ليظهر شرك المشرك ، ونفاق المنافق ، ليعذبهم الله ، وإيمان المؤمن ليثيبه الله. وإذا تعلقت ب ﴿حَمَلَهَا﴾ يكون المعنى على جعل اللام للتعليل : حملها ليعذّب العاصي ، ويثيب المطيع ، لأن العذاب نتيجة حمل الأمانة.

وإذا كانت اللام لام الصيرورة يكون المعنى : حملها الإنسان ، فآل الأمر إلى أن يعذب من خان الأمانة ، ويتوب على من أداها حقها.

بسم الله الرّحمن الرّحيم

سورة سبأ

مكيّة ، وهي أربع وخمسون آية.

تسميتها :

سميت سورة سبأ للتذكير فيها بقصة سبأ ، وهم ملوك اليمن ، في قوله تعالى : ﴿لَقَدْ كانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ : جَنَّتانِ ..﴾ [١٥ ـ ١٦] فقد أنعم الله عليهم بالحدائق الغناء والأراضي الخصبة ، فلما كفروا النعمة ، أبادهم بسيل العرم.

مناسبتها لما قبلها :

تظهر صلة هذه السورة بما قبلها من وجوه ثلاثة : الأول ـ أن هذه السورة افتتحت ببيان صفات الملك التام والقدرة الشاملة التي تناسب ختام السورة السابقة في تطبيق العذاب وتقديم الثواب : ﴿لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكاتِ ، وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ ...﴾.

الثاني ـ كان آخر الأحزاب : ﴿وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ ومطلع سبأ في فاصلة الآية الثانية : ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾.

الثالث ـ في سورة الأحزاب سأل الكفار عن الساعة استهزاء ، وفي هذه السورة حكى القرآن عنهم إنكارها صراحة.

مشتملاتها :

تضمنت سورة سبأ المكية محور ما تدور عليه بقية السور المكية في إثبات

العقيدة : من توحيد الله ، والنبوة ، والبعث.

فابتدأت بحمد الله تعالى والثناء عليه ؛ لأنه خالق السموات والأرض ، ومرسل الملائكة رسلا بمهام عديدة إلى البشر.

ثم أعقب ذلك الحديث عن إنكار المشركين البعث بعد الموت ، وإثباته بالقسم العظيم بالله تعالى من النبي محمد ﷺ على وقوع المعاد : ﴿قُلْ : بَلى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾. وذكرت اتهامهم الباطل للنبي ﷺ بأنه مفتر أو مجنون ، ثم أكدت ثبوت قدرة الله تعالى بخسف الأرض وإسقاط السماء.

وتلاها تعداد النعم التي أنعم الله بها على داود وسليمان ، وأهل سبأ كتسخير الطير والجبال للتسبيح مع داود ، وتسخير الريح لسليمان عليهما السلام ، وجعل الحدائق والثمار الطيبة لملوك اليمن أهل سبأ.

ثم تحدثت السورة عن أدلة وجود الله ووحدانيته ، وتفنيد مزاعم المشركين في عبادة الأوثان ، وإظهار صورة من الجدل العنيف بين الأتباع الكفرة والمتبوعين المخذولين يوم القيامة ، وإلقاء كل من الفريقين التبعة على الآخر.

وأبانت عموم الرسالة الإسلامية المحمدية لجميع الناس ، وهددت بالحساب العسير والجزاء الأليم يوم القيامة ، وأن المترفين في كل زمان هم أعداء الرسل لاغترارهم بأموالهم وأولادهم ، وأن الله راض عنهم فلا يعذبهم ، وأن الله سيسأل الملائكة يوم الحشر ، هل طلبوا من المشركين عبادتهم؟.

ثم حكت السورة إنكار المشركين للقرآن وأنه في زعمهم مفترى ليس بوحي ، ووعظتهم بما عوقب به من قبلهم ، وطالبتهم بالتأمل والتفكر في أن محمدا ﷺ ليس بمفتر ولا مجنون ، وإنما هو نذير بين يدي عذاب شديد ، وأنه لا يطلب أجرا على دعوته ، بل أجره على ربه.

وختمت السورة بدعوة المشركين إلى الإيمان بالله الواحد الأحد ، قبل أن يأتي يوم القيامة ، فيطلبون العودة إلى دار الدنيا للإيمان بالقرآن وبالرسول محمد ﷺ ، والإتيان بصالح الأعمال ، ولكن يحال بينهم وبين ما يشتهون ، لفوات الأوان.

صفات الملك والقدرة والعلم لله تعالى

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١) يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَما يَخْرُجُ مِنْها وَما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَما يَعْرُجُ فِيها وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢)﴾

الإعراب :

﴿الَّذِي لَهُ ...﴾ إما في موضع جر على النعت أو البدل ، أو في موضع رفع على إضمار مبتدأ ، أو في موضع نصب بمعنى أعني.

﴿يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ جملة فعلية في موضع نصب على الحال من اسم الله ، ويحتمل أن يكون مستأنفا لا موضع له من الإعراب.

البلاغة :

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ تعريف الطرفين لإفادة الحصر ، أي لا يستحق الحمد الكامل إلا الله.

﴿يَلِجُ يَخْرُجُ يَنْزِلُ يَعْرُجُ﴾ بين كل منهما طباق.

﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ صيغة فعيل وفعول للمبالغة.

المفردات اللغوية :

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الْحَمْدُ﴾ هو الثناء على الله بما هو أهله ، أو الثناء على الله بجميل صفاته

وأفعاله ﴿لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ﴾ ملكا وخلقا ونعمة. ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ لله الحمد في الدنيا لكمال قدرته وتمام نعمته ، وله أيضا حمد عباده في الدار الآخرة إذا دخلوا الجنة ، للسبب السابق ذاته ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ في فعله وهو الذي أحكم أمر الدارين ودبره بمقتضى الحكمة ﴿الْخَبِيرُ﴾ بخلقه في الدارين ، وهو الذي يعلم بواطن الأمور.

﴿يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ يدخل فيها كالماء ينفذ في موضع وينبع في آخر ، وكالكنوز والدفائن والأموات ﴿وَما يَخْرُجُ مِنْها﴾ كالزروع والنباتات والحيوان والفلزات وماء العيون ﴿وَما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ﴾ من الأمطار والثلوج والبرد والصواعق والأرزاق والملائكة والكتب والمقادير ﴿وَما يَعْرُجُ فِيها﴾ يصعد فيها من أعمال العباد وغيرها من الملائكة والأبخرة والأدخنة ﴿الرَّحِيمُ﴾ بعباده ﴿الْغَفُورُ﴾ لذنوبهم.

التفسير والبيان :

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ﴾ أي إن الحمد المطلق الكامل لله مالك السموات والأرض وما فيهما ، والمتصرف بشؤونهما ، يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، وحمده على النعم التي أنعم بها على خلقه ، والمعنى : إن المستحق للحمد والثناء والشكر هو الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ملكا وخلقا وتصرفا بما يشاء ، فهو صاحب القدرة الكاملة ، والنعمة التامة.

﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ أي لله الحمد في الآخرة كالحمد في الدنيا ؛ لأنه المنعم المتفضل على أهل الدنيا والآخرة ، كما قال في آية أخرى : ﴿وَهُوَ اللهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ ، لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولى وَالْآخِرَةِ ، وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص ٢٨ / ٧٠]. وقال تعالى في حكاية حمد أهل الجنة : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ ، وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ﴾ [الزمر ٣٩ / ٧٤]. ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ، إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ. الَّذِي أَحَلَّنا دارَ الْمُقامَةِ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [فاطر ٣٥ / ٣٤ ـ ٣٥].

وإذا كان هو المحمود على طول المدى ، فهو المعبود أبدا.

﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ أي والله هو الحكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره ، يدبر شؤون خلقه على مقتضى الحكمة ، والخبير ببواطن الأمور ، الذي لا تخفى عليه خافية ، ولا يغيب عنه شيء. قال مالك : خبير بخلقه حكيم بأمره.

﴿يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَما يَخْرُجُ مِنْها﴾ أي يعلم ما يدخل في الأرض كالغيث الذي ينفذ في موضع وينبع في آخر ، وكالكنوز والدفائن والأموات ، ويعلم ما يخرج من الأرض ، كالحيوان والنبات والماء والفلزّات.

﴿وَما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَما يَعْرُجُ فِيها﴾ أي ما ينزل من السماء كالملائكة والكتب والأرزاق والأمطار والصواعق ، وما يعرج فيها كالملائكة وأعمال العباد والغازات والأدخنة ووسائل النقل الجوي والطيور.

﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ أي والله هو الرحيم بعباده ، فلا يعاجل عصيانهم بالعقوبة ، الغفور لذنوب التائبين إليه المتوكلين عليه.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ الله تعالى هو المستحق لجميع المحامد والحمد : الشكر على النعمة ، ويكون الثناء على الله بما هو أهله ، فالحمد الكامل والثناء الشامل كله لله ؛ إذ النعم كلها منه ، وهو مالك السموات والأرض وخالقهما والمتصرف فيهما بالإيجاد والإعدام ، والإحياء والإماتة.

٢ ـ الله تعالى هو المحمود في الدنيا والآخرة ؛ لأنه المالك للأولى والثانية ، وهو الحكيم في فعله ، الخبير بأمر خلقه.

٣ ـ الله عالم بكل شيء من الظواهر والخوافي ، يعلم ما يدخل في الأرض من قطر وغيره من الكنوز والدفائن والأموات ، ويعلم ما يخرج منها من نبات

وغيره ، ويعلم ما ينزل من السماء من الأمطار والثلوج والبرد والصواعق والأرزاق والمقادير والبركات ، وما يعرج فيها من الملائكة وأعمال العباد ، وهو الرحيم بعباده الغفور لذنوب التائبين منهم.

وهذا ويلاحظ كما ذكر الرازي أن السور المفتتحة بالحمد خمس سور ، سورتان منها في النصف الأول : وهما الأنعام والكهف ، وسورتان في الأخير : وهما هذه السورة وسورة فاطر (سورة الملائكة) ، والفاتحة التي تقرأ مع النصف الأول ومع النصف الأخير ، والحكمة فيها أن نعم الله منحصرة في قسمين : نعمة الإيجاد ونعمة الإبقاء ، ففي سورة الأنعام إشارة إلى الشكر على نعمة الإيجاد : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُماتِ وَالنُّورَ﴾ [١] وفي سورة الكهف إشارة إلى الشكر على نعمة الإبقاء : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلى عَبْدِهِ الْكِتابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً ، قَيِّماً﴾ [١ ـ ٢] فإن بالشرائع البقاء. ثم في هذه السورة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إشارة إلى نعمة الإيجاد الثاني في قوله : ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ وفي سورة فاطر إشارة إلى نعمة الإبقاء الثاني وهو في يوم القيامة ؛ لأن الملائكة لا تكون رسلا إلا يوم القيامة يرسلهم الله مسلّمين ، كما قال تعالى : ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ﴾ [الأنبياء ٢١ / ١٠٣]. وفي فاتحة الكتاب إشارة إلى النعمة العاجلة بقوله : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ [١] وإلى النعمة الآجلة بقوله : ﴿مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [٤] لذا قرئت في الافتتاح والاختتام.

إنكار الكفار الساعة وموقف الناس من آيات الله وجزاؤهم

﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ (٣) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (٥) وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٦)﴾

الإعراب :

﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ عَالِمِ﴾ بالجر : نعت لقوله تعالى : ﴿وَرَبِّي﴾ أو بدل منه ، ويقرأ بالرفع على أنه مبتدأ ، وخبره : ﴿لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ أو خبر مبتدأ محذوف تقديره : هو عالم الغيب. ﴿وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ ..﴾ مرفوعان بالابتداء.

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ..﴾ اللام تتعلق بقوله : ﴿لا يَعْزُبُ﴾. و ﴿أَلِيمٌ﴾ بالجر والرفع صفة لرجز أو عذاب.

﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ إما معطوف على ﴿لِيَجْزِيَ﴾ أو مستأنف.

﴿هُوَ الْحَقَّ﴾ مفعول ثان ل ﴿يَرَى﴾ وهو : ضمير فصل ، ومن قرأ بالرفع جعل ﴿هُوَ﴾ مبتدأ ، و ﴿الْحَقَّ﴾ خبره ، والجملة ثاني مفعولي ﴿يَرَى﴾.

البلاغة :

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ و ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾ بينهما ما يسمى بالمقابلة ، فالمغفرة والرزق الكريم جزاء المحسنين ، والعذاب والرجز الأليم جزاء المجرمين.

المفردات اللغوية :

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ القيامة والبعث ، وهذا منهم إنكار لمجيئها ، أو استبطاء استهزاء بالوعد به ﴿قُلْ : بَلَى﴾ رد لكلامهم وإثبات لما نفوه [1]﴿وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ

---

(١) «بلى» : لها موضعان : الأول ـ أن تكون ردّا لنفي يقع قبلها ، خبرا كان أو نهيا ، فينتفي بها ما قبلها من النفي وتحققه ، كما هنا. والثاني ـ أن تقع جوابا لاستفهام دخل على نفي تحققه ، فيصير معناها التصديق لما قبلها ، مثل : ألم أكن صديقك؟ فيقول الرادّ : بلى ، إذا

﴿الْغَيْبِ﴾ تكرار لإثباته ، مؤكدا بالقسم ، مقررا وصف المقسم به بصفات تثبت إمكانه ، وتنفي استبعاده ﴿لا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾ لا يغيب عنه ﴿مِثْقالُ ذَرَّةٍ﴾ وزن أو مقدار أصغر نملة ﴿وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذلِكَ﴾ المثقال ﴿وَلا أَكْبَرُ﴾ منه ﴿إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ﴾ أي إلا وهو مثبت في كتاب بيّن واضح وهو اللوح المحفوظ.

وقوله : ﴿وَلا أَصْغَرُ﴾ إلخ جملة مؤكدة لنفي العزوب.

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا ..﴾ علة لقوله : ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ وبيان لما يقتضي إتيانها ، أي إن إتيان الساعة فائدته جزاء المؤمنين بالثواب والكافرين بالعقاب ﴿مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ، أي محوها من قبل الله تعالى بسبب غلبة إيمانهم وأعمالهم الصالحة على ذنوبهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ حسن لا تعب فيه ولا منّة عليه ، وهو ما يقيض لهم من ملاذ الأطعمة وغيرها في الجنة بسبب إيمانهم وعملهم الصالح تفضلا من الله تعالى عليهم.

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آياتِنا﴾ بإبطال آياتنا المنزلة على الرسل ، وتزهيد الناس فيها ﴿مُعاجِزِينَ﴾ مسابقين لنا يظنون أنهم يفوتوننا فلا نقدر عليهم ، لاعتقادهم ألا بعث ولا عقاب ، وقرئ : معجّزين ، أي مثبّطين عن الإيمان بآيات القرآن من أراده ﴿رِجْزٍ﴾ سيء العذاب أو عذاب شديد ﴿أَلِيمٌ﴾ مؤلم.

﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أي ويعلم أولو العلم من الصحابة ومشايعوهم من الأمة ، أو من مسلمي أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه ﴿الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ القرآن ﴿هُوَ الْحَقَ﴾ الثابت الصحيح وغيره باطل ﴿وَيَهْدِي إِلى صِراطِ﴾ أي يوصل إلى طريق الله ودين الله وهو التوحيد والتقوى ﴿الْعَزِيزِ﴾ ذي العزة الذي يغلب ولا يغلب ﴿الْحَمِيدِ﴾ المحمود في جميع شؤونه.

. صدقه ، والمعنى : بلى كنت صديقي ، فهي إذن لإثبات المنفي. وأما «نعم» : فهي في الأصل : تصديق لما قبلها في كل كلام وإيجاب له ، وعدة ، مثل : هل تحسن إلي؟ فيقول الرادّ : نعم ، فيعده بالإحسان ، فإن أراد ترك الإحسان قال : لا ، ولا يحسن هنا : بلى. و «لا» نفي لما قبلها وردّ له. وأما «كلا» فتكون بمعنى «لا» ومعناها الرد والإنكار لما تقدم قبلها من الكلام وذلك في حال الوقف عليها. وقد تأتي بمعنى «حقّا» وهو مذهب الكسائي خلافا لحذّاق النحويين. وفي حال الابتداء ب «كلا» تكون بمعنى «ألا» مثل ﴿كَلَّا ، إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى﴾ (شرح «كلا ، وبلى ، ونعم» للعلامة مكي بن أبي طالب القيسي).

المناسبة :

بعد بيان أن لله الحمد في الدنيا والآخرة ، أبان الله تعالى أن الكفار ينكرون حدوث القيامة أشد الإنكار ، أو يستعجلون بها استهزاء بوعد النبي ﷺ بها ، ثم أوضح تعالى أن الناس من آيات القرآن فريقان : فريق المنكرين الجاحدين المعاندين الساعين في إبطالها ، وجزاؤهم العذاب الأليم ، وفريق العالمين المؤمنين بأنها الحق الصراح الأكيد الذي يهدي إلى الصراط المستقيم.

التفسير والبيان :

﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ أي وقال الكافرون بالرسالات السماوية إنكارا منهم أو استعجالا على سبيل الاستهزاء بالوعد : لن يكون هناك قيامة ولا بعث ولا حساب. وهم بذلك جاحدون الأخبار الواردة من ربهم بحدوث الساعة ، والتي تضمنتها كتبه وما فيها من الحجج والبينات.

فرد الله عليهم مؤكدا بطلان اعتقادهم :

﴿قُلْ : بَلى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ أي قل لهم أيها النبي : بلى والله إنها لآتية لا ريب فيها. ويلاحظ في ذلك إثبات وجودها ونفي مزاعمهم ، مؤكدا ذلك بالقسم بالله وبالتأكيد في الفعل باللام ونون التوكيد.

وهذه الآية ـ كما ذكر ابن كثير ـ إحدى آيات ثلاث أمر الله تعالى فيها رسوله أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد ، للرد على المنكرين من أهل الشرك والنفاق والعناد ، فإحداهن في سورة يونس : ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ؟ قُلْ : إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ، وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [٥٣] والثانية هذه : ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ، قُلْ : بَلى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ والثالثة في سورة التغابن : ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا ، قُلْ : بَلى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ، ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِما عَمِلْتُمْ ، وَذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ [٧].

ثم وصف الله تعالى نفسه بصفة العلم الشامل الدال على إمكان البعث ، فقال :

﴿عالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ﴾ أي إن الله تعالى القادر على البعث لا يغيب عنه ولا يستتر عليه شيء من الموجودات ولو كان بقدر أصغر نملة ، ولا أصغر من المثقال ولا أكبر منه إلا وهو محفوظ ومثبت في كتاب بيّن وهو اللوح المحفوظ. فالعلم بالغيبيات موجود ، فاقتضى إمكان البعث.

ثم بيّن الله تعالى حكمته في إعادة الأجساد وقيام الساعة بقوله :

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ، أُولئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي إن يبعثهم من قبورهم في البر والبحر وأي مكان يوم القيامة ليثيب المؤمنين بالله ورسله واليوم الآخر ، الذين عملوا صالح الأعمال وهو ما أمروا به ، واجتنبوا ما نهوا عنه ، وأولئك لهم مغفرة أي محو لذنوبهم ، ونعيم في الجنة لا تعب ولا منة فيه ، والمقصود أن إثابة المؤمنين حق وعدل.

هذا هو فريق المؤمنين ، والفريق الثاني :

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ ، أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾ أي إن الكفار المعاندين الذين حاولوا إبطال آيات القرآن وأدلة إثبات البعث ، ظانين أنهم يفوتوننا فلا نقدر عليهم ، لهم عذاب شديد في نار جهنم هو أسوأ العذاب وأشده ، وهو مؤلم شديد الألم. وهذا التعذيب أيضا حق وعدل ، حتى لا يتساوى المسيء مع المحسن ، كما قال تعالى : ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ ، أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [سورة ص ٣٨ / ٢٨] وقال سبحانه : ﴿لا يَسْتَوِي أَصْحابُ النَّارِ وَأَصْحابُ الْجَنَّةِ ، أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفائِزُونَ﴾ [الحشر ٥٩ / ٢٠].

والخلاصة : أن الغاية من القيامة هي أن ينعم السعداء من المؤمنين بالجنة ، ويعذب الأشقياء من الكافرين بالنار.

ثم أورد الله تعالى حكمة أخرى معطوفة على ما قبلها فقال :

﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ ، وَيَهْدِي إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ أي إن المؤمنين بما أنزل على الرسل من المسلمين وأهل الكتاب ، مثل عبد الله بن سلام وكعب وأصحابهما وغيرهم إذا شاهدوا قيام الساعة ، ومجازاة الأبرار والفجار ، وتحققوا مما علموه من كتب الله تعالى في الدنيا ، رأوه حينئذ عين اليقين وتيقنوا أن القرآن حق ، ويقولون يومئذ : إن الذي جاءت به رسل الله لحق ثابت صدق لا شك فيه ، وأن القرآن يرشد من اتبعه إلى طريق الله ذي العزة الذي لا يغلب ولا يمانع ، وهو القاهر كل شيء ، وهو المحمود في جميع أقواله وأفعاله وشرعه وقدره ولا يليق به صفة العجز. والصحيح أن ﴿وَيَرَى﴾ مرفوع على الاستئناف.

ونظير الآية : ﴿هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس ٣٦ / ٥٢] ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللهِ إِلى يَوْمِ الْبَعْثِ ، فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ﴾ [الروم ٣٠ / ٥٦].

فقه الحياة أو الأحكام :

يفهم من الآيات ما يأتي :

١ ـ أنكر الكفار من أهل مكة وغيرهم مجيء البعث والقيامة ، قال أبو سفيان لكفار مكة : واللّات والعزّى لا تأتينا الساعة أبدا ولا نبعث ، وهذا يعني أنهم مقرون بابتداء الله الخلق منكرون الإعادة ، وهو نقض لما اعترفوا بالقدرة على البعث ، وقالوا : وإن قدر لا يفعل.

٢ ـ أكد الله تعالى حدوث الساعة بقسم محمد ﷺ بربه العظيم لتأتينهم ،

وأخبر على ألسنة الرسل عليهم السلام أنه يبعث الخلق ، وإذا ورد الخبر بشيء ، وهو ممكن في الفعل مقدور ، فتكذيب من وجب صدقه محال.

٣ . الله عالم بأصغر شيء وأكبره في السموات والأرض ، فهو العالم بما خلق ، ولا يخفى عليه شيء ، فوجد المقتضي لوجود البعث وهو إقامة العدل بين الناس ، وارتفع المانع من حصوله.

٤ . إن الحكمة من البعث والقيامة والحساب هي إثابة المؤمنين الذين عملوا الصالحات ، وعقاب الكافرين المكذبين بوحدانية الله وبالرسل والملائكة والكتب الإلهية واليوم الآخر.

٥ . إن الكفار الذين سعوا في إبطال أدلة الوحدانية والبعث والنبوة ، والتكذيب بآيات الله مسابقين يحسبون أنهم يفوتون ربهم ، وأن الله لا يقدر على بعثهم في الآخرة ، وظنوا أنه يهملهم ، هؤلاء لهم عذاب مؤلم هو أسوأ العذاب وأشده.

٦ . وفي مقابل موقف أولئك الكفار الذين سعوا في إبطال النبوة ، وجد آخرون هم الذين أوتوا العلم من أصحاب محمد ﷺ ومن مؤمني أهل الكتاب يرون أن القرآن حق وإن لم تأتهم الساعة ، والرؤية بمعنى العلم ، وأن القرآن يهدي إلى طريق الإسلام الذي هو دين الله.

استبعاد الكفار قيام الساعة واستهزاؤهم بالرسول ﷺ

والاستدلال على البعث

﴿وقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧) أَفْتَرى عَلَى اللهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ (٨) أَفَلَمْ يَرَوْا إِلى ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّماءِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٩)﴾

الإعراب :

﴿إِذا مُزِّقْتُمْ﴾ العامل في ﴿إِذا﴾ فعل دلّ عليه قوله تعالى : ﴿إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وتقديره : إذا مزّقتم كلّ ممزّق بعثتم. وتقديم الظرف للدلالة على البعد.

البلاغة :

﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ﴾ الاستفهام للسخرية والاستهزاء ، ومرادهم الاستهزاء بالرسول ﷺ ، ولم يذكروا اسمه تجهيلا له.

المفردات اللغوية :

﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي : قال بعض الكفار لبعض على جهة التعجيب ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلى رَجُلٍ﴾ يعنون محمدا ﷺ . ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾ يخبركم أنكم ﴿إِذا مُزِّقْتُمْ﴾ قطّعتم قطعا صغيرة. ﴿كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي كل تمزيق ، أي تقطيع. ﴿إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي إنكم تنشؤون وتخلقون خلقا جديدا بعد التمزيق والتفريق بحيث تصير ترابا. قالوا ذلك استهزاء.

﴿أَفْتَرى﴾ الهمزة للاستفهام ، واستغني بها عن همزة الوصل ، والافتراء : اختلاق الكذب.

﴿جِنَّةٌ﴾ جنون وزوال عقل يوهمه ذلك ويجعله يتخيل البعث. ﴿بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ المشتملة على البعث والعذاب فيها ﴿فِي الْعَذابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ﴾ عن الحق والصواب في الدنيا ، والعذاب في الآخرة. والمقصود الردّ من الله عليهم لإثبات ما هو أفظع من القسمين وهو الضلال والعذاب.

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا﴾ ينظروا. ﴿إِلى ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ﴾ ما فوقهم وما تحتهم. ﴿نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ نغيبهم فيها. ﴿كِسَفاً﴾ قطعا جمع كسفة. ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ﴾ المرئي. ﴿لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ المنيب : الراجع إلى ربه المطيع له ، والمعنى : إن فيما رأوا لدلالة على قدرة الله على البعث وما يشاء.

المناسبة :

بعد الإخبار عن إنكار الكفرة الساعة ، والرّد عليهم ، وبيان جزائهم وجزاء المؤمنين بها ، ذكر الله تعالى مقال الكافرين في شأن الساعة على سبيل التعجب والتهكم والاستهزاء ، ووصفهم لمحمد ﷺ بأنه مفتر أو مجنون ، ثم أقام الدليل على البعث بقدرته على خلق السموات والأرض ، ثم هددهم بالعذاب الشديد ، لعلهم يرجعون عن كفرهم.

التفسير والبيان :

﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ، إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي قال بعض الكفار لبعض على سبيل التعجب والاستهزاء والتهكم : هل ندلكم على شخص اسمه محمد يخبركم بنبإ غريب وهو أنكم إذا بليتم وصرتم ترابا وصارت أجسادكم في الأرض متفرقة موزعة قطعا قطعا ، تعودون بعدئذ أحياء كما كنتم مرة أخرى.

ونظير الآية : ﴿وَضَرَبَ لَنا مَثَلاً ، وَنَسِيَ خَلْقَهُ ، قالَ : مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس ٣٦ / ٧٨].

﴿أَفْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾ أي إن حاله لا يخلو من أحد أمرين : إما أن يكون قد تعمّد الافتراء على الله كذبا أنه قد أوحى إليه ذلك ، أي أنه كاذب فيما قاله ، أو أن به جنونا جعله لا يعقل ما يقول ، ويتوهم البعث ويتخيله.

فردّ الله عليهم بإثبات ما هو أخطر وأشنع من الأمرين فقال :

﴿بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ﴾ أي ليس الأمر كما زعموا ، ولا كما ذهبوا إليه ، بل إن محمدا ﷺ هو الصادق الرشيد الذي جاء بالحق ، وهم الكذبة الجهلة الأغبياء المنكرون للآخرة ، الذين كفروا ، فصاروا بسبب ذلك في العذاب الدائم في الآخرة ، وهم اليوم في الدنيا في الضلال البعيد عن الحق غاية البعد.

ثم نبههم تعالى على قدرته في خلق السموات والأرض ، فهو القادر على البعث ، فقال:

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلى ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ ، إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ ، أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّماءِ﴾ أي وبخهم لعدم التفكر والتدبر في خلق السماء والأرض ، فقال لهم : أفلم ينظروا خلفهم وأمامهم إلى العجائب الدالة على قدرة الله تعالى ووحدانيته ، فإنهم يرون السماء ناطقة بوجود القادر ، والأرض كذلك تنطق بمثل ما تشير به السماء من الدلالة ، فلو نظروا إليهما لعلموا أن خالقهما قادر على تعجيل العذاب لهم ، فإن نرد نخسف بهم الأرض ، كما خسفنا بقارون ، أو نسقط عليهم قطعا من السماء ، كما أسقطنا على أصحاب الأيكة.

والمراد : لو شئنا لفعلنا بهم ذلك بظلمهم وقدرتنا عليهم ، ولكن نؤخر العقاب عنهم لحلمنا وعفونا.

﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ أي إن في النظر إلى خلق السموات والأرض لدلالة لكل عبد فطن لبيب رجّاع إلى الله ، على قدرة الله تعالى على بعث الأجساد ووقوع المعاد ؛ لأن من قدر على خلق هذه السموات في ارتفاعها واتساعها ، وهذه الأرض في انخفاضها وطولها وعرضها ، قادر على إعادة الأجسام كما كانت ، كما قال تعالى : ﴿لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ، وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر ٤٠ / ٥٧] ، وقال سبحانه : ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ؟ بَلى﴾ [يس ٣٦ / ٨١].

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يلي :

١ ـ لم يكتف المشركون بإعلان إنكارهم البعث والقيامة ، وإنما تغالوا في ذلك فأخذوا يقولون قولا يقصد به الطعن بمحمد ﷺ والتعجب منه والهزء والسخرية من إخباره بالبعث ، وجعلوا ذلك أداة ضحك وتلهي ، واستغربوا أن الناس إذا فرقوا كل تفريق في أجزاء التراب ، كيف يمكن إعادة الحياة لهم؟!

٢ ـ وقال المشركون : إن محمدا في إخباره بالبعث لا يخلو إما أن يكون كاذبا مفتريا على الله ، وإما أنه مجنون.

٣ ـ ردّ الله عليهم ردّا يثبت عليهم ما هو أشنع من التهمتين السابقتين : وهو أنهم بسبب إنكارهم البعث واقعون في الآخرة في العذاب الشديد ، واليوم في الضلال البعيد عن الصواب ، حين صاروا إلى تعجيز الإله ، ونسبة الافتراء إلى من أيّده الله بالمعجزات.

٤ ـ ثم أقام الله تعالى عليهم الدليل على صحة البعث ، فأعلمهم أن الذي قدر على خلق السموات والأرض وما فيهن قادر على البعث ، وعلى تعجيل العقوبة لهم ، ومنها الخسف والكسف ، كما فعل بقارون وأصحاب الأيكة.

٥ ـ وإن في هذا المذكور من قدرة الله الباهرة لدلالة ظاهرة لكل عبد تائب رجّاع إلى الله بقلبه على قدرة الله تعالى على البعث ووقوع المعاد. وخصّ المنيب بالذكر ؛ لأنه المنتفع بالتفكر في حجج الله وآياته.

نعم الله على داود عليه‌السلام

﴿وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ مِنَّا فَضْلاً يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سابِغاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صالِحاً إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١)﴾

الإعراب :

﴿وَالطَّيْرَ﴾ إما منصوب بالعطف على موضع المنادي وهو النصب في قوله : ﴿يا جِبالُ﴾ أو على أنه مفعول معه ، أي مع الطير ، أو بفعل مقدر ، أي وسخرنا له الطير ، ودلّ عليه قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ مِنَّا فَضْلاً﴾. ويقرأ بالرفع ﴿وَالطَّيْرَ﴾ عطفا على لفظ ﴿يا جِبالُ﴾ أو عطفا على الضمير المرفوع في ﴿أَوِّبِي﴾ وحسن ذلك لوجود الفصل ب ﴿مَعَهُ﴾ والفصل يقوم مقام التوكيد. والقراءة بالنصب أقوى في القياس من الرفع.

﴿أَنِ اعْمَلْ سابِغاتٍ أَنِ﴾ : إما مفسرة بمعنى (أي) أو في موضع نصب بتقدير حذف حرف جر ، وتقديره : لأن أعمل. و ﴿سابِغاتٍ﴾ : أي دروعا سابغات ، فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه.

البلاغة :

﴿وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ مِنَّا فَضْلاً﴾ تنكير ﴿فَضْلاً﴾ للتفخيم ، أي فضلا عظيما. وتقديم داود على المفعول اهتمام بالمقدم وتشويق إلى المؤخر.

المفردات اللغوية :

﴿فَضْلاً﴾ هو النبوة والملك والجنود وكتاب الزبور والصوت الحسن. ﴿أَوِّبِي مَعَهُ﴾ رجّعي وردّدي معه التسبيح ، والتأويب : التسبيح. ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ جعلناه في يده كالعجين

أو الشمع يصرّفه من غير نار ولا طرق. ﴿أَنِ اعْمَلْ سابِغاتٍ﴾ أي وقلنا له اعمل دروعا كوامل تامة ، وهو أول من اتخذها. ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ أي اجعل النسج متناسبا في الحلق على قدر الحاجة غير مختلفة. و ﴿قَدِّرْ﴾ : اقتصد ، و ﴿السَّرْدِ﴾ : النسج ، يقال لصانع الدروع : سرّاد وزرّاد. ﴿وَاعْمَلُوا صالِحاً﴾ يعود الضمير لداود وأهله أي آل داود. ﴿إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ مطلع على كل أعمالكم ، فأجازيكم عليها.

المناسبة :

لما ذكر الله تعالى من ينيب من عباده ، ذكر نماذج ممن أنابوا إلى ربّهم ومنهم داود عليه‌السلام ، وبيّن ما آتاه الله على إنابته ، من النبوة والملك والجنود والزبور والصوت الحسن ، فكانت الجبال والطيور إذا سبّح تسبّح معه ، وعلّمه تعالى صناعة الدروع الحربية للوقاية من الضربات في الحروب.

التفسير والبيان :

﴿وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ مِنَّا فَضْلاً يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ يخبر تعالى عما أنعم به على رسوله داود عليه‌السلام مما آتاه من الفضل المبين ، وجمع له بين النبوة والملك العظيم المتمكن والجنود ، ومنحه من الصوت الرخيم القوي المؤثر ، الذي كان إذا سبّح سبّحت معه الجبال الراسيات ، والطيور السارحات : الغاديات الرائحات ، وتجاوبه بأنواع اللغات.

والمعنى : لقد أعطينا داود فضلا عظيما ونعما جليلة ، فقلنا للجبال والطير : رددي معه التسبيح إذا سبّح.

جاء في صحيح البخاري أن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم سمع صوت أبي موسى الأشعري رضي‌الله‌عنه ، يقرأ من الليل فوقف ، فاستمع لقراءته ، ثم قال صلى‌الله‌عليه‌وسلم : «لقد أوتي هذا مزمارا من مزامير آل داود».

﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ أَنِ اعْمَلْ سابِغاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ أي جعلنا الحديد في يده لينا يصنع به ما يشاء ، من غير حاجة إلى نار ولا مطرقة ، بل كان يفتله في يده مثل الخيوط ، ليعمل به الدروع الكاملات الواسعات التي تقي من ويلات الحروب ، وعلمه كيفية نسج الدروع بحيث تكون متناسبة الحلق ، وعلى قدر الحاجة ، فلا هي صغيرة ضيقة لا تحقق الهدف ، ولا كبيرة ثقيلة على لابسها ، فيعجز عن لبسها. ولا شك أن إلانة الحديد من غير نار ولا طرق معجزة لنبي الله داود ، لا تنطبق على غيره. وكان داود عليه‌السلام أول من صنع الدروع ، قال قتادة رحمه‌الله : «كانت الدروع قبله صفائح ثقالا» فلذلك أمر هو بالتقدير فيما يجمع بين الخفة والحصانة ، أي قدّر ما تأخذ من هذين المعنيين بقسطه ، أي لا تقصد الحصانة فتثقل ، ولا الخفة فتزيل المنعة.

﴿وَاعْمَلُوا صالِحاً ، إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي اعملوا يا آل داود عملا صالحا فيما أعطاكم الله تعالى من النعم ؛ فإني مراقب لكم ، بصير بأعمالكم وأقوالكم ، لا يخفى عليّ شيء منها. وقوله : ﴿إِنِّي بِما ..﴾ تعليل للأمر.

وهذا تحريض على إصلاح العمل لشكر النعمة ، والعمل الصالح يقوّم النفوس ، ويصقل الروح ، ويحصنها من المزالق والانحرافات.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ لقد منح الله تعالى عبده المنيب ورسوله داود عليه‌السلام فضلا عظيما ، فضّله به على سائر الأنبياء من قبله ، من الجمع بين النبوة والملك والزبور والعلم والجنود وتسبيح الجبال والطيور مع تسبيحه ، قال تعالى : ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْراقِ﴾ [ص ٣٨ / ١٨].

قال أبو ميسرة في تفسير التأويب : هو التسبيح بلغة الحبشة ، ومعنى تسبيح الجبال : هو أن الله تعالى خلق فيها تسبيحا كما خلق الكلام في الشجرة ، فيسمع منها ما يسمع من المسبّح ، معجزة لداود عليه‌السلام .

وقيل : المعنى : سيري معه حيث شاء ؛ من التأويب الذي هو سير النهار أجمع ، والنزول ليلا.

وقيل : المعنى تصرفي معه على ما يتصرف فيه داود بالنهار ، فكان إذا قرأ الزبور صوّتت الجبال معه ، وأصغت إليه الطير.

٢ ـ ومن فضائل الله على داود ومعجزاته : إلانة الحديد بيده ، حيث يصير كالعجين أو الشمع من غير نار ولا مطرقة.

قال القرطبي : في هذه الآية دليل على مشروعية تعلم أهل الفضل الصنائع ، وأن التحرّف بها لا ينقص من مناصبهم ، بل ذلك زيادة في فضلهم وفضائلهم ؛ إذ يحصل لهم التواضع في أنفسهم والاستغناء عن غيرهم ، وكسب الحلال الخلي عن الامتنان. وفي الصحيح عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم قال : «إن خير ما أكل المرء من عمل يده ، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده».

٣ ـ علّم الله تعالى داود عليه‌السلام صناعة الدروع السابغات ، أي الكوامل التامات الواسعات ، المحكمة الحلق المتناسبة فيما بينها ، ليست بالصغيرة فلا تحقق الغرض منها وهو الدفاع ، ولا بالكبيرة التي تثقل كاهل لابسها.

٤ ـ لم يستثن الله نبيا ولا رسولا من إلزامه بالعمل الصالح ، لذا أعقب بيان نعمه وأفضاله على داود بأمره مع أهله بصالح العمل وهو فعل الأوامر وترك النواهي ، كما قال تعالى : ﴿اعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً﴾ [سبأ ٣٤ / ١٣]. وعلل الترغيب بالعمل الصالح بأنه تعالى بصير بأعمال عباده وأقوالهم ، لا يغيب عنه شيء ، فيجازيهم عليها.

نعم الله على سليمان عليه‌السلام [سورة سبا (٣٤) : الآيات ١٢ الى ١٤]

﴿وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ غُدُوُّها شَهْرٌ وَرَواحُها شَهْرٌ وَأَسَلْنا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنا نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ مِنْ مَحارِيبَ وَتَماثِيلَ وَجِفانٍ كَالْجَوابِ وَقُدُورٍ راسِياتٍ اعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ (١٣) فَلَمَّا قَضَيْنا عَلَيْهِ الْمَوْتَ ما دَلَّهُمْ عَلى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ ما لَبِثُوا فِي الْعَذابِ الْمُهِينِ (١٤)﴾

الإعراب :

﴿وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ الرِّيحَ﴾ : منصوب بفعل مقدر ، تقديره : وسخرنا لسليمان الريح ، ويقرأ بالرفع على أنه مبتدأ مؤخر ، والجار والمجرور خبر مقدم ، أو مرفوع بالجار والمجرور على مذهب الأخفش.

﴿غُدُوُّها شَهْرٌ﴾ مبتدأ وخبر. ﴿وَرَواحُها شَهْرٌ﴾ معطوف عليه ، أي غدوها مسيرة شهر ، ورواحها مسيرة شهر ، وإنما وجب هذا التقدير ؛ لأن الغدو والرواح ليس بالشهر ، وإنما يكونان فيه.

﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ مِنَ﴾ : إما منصوب بتقدير فعل ، تقديره : وسخّرنا من الجن من يعمل بين يديه ، وإما مرفوع بالابتداء ، والجار والمجرور خبره ، أو مرفوع بالجار والمجرور على مذهب الأخفش.

﴿وَمَنْ يَزِغْ مِنَ﴾ : شرطية في موضع رفع بالابتداء ، و ﴿نُذِقْهُ﴾ : الجواب ، وهو خبر المبتدأ.

﴿اعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً شُكْراً﴾ : منصوب ؛ لأنه مفعول لأجله ، ولا يكون منصوبا ب ﴿اعْمَلُوا﴾ لأن «شكروا» أفصح من : «اعملوا شكرا».

﴿مِنْسَأَتَهُ﴾ يقرأ بالهمز على الأصل ، ومن لم يهمزه أبدل من الهمزة ألفا.

﴿أَنْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ أَنْ﴾ : إما بالرفع على البدل من ﴿الْجِنُ﴾ وهو بدل اشتمال ، مثل : أعجبني زيد عقله ، وإما بالنصب على تقدير حذف حرف جر ، وهي اللام.

البلاغة :

﴿غُدُوُّها شَهْرٌ وَرَواحُها شَهْرٌ﴾ أي غدوها مسيرة شهر ، ورواحها مسيرة شهر.

﴿وَجِفانٍ كَالْجَوابِ﴾ تشبيه مرسل مجمل ، لذكر أداة الشبه ، وحذف وجه الشبه.

المفردات اللغوية :

﴿وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ﴾ فيه تقدير ، أي وسخرنا لسليمان الريح. ﴿غُدُوُّها شَهْرٌ﴾ أي جريها بالغداة مسيرة شهر ، والغداة : من الصباح إلى الزوال. ﴿وَرَواحُها شَهْرٌ﴾ أي وجريها بالعشي مسيرة شهر ، والعشي : من الزوال إلى الغروب. ﴿وَأَسَلْنا﴾ أذبنا. ﴿الْقِطْرِ﴾ النحاس المذاب. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ بأمر ربه. ﴿وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنا﴾ أي ومن يعدل منهم عن طاعة سليمان بأمرنا له بطاعته. ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ السَّعِيرِ﴾ أي من عذاب النار في الآخرة ، أو الحريق في الدنيا.

﴿مَحارِيبَ﴾ هي الأبنية العالية والقصور الرفيعة الحصينة ، سميت بذلك لأنه يحارب عليها ، وقيل : المراد بالمحاريب هنا : المساجد. ﴿وَتَماثِيلَ﴾ جمع تمثال ، وهو كل شيء مجسّم صوّرته بصورة الحيوان من نحاس أو زجاج أو رخام أو غير ذلك. قيل : إن التصوير كان مباحا في شرع سليمان ، ثم نسخ ذلك في شرع نبينا محمد ﷺ. ﴿وَجِفانٍ﴾ جمع جفنة ، أي صحاف تشبه في العظم حياض الإبل ، يجتمع على القصعة الواحدة جمع كبير كألف ، يأكلون منها. ﴿كَالْجَوابِ﴾ كالحياض الكبار ، جمع جابية. ﴿وَقُدُورٍ راسِياتٍ﴾ أي ثابتات ، ولها قوائم لا تتحرك عن أماكنها ، تتخذ من الجبال باليمن ، يصعد إليها بالسلالم.

﴿اعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً﴾ أي وقلنا لهم : اعملوا يا آل داود بطاعة الله ، شكرا له على ما آتاكم. ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ﴾ العامل بطاعة الله ، المتوفر على أداء الشكر بقلبه ولسانه وجوارحه في أكثر أوقاته ، ومع ذلك لا يوفي حقه ؛ لأن توفيقه للشكر نعمة تستدعي شكرا آخر إلى ما لا نهاية.

﴿فَلَمَّا قَضَيْنا عَلَيْهِ الْمَوْتَ﴾ أي حكمنا على سليمان ، بأن مات ومكث قائما متكئا على عصاه ، وبقي الجن يعملون تلك الأعمال الشاقة على عادتها ، لا تشعر بموته ، حتى أكلت الأرضة عصاه ، فخرّ ميتا. ﴿ما دَلَّهُمْ عَلى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ﴾ أي ما دلّ الجن على موته إلا الأرضة : وهي التي تأكل

الأخشاب ونحوها ، مأخوذة من أرضيت الخشبة : أكلتها الأرضة ، ويقال : أرضيت الأرضة الخشبة أرضا. ﴿تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ﴾ عصاه ؛ لأنها ينسأ بها ، أي يطرد ويزجر بها. ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ سقط ميتا. ﴿تَبَيَّنَتِ الْجِنُ﴾ انكشف لهم. ﴿أَنْ لَوْ كانُوا أَنْ﴾ : مخففة من الثقيلة ، أي أنهم. ﴿يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ﴾ كما زعموا ، لعلموا بموته. ﴿ما لَبِثُوا فِي الْعَذابِ الْمُهِينِ﴾ ما أقاموا في الأعمال الشاقة التي كلّفوا بها ، لظنهم حياته. قيل : وقد أرادوا أن يعرفوا وقت موته ، فوضعوا الأرضة على العصا ، فأكلت يوما وليلة مقدارا ، فحسبوا ذلك ، فوجدوه قد مات منذ سنة ، وكان عمره ثلاثا وخمسين سنة ، وملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، وابتدأ عمارة بيت المقدس لأربع مضين من ملكه. وقال كما ذكر الماوردي بعد الانتهاء من بناء المسجد الأقصى : «اللهم إني أسألك لمن دخل هذا المسجد خمس خصال : لا يدخله مذنب دخل للتوبة إلا غفرت له وتبت عليه ، ولا خائف إلا أمّنته ، ولا سقيم إلا شفيته ، ولا فقير إلا أغنيته ، والخامس : ألا تصرف نظرك عمن دخله حتى يخرج منه إلا من أراد إلحادا أو ظلما ، يا ربّ العالمين».

المناسبة :

بعد بيان ما أنعم الله به على داود عليه‌السلام من النبوة والملك ، ذكر تعالى ما أنعم به على سليمان من تسخير الريح له ، حيث كانت تجري من الغداة إلى منتصف النهار مسيرة شهر ، ومن منتصف النهار إلى الليل مسيرة شهر ، وإذابة النحاس كإذابة الحديد لأبيه داود ، وتسخير الجن لبناء القصور الشامخة وصناعة الجفان الكبيرة كالأحواض ، والقدور الثابتة التي لا تتحرك لسعتها وكبرها. وهذه الأشياء الثلاثة تقابل الثلاثة في حقّ داود وهي تسخير الجبال الذي هو من جنس تسخير الريح لسليمان ، وتسخير الطير الذي هو من جنس تسخير الجن لسليمان ، وإلانة الحديد كإلانة النحاس لسليمان.

التفسير والبيان :

ذكر الله تعالى في هذه الآيات نعما ثلاثا كبري أنعم بها على سليمان عليه‌السلام وهي :

١ ـ تسخير الريح : ﴿وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ ، غُدُوُّها شَهْرٌ ، وَرَواحُها شَهْرٌ﴾

أي وسخّرنا لسليمان الريح التي كانت تحمل بساطا له غدوها (أي سيرها وقت الغداة من أول النهار إلى منتصف النهار) مسيرة شهر ، ورواحها (جريانها وقت الرواح من منتصف النهار إلى الغروب) مسيرة شهر.

قال الحسن البصري : كان يغدو على بساطه من دمشق ، فينزل بإصطخر يتغدى بها ، ويذهب رائحا من إصطخر فيبيت بكابل (في أفغانستان) وبين دمشق وإصطخر شهر كامل للمسرع ، وبين إصطخر وكابل شهر كامل للمسرع.

٢ ـ إذابة النحاس : ﴿وَأَسَلْنا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ أي وأذبنا له عين النحاس كما ألنا الحديد لداود ، فكان يصنع منه ما يشاء دون نار ولا مطرقة. وسمي عينا ، لأنه سال من معدنه سيلان الماء من الينبوع.

٣ ـ تسخير الجن : ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ، وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنا نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ السَّعِيرِ﴾ أي وسخرنا له من الجن من يعمل لديه من المحاريب وغيرها ، بأمر ربّه وقدرته وتيسيره وتسخيره إياهم لسليمان ، ومن يعدل ويخرج منهم عن طاعة سليمان نذقه عذابا أليما من الحريق في الدنيا ، أو من عذاب النار في الآخرة.

﴿يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ مِنْ مَحارِيبَ وَتَماثِيلَ ، وَجِفانٍ كَالْجَوابِ ، وَقُدُورٍ راسِياتٍ﴾ أي يعمل الجن لسليمان ما يريد من الأبنية الرفيعة والقصور العالية والمساجد والصور المجسمة المصنوعة من النحاس أو الزجاج أو الرخام ونحوها ، والصحاف أو القصاع الكبيرة التي تكفي لعدد كبير من الناس وتشبه حياض الإبل ، والقدور الثابتات في أماكنها ، لا تتحرك ولا تتحول عن مواضعها لعظمها وثقلها.

﴿اعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً ، وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ﴾ أي وقلنا : اعملوا يا آل داود بطاعة الله ، شكرا له على ما آتاكم من النعم في الدين والدنيا ، وقليل

من عبادي من يشكرني ، فيستعمل جميع جوارحه فيما خلقت له من المنافع المباحة. والشكور : هو الذي يشكر في جميع أحواله من الخير والضرّ. كما قال تعالى : ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ، وَقَلِيلٌ ما هُمْ﴾ [ص ٣٨ / ٢٤] وهذا إخبار عن الواقع.

ورد في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : «إنّ أحبّ الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود ، كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه ، وأحبّ الصيام إلى الله تعالى صيام داود ، كان يصوم يوما ، ويفطر يوما ، ولا يفرّ إذا لاقى».

وأخرج مسلم في صحيحة عن عائشة رضي الله عنها «أن رسول الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تفطّر قدماه ، فقلت له : أتصنع هذا ، وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر؟ فقال : أفلا أكون عبدا شكورا».

وأخرج الترمذي عن أبي هريرة أن النبي ﷺ صعد المنبر ، فتلا هذه الآية ، ثم قال : «ثلاث من أوتيهن فقد أوتي مثل ما أوتي آل داود ، فقلنا : ما هنّ؟ فقال : العدل في الرّضا والغضب ، والقصد في الفقر والغنى ، وخشية الله في السّرّ والعلانية».

ومع هذه النعم وعظمة سليمان عليه السلام ذكر تعالى كيفية موته وتعميته على الجن المسخرين له في الأعمال الشاقة ، فقال :

﴿فَلَمَّا قَضَيْنا عَلَيْهِ الْمَوْتَ ، ما دَلَّهُمْ عَلى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ ، فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ ما لَبِثُوا فِي الْعَذابِ الْمُهِينِ﴾ أي فلما حكمنا على سليمان بالموت وألزمناه إياه ، مات ، وهو قائم متكئ على عصاه ، ولم تعلم الجن بموته ، وبقوا يعملون خوفا منه ، ولم يدلّهم على موته إلا الأرضة التي أكلت عصاه من الداخل ، فلما سقط بعد ما وقعت عصاه ، ظهر للجن أنهم

لا يعلمون الغيب كما زعموا ، ولو صحّ ما يزعمونه من أنهم يعلمون الغيب ، لعلموا بموته وهو أمامهم ، ولم يلبثوا بعد موته مدة طويلة في العمل الشاق الذي سخرهم فيه ، ظانين أنه حيّ. أما المدة التي مكث فيها سليمان متكئا على عصاه فلم يرد خبر صحيح في شأنها ، ونترك الأمر في تقديرها لله عزّ وجلّ ، وربما يستأنس بالحديث المرفوع الذي رواه إبراهيم بن طهمان عن ابن عباس وفيه : «أن سليمان نحت عصا الخرنوبة ، فتوكأ عليها حولا لا يعلمون ، فسقطت ، فعلم الإنس أن الجنّ لا يعلمون الغيب ، فنظروا مقدار ذلك ، فوجدوه سنة» (١).

قال الرازي : وقوله : ﴿ما لَبِثُوا فِي الْعَذابِ الْمُهِينِ﴾ دليل على أن المؤمنين من الجن لم يكونوا في التسخير ؛ لأن المؤمن لا يكون في زمان النبي في العذاب المهين (٢).

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يأتي :

١ ـ امتنّ الله تعالى على سليمان عليه السلام بما أنعم عليه من النعم الجليلة أهمها ثلاث : تسخير الريح ، وإذابة النحاس ، وتسخير الجنّ للعمل بأمره.

أما تسخير الريح فكانت تحمل بساطه تنقله من مكان إلى آخر ، فتقطع مسافة في نصف يوم تقدر بمسيرة شهر للمسافر العادي ، وهذا معنى : ﴿غُدُوُّها شَهْرٌ وَرَواحُها شَهْرٌ﴾.

٢ ـ والنعمة الثانية هي إذابة النحاس في يده.

---

(١) تفسير القرطبي : ١٤ / ٢٧٩

(٢) تفسير الرازي : ٢٥ / ٢٥٠

قال القرطبي : والظاهر أنه جعل النحاس لسليمان في معدنه عينا تسيل كعيون المياه ، دلالة على نبوته [١].

٣ . والنعمة الثالثة هي تسخير الجنّ له شغلة عملة لمختلف الحرف والصناعات الثقيلة ، من المساجد والقصور الشامخة ، والقصاع الكبيرة كحياض الإبل وقدور النحاس الثوابت التي لا تحرك لعظمها. والتماثيل : وهي كل ما صوّر على مثل صورة من حيوان أو غيره. ذكر أنها صور الأنبياء والعلماء ، وكانت تصور في المساجد ليراها الناس ، فيزدادوا عبادة واجتهادا ، قال ﷺ : «إن أولئك كان إذا مات فيهم الرجل الصالح ، بنوا على قبره مسجدا ، وصوروا فيه تلك الصّور» أي ليتذكروا عبادتهم ، فيجتهدوا في العبادة.

والآية صريحة في أن نبي الله سليمان عليه‌السلام كان يتخذ التماثيل. وهذا يدلّ على أن التصوير كان مباحا في ذلك الزمان ، ونسخ جوازه بشرع محمد ﷺ. وعلة النسخ سد الذّرائع ومحاربة ما كانت العرب تفعله من عبادة الأوثان والأصنام ، كما أن التعظيم لا يكون لغير الله تعالى.

ذكر ابن العربي خمسة أحاديث في منع التصوير ، منها ما رواه مسلم عن أبي طلحة عن النبي ﷺ : «لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا صورة» زاد زيد بن خالد الجهني : «إلا ما كان رقما في ثوب» ثم ثبتت كراهية الرّقم أيضا ونسخه المنع منه في أحاديث أخرى ، فاستقرّ الأمر فيه على المنع كما ذكر القرطبي ، ومنها : ما رواه البخاري ومسلم عن ابن مسعود وابن عباس : «أشدّ الناس عذابا يوم القيامة المصوّرون» ومنها ما رواه مسلم عن عائشة قالت : كان لنا ستر فيه تمثال طائر ، وكان الداخل إذا دخل استقبله ، فقال رسول الله ﷺ : «حوّلي هذا ، فإني كلما دخلت ، فرأيته ذكرت الدنيا» وعنها

---

(١) تفسير القرطبي : ١٤ / ٢٧٠

قالت : دخل عليّ رسول الله ﷺ وأنا مستترة بقرام (١) فيه صورة ، فتلوّن وجهه ، ثم تناول السّتر فهتكه ، ثم قال : «إنّ من أشدّ الناس عذابا يوم القيامة الذين يشبّهون بخلق الله عزّ وجلّ ».

هذا ما يراه ابن العربي والقرطبي (٢) في أن المنع من التصوير عام ، ثم استثنيت منه أشياء ، مثل لعب البنات ، بالحديث الذي رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها . واستبعد جماعة من العلماء هذا الاتجاه ؛ لأن النسخ يشترط فيه العلم بالتاريخ ، والأولى في الجمع بين الأحاديث : أن يقال : تحمل النصوص التي فيها الحظر بإطلاق على ما كان منها مجسدا لذي روح ، بدليل حديث «أشدّ الناس عذابا يوم القيامة الذين يشبهون خلق الله» ومن طريق آخر : «يقال لهم : أحيوا ما خلقتم» فيكون المنع متجها إلى صور الأجسام ذات الروح إذا كانت على حالة بحيث يمكن أن يقال : إن صاحبها يضاهي بها خلق الله ، وذلك إذا كانت كاملة الخلق ، بحيث لا ينقصها إلا نفخ الروح.

وأما حديث الأمر بتحويل السّتر الذي فيه تمثال طائر ، فلاستقبال المارة له ، مما يشعر بتعظيمه ، فإذا وضع للاستعمال فلا بأس.

أما تصوير الجمادات ، كالجبال والأنهار ، والأشجار ونحوها ، فليست مما يتناولها النص بإشارة : «يشبّهون خلق الله» وبإشارة «يقال لهم : أحيوا ما خلقتم».

وكذلك كل ما وضع في حالة لا تشعر بالتعظيم كالاستعمال في الأرض لا يكون ممنوعا.

---

(١) القرام : السّتر الرقيق.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي : ٤ / ١٥٨٩ ـ ١٥٩٠ ، تفسير القرطبي : ١٤ / ٢٧٢ ـ ٢٧٤

هذا وقد ذكر ابن حجر في فتح الباري شرح البخاري آراء العلماء في اتخاذ الصور ، نقلا عن ابن العربي ، وهي أن اتخاذ الصور ذات الأجسام أو ذات الظل لكل ما فيه روح من إنسان أو حيوان حرام بالإجماع إلا لعب البنات. أما الرّقم على الثياب ففيه أربعة أقوال :

الأول ـ يجوز مطلقا ، عملا بحديث : «إلا رقما في ثوب».

الثاني ـ المنع مطلقا.

الثالث ـ إن كانت الصورة باقية الهيئة ، قائمة الشكل ، حرم ، وإن كانت مقطوعة الرأس أو تفرقت الأجزاء ، جاز ، قال : وهذا هو الأصح.

الرابع ـ إن كانت مما يمتهن جاز ، وإلا لم يجز.

وأجاز جمهور العلماء من الصحابة والتابعين وأئمة المذاهب اتخاذ الصور إذا كانت مما يوطأ ويداس أو يمتهن بالاستعمال كالمخاد والوسائد.

أما التصوير الشمسي أو الفوتوغرافي فحكمه حكم الرقم في الثوب ، وهذا مستثنى بالنّص ، بل إن هذا في الحقيقة ليس تصويرا بالمعنى الذي جاءت به الأحاديث بل حبس للصورة أو الظل ، فيكون مثل الصورة في المرآة أو الماء ، وليس فيه محاكاة صنع الخالق أو تشبيه خلق الله تعالى.

٤ ـ أمر الله آل داود بشكره ، وأخبر أن الشاكرين من عبادة قلة قليلة ، مما يدل على وجوب شكر الله تعالى على ما أنعم على الإنسان ، وحقيقة الشكر : الاعتراف بالنعمة للمنعم ، واستعمالها في طاعته ، والكفران استعمالها في المعصية.

وظاهر القرآن والسّنّة : أن الشكر بعمل الأبدان دون الاقتصار على عمل اللسان ، فالشكر بالأفعال عمل الأركان ، والشكر بالأقوال عمل اللسان.

٥ ـ ليس لأحد من الملائكة والجنّ والأنبياء والناس ادعاء العلم بالغيب ، وإنما ذلك مختص بالله تعالى ، كما قال : ﴿عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً ، إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ﴾ [الجن ٧٢ / ٢٦ ـ ٢٧].

وفي قصة موت سليمان متكئا على عصاه ، دون أن تعلم الجن بموته ، بدليل استمرارهم بما كلّفوا به من الأعمال الشاقة : مثل واقعي فذّ لجهلهم بالغيب ، فإنه ظلّ مدة متكئا على عصاه ، ثم سقط بسقوط العصا التي تآكلت بفعل الأرضة ، وحينئذ علموا أنه ميّت.

قصة سبأ وسيل العرم

﴿لَقَدْ كانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْناهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَواتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِما كَفَرُوا وَهَلْ نُجازِي إِلاَّ الْكَفُورَ (١٧) وَجَعَلْنا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بارَكْنا فِيها قُرىً ظاهِرَةً وَقَدَّرْنا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيها لَيالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ (١٨) فَقالُوا رَبَّنا باعِدْ بَيْنَ أَسْفارِنا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ وَمَزَّقْناهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩) وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَما كانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْها فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٢١)﴾

الإعراب :

﴿لِسَبَإٍ﴾ من قرأ بالتنوين جعله منصرفا ، وقال : هو اسم بلد أو حي ، وليس فيه تأنيث ، ومن لم ينونه ، جعله غير منصرف للتعريف (العلمية) والتأنيث ، وقال : هو اسم بلدة أو قبيلة. ﴿فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ من قرأ بالإفراد ففيه لغتان بفتح الكاف وكسرها ، والفتح على القياس ؛ لأن مضارعه «يسكن». والكسر على خلاف القياس ، مثل : مطلع ومغرب ومسجد ومسقط ومنبت ومجزر. ومن قرأ بالجمع جعله جمع مسكن.

﴿جَنَّتانِ﴾ إما بدل من قوله ﴿آيَةٌ﴾ أو خبر مبتدأ محذوف ، أي هي جنتان ، أو مبتدأ على تقدير : هنا جنتان ، أو هناك جنتان.

﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ خبر مبتدأ أي هذه بلدة طيبة ، وكذلك : ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ أي وهذا رب غفور.

﴿لَيالِيَ وَأَيَّاماً﴾ منصوبان على الظرف. والليالي جمع (ليلة) على خلاف القياس. وأيام جمع يوم.

﴿آمِنِينَ﴾ حال.

﴿أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ من قرأ بالتنوين جعل (الخمط) عطف بيان على (الأكل) ولا يجوز أن يكون صفة ؛ لأنه اسم شجرة بعينها ، ولا بدلا ؛ لأنه ليس هو الأول ولا بعضه. ومن لم ينون أضاف (الأكل) إلى الخمط ؛ لأن الأكل هو الثمرة ، والخمط هو الشجرة ، فأضاف الثمرة إلى الشجرة ، مثل تمر نخل ، وعنب كرم.

﴿ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِما كَفَرُوا ذلِكَ﴾ : في موضع نصب لأنه مفعول ثان ل ﴿جَزَيْناهُمْ﴾ والمفعول الأول : الهاء والميم ، وما : مصدرية أي بكفرهم.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ من قرأ صدق بالتخفيف ، كان ﴿ظَنَّهُ﴾ إما منصوب انتصاب الظرف ، أي في ظنه ، وإما منصوب انتصاب المفعول به على الاتساع ، وإما منصوب على المصدر. ومن قرأ بالتخفيف ونصب إبليس ورفع ظنه ، جعل الظن فاعلا وإبليس مفعولا. ومن قرأ بالتشديد نصب ﴿ظَنَّهُ﴾ لأنه مفعول ﴿صَدَّقَ﴾.

البلاغة :

﴿يَمِينٍ وَشِمالٍ﴾ بينهما طباق.

﴿وَقَدَّرْنا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا﴾ بين الكلمتين الأخيرتين جناس اشتقاق.

﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ صيغة مبالغة على وزن فعّال وفعول.

﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ و ﴿إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ بينهما ما يسمى بمراعاة الفواصل ، من أنواع الجمال في اللفظ.

المفردات اللغوية :

﴿لِسَبَإٍ﴾ اسم قبيلة من قبائل العرب العاربة في بلاد اليمن ، وتعد أصلا تفرع منها عدة فروع في جزيرة العرب. وقد سميت باسم جدّ لهم من العرب : هو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. ﴿فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ موضع السكنى وهو مأرب في بلاد اليمن بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام. ﴿آيَةٌ﴾ علامة دالة على وجود الله ووحدانيته وقدرته على إيجاد أمور عجيبة. ﴿جَنَّتانِ﴾ بستانان. ﴿عَنْ يَمِينٍ وَشِمالٍ﴾ عن يمين واديهم وشماله. ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ﴾ أي قيل لهم ذلك ، والرزق : ثمار الجنتين. ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ على ما رزقكم من هذه النعم في أرض سبأ ، واعملوا بطاعته ، واجتنبوا معاصيه. ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ استئناف للدلالة على موجب الشكر ، أي هذه البلدة التي فيها رزقكم بلدة طيبة ، وربكم الذي رزقكم وطلب شكركم رب غفور. وكون البلد طيبة : أنه ليس فيها سباخ ولا بعوضة ولا ذبابة ولا برغوث ولا عقرب ولا حية ؛ لطيب هوائها.

﴿فَأَعْرَضُوا﴾ انصرفوا عن شكر هذه النعم وكفروا بالله. ﴿فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ أي دمّره الله ، وفتق عليهم سد مأرب حتى انتقض ، فدخل الماء بساتينهم فغرقها ، ودفن السيل بيوتهم ، فهذا هو سيل العرم. والعرم : جمع عرمة : وهي الحجارة المركومة والمباني القائمة ، وسيل العرم : هو السيل الذي لا يطاق لقوته وشدّته. ﴿أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ مرّ ، والأكل بمعنى المأكول : الثمر ، والخمط : كل شجرة مرّة ذات شوك وليس له ثمر. ﴿وَأَثْلٍ﴾ هو الشجر المعروف الشبيه بالطرفاء ، ولا ثمر له. ﴿سِدْرٍ﴾ شجر النبق له ثمر يؤكل. أهلك الله أشجارهم المثمرة ، وأنبت بدلها الأراك والطرفاء والسدر ، ووصف السدر بالقلة ؛ لأن ثمره مما يطيب أكله.

﴿ذٰلِكَ﴾ التبديل. ﴿جَزَيْناهُمْ بِما كَفَرُوا﴾ أي بكفرانهم النعمة ، أو بكفرهم بالرسل ، إذ بعث إليهم ثلاثة عشر نبيا فكذبوهم. ﴿وَهَلْ نُجازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ أي لا نجازي بمثل ما فعلنا بهم إلا البليغ في كفران النعم أو الكفر بالرسل. وقرئ : يجازي.

﴿وَجَعَلْنا بَيْنَهُمْ﴾ سبأ باليمن. ﴿وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بارَكْنا فِيها﴾ بالماء والشجر وهي قرى الشام التي يسيرون إليها للتجارة. ﴿قُرىً ظاهِرَةً﴾ مرتفعة على الآكام ، متواصلة من اليمن إلى الشام ، وكانوا يبيتون بقرية ويقيلون بأخرى حتى يرجعوا. ﴿وَقَدَّرْنا فِيهَا السَّيْرَ﴾ أي كانت القرى على مقادير للمسافر ، بحيث يكون المقيل في قرية ، والمبيت في أخرى ، إلى انتهاء سفرهم ووصولهم إلى الشام ، دون أن يحتاجوا في الطريق إلى حمل زاد وماء. ﴿سِيرُوا فِيها﴾ أي وقلنا :

سيروا فيها. ﴿لَيالِيَ وَأَيَّاماً﴾ متى شئتم من ليل أو نهار. ﴿آمِنِينَ﴾ لا تخافون في ليل ولا في نهار.

﴿فَقالُوا : رَبَّنا باعِدْ﴾ وفي قراءة : بعّد. ﴿بَيْنَ أَسْفارِنا﴾ إلى الشام ؛ فإنهم بطروا النعمة كبني إسرائيل ، فسألوا الله أن يجعل بينهم وبين الشام مفاوز ليتطاولوا فيها على الفقراء بركوب الرواحل وحمل الزاد. ﴿وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بالكفر وبطر النعمة. ﴿فَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ﴾ لمن بعدهم في ذلك ، جمع أحدوثة : وهي ما يتحدث به على سبيل التلهي والاستغراب ، فإن الله أجابهم بتخريب القرى المتوسطة. ﴿وَمَزَّقْناهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ فرقناهم في البلاد غاية التفريق. ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ﴾ المذكور. ﴿لَآياتٍ﴾ عبرا ودلالات واضحات. ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ كثير الصبر عن المعاصي وعلى الطاعات. ﴿شَكُورٍ﴾ كثير الشكر على النعم.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ أي صدق إبليس على الكفار ومنهم سبأ ظنه ، والمعنى : ظن بهم أنه إذا أغواهم اتبعوه. ﴿فَاتَّبَعُوهُ﴾ أي فصدق في ظنه ، أو صدّق ظنه بأن وجده صادقا. ﴿إِلَّا فَرِيقاً﴾ بمعنى لكن. ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لكن فريقا هم المؤمنون لم يتبعوه ، و ﴿مِنَ﴾ : للبيان.

﴿وَما كانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطانٍ﴾ أي لم يكن له على المتبعين تسلط واستيلاء بوسوسة واستغواء. ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ علم ظهور وانكشاف. ﴿مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْها فِي شَكٍّ﴾ أي لنتعرف ونتميز المؤمن بالآخرة من الشاك. ﴿وَرَبُّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ محافظ رقيب.

سبب النزول :

أخرج ابن أبي حاتم أن فروة بن مسيك الغطفاني رضي الله عنه قدم على رسول الله ﷺ ، فقال : يا نبي الله ، إن سبأ قوم كان لهم في الجاهلية عز ، وإني أخشى أن يرتدوا عن الإسلام ، أفأقاتلهم؟ فقال : ما أمرت فيهم بشيء بعد ، فأنزلت هذه الآية : ﴿لَقَدْ كانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ الآيات.

المناسبة :

بعد بيان حال الشاكرين لنعم الله المنيبين إليه ، وهم داود وسليمان عليهما السلام ، بيّن الله تعالى حال الكافرين بأنعمه ، بحكاية قصة أهل سبأ ، تحذيرا لقريش ، ووعيدا لكل من يكفر بنعم الله تعالى.

اضواء على سبأ وسد مأرب :

كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها ، وكانت التبابعة منهم ، وبلقيس صاحبة سليمان عليه السلام من جملتهم ، وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم وعيشهم واتساع أرزاقهم وثمارهم ، وبعث الله تبارك وتعالى إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ، ويشكروه بتوحيده وعبادته ، فكانوا كذلك ما شاء الله تعالى ، ثم أعرضوا عما أمروا به ، فعوقبوا بإرسال سيل العرم ، والتفرق في البلاد (١).

روى الإمام أحمد وابن أبي حاتم وابن جرير والترمذي عن ابن عباس يقول : إن رجلا سأل رسول الله ﷺ عن سبأ ما هو ، أرجل أم امرأة أم أرض؟ قال ﷺ : «بل هو رجل ، ولد له عشرة ، فسكن اليمن منهم ستة ، والشام منهم أربعة ، فأما اليمانيون : فمذحج ، وكندة ، والأزد ، والأشعريون ، وأنمار ، وحمير ، وأما الشامية : فلخم ، وجذام ، وعاملة ، وغسّان» وإسناده حسن.

قال علماء النسب كمحمد بن إسحاق : اسم سبأ : عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وإنما سمي سبأ ؛ لأنه أول من سبأ ـ أي تفرق ـ في العرب ، وكان يقال له : الرائش ؛ لأنه أول من غنم في الغزو ، فأعطى قومه ، فسمي الرائش ، والعرب تسمي المال ريشا ورياشا.

وأرض سبأ : طيبة الثمار والهواء ، كثيرة الخيرات والبركات ، أنعم الله على أهلها بنعم كثيرة ليوحدوه ويعبدوه. والسابئيون : قوم سكنوا اليمن ، وأقاموا المدن العظام ذات الحصون والقلاع والقصور الشامخة.

واختلفوا في قحطان على ثلاثة أقوال : أحدها ـ أنه من سلالة إرم بن سام بن نوح ، والثاني ـ أنه من سلالة عابر وهو هود عليه السلام ، والثالث ـ أنه من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل على نبينا وعليهما الصلاة والسلام.

---

(١) تفسير ابن كثير : ٣ / ٥٣٠

وأما سد مأرب : فكأن الماء يأتيهم من بين جبلين ، وتجتمع إليه أيضا سيول أمطارهم وأوديتهم ، فعمد ملوكهم الأقادم ، فبنوا بينهما سدا عظيما محكما ، حتى ارتفع الماء ، وبلغ حافة الجبلين ، فغرسوا الأشجار ، واستغلوا الثمار.

وكان هذا السد بمأرب : بلدة بينها وبين صنعاء ثلاث مراحل ، ويعرف بسد مأرب. وقد جدد بناؤه عام ١٩٨٧ م.

التفسير والبيان :

﴿لَقَدْ كانَ لِسَبَإٍ [١] فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمالٍ ، كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ ، وَاشْكُرُوا لَهُ ، بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ كان لقبيلة سبأ باليمن التي كان منها ملوك اليمن في مسكنهم : مأرب آية هي بستانان عن يمين واديهم وشماله ، وكانت مساكنهم في الوادي ، وفي البستانين جميع الثمار ، فقيل لهم : كلوا من رزق ربكم ، أي من ثمار الجنتين ، والقائل لهم نبيهم ، أو القول بلسان الحال أو الدلالة ؛ لأنهم كانوا أحقاء بأن يقال لهم ذلك. وقيل لهم أيضا : واشكروا ربكم على ما رزقكم من هذه النعم ، ووحدوه واعبدوه ، واعتدال هوائها ، وصحة مناخها ، والله المنعم عليكم بهذه النعم رب غفور لذنوبكم إن استمررتم على التوحيد والطاعة.

﴿فَأَعْرَضُوا ، فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ، وَبَدَّلْناهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَواتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ ، وَأَثْلٍ ، وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ أي فأعرضوا عن توحيد الله ، وعبادته وطاعته ، وشكره على ما أنعم به عليهم ، وعدلوا إلى عبادة الشمس من دون الله ، كما حكى القرآن عن قول الهدهد لسليمان عليه‌السلام : ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ، إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ، وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَلَها عَرْشٌ

---

(١) منصرف على أنه اسم حي ، وهو في الأصل اسم رجل ، كما تقدم بيانه.

عَظِيمٌ ، وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ، فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ، فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل ٢٧ / ٢٢ ـ ٢٤].

فأرسل الله عليهم سيل العرم ، أي المياه الكثيرة الغزيرة ، بأن تحطم سد مأرب ، فملأ الماء الوادي ، وغرّق البساتين الخضراء ثم يبست ، ودفن البيوت ، ولم يبق منهم إلا شراذم قليلة تفرقت في البلاد ، وأعطوا بدل تلك الجنان والبساتين المثمرة الأنيقة النضرة بساتين لا خير فيها ولا فائدة منها ، وإنما أشجار ذات ثمر مرّ هي الأراك ، وأثل هو الطرفاء ، والسدر ذي الشوك الكثير والثمر القليل ، وهو شجر النبق.

قال القشيري : وأشجار البوادي لا تسمى جنة وبستانا ، ولكن لما وقعت الثانية في مقابلة الأولى أطلق لفظ الجنة ، وهو كقوله تعالى : ﴿**وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها**﴾ [الشورى ٤٢ / ٤٠].

وسبب هذا العقاب كما قال تعالى :

﴿**ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِما كَفَرُوا ، وَهَلْ نُجازِي إِلَّا الْكَفُورَ**﴾ أي إن ذلك التبديل من الثمار النضيجة والمناظر الحسنة والظلال الوارفة والأنهار الجارية إلى أشجار ذات أشواك وثمار مرة ، كان بسبب كفرهم وشركهم بالله ، وتكذيبهم الحق ، وعدولهم عنه إلى الباطل ، لقد عاقبناهم بكفرهم ، ولا يعاقب الله إلا المبالغ في كفران النعم ، والكفر بالرسل.

وبعد تعداد نعم الله على السابئيين في مساكنهم ، ذكر تعالى باقة أخرى من النعم أثناء تنقلهم في البلاد ، ومتاجرتهم مع بلاد الشام ، فقال :

﴿**وَجَعَلْنا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بارَكْنا فِيها قُرىً ظاهِرَةً**﴾ أي وجعلنا بين قراهم وقرى الشام التي باركنا فيها بالمياه والأشجار والخيرات الكثيرة قرى مرتفعة

معروفة ، متواصلة ، متقارب بعضها من بعض ، مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها ، بحيث إن مسافرهم لا يحتاج إلى حمل ماء ولا زاد ، بل حيث نزل وجد ماء وثمرا ، وهي قرى ظاهرة ، أي بينة واضحة يعرفها المسافرون ، لبنائها على هضاب عالية.

﴿وَقَدَّرْنا فِيهَا السَّيْرَ﴾ أي جعلناها محطات متعاقبة ذات مقادير متناسبة بحسب ما يحتاج المسافرون إليه ، فيقيلون في بلد ، ويبيتون في آخر ، إلى أن يصلوا إلى الشام.

﴿سِيرُوا فِيها لَيالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ﴾ أي وقيل لهم بلسان المقال أو الحال : سيروا في تلك القرى ليالي وأياما آمنين مما تخافون في السير ليلا ونهارا ، لا تخشون جوعا ولا عطشا ولا عدوا يهددكم.

ثم بطروا تلك النعمة ، فقال تعالى :

﴿فَقالُوا : رَبَّنا باعِدْ بَيْنَ أَسْفارِنا ، وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي سئموا النعمة ، فتمنوا طول الأسفار والتباعد بين الديار ، وقالوا : ربنا اجعل بيننا وبين البلاد التي نسافر إليها مفاوز وقفارا ، ليركبوا فيها الرواحل ، والتزود بالزاد والماء ، إظهارا للتمايز الطبقي والتكبر والتفاخر على الفقراء والعاجزين ، كما طلب بنو إسرائيل من موسى أن يخرج الله لهم مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها ، مع أنهم كانوا في عيش رغيد بالمن والسلوى وما يشتهون من مآكل ومشارب وملابس ، كما طلبوا أن يفصل بين القرى بمفاوز وقفار لأغراض حربية ، وهذا غاية الانتكاس على الفطرة ، والإمعان في تدمير مظاهر الحضارة والتمدن والحياة الهانئة ، لذا وصفهم الله بأنهم ظلموا أنفسهم إذ عرضوها للسخط والعذاب ، وعاقبهم الله على بطرهم النعمة وكفرهم بالله ، فقال :

﴿فَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ وَمَزَّقْناهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي جعلناهم عبرة لمن يعتبر ،

وحديثا للناس يسمرون به في مجالسهم ، وفرقنا شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنيء ، وفرقناهم في البلاد كل تفريق ، فصارت العرب تضرب بهم المثل ، فتقول : «تفرق القوم أيدي سبأ» وأيادي سبأ ، أي مذاهب سبأ وطرقها ، فنزلت الأوس والخزرج بيثرب ، وغسان آل جفنة بن عمرو بالشام ، والأزد بعمان والسّراة ، وخزاعة بتهامة ، فمزقهم الله كل ممزق ، وهدم السيل بلادهم.

﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي إن في هذا الذي حلّ بهؤلاء من النقمة والعذاب ، وتبديل النعمة ، وتحويل العافية ، عقوبة على ما ارتكبوه من الكفر والآثام ، لعبرة ودلالة لكل عبد صبار على المصائب ، شكور على النعم.

وفي هذا إشادة بالصبر ، روى الإمام أحمد عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «عجبت من قضاء الله تعالى للمؤمن : إن أصابه خير حمد ربه وشكر ، وإن أصابته مصيبة حمد ربه وصبر ، يؤجر المؤمن في كل شيء حتى اللقمة يرفعها إلى في امرأته». وروي في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه : «عجبا للمؤمن ، لا يقضي الله تعالى له قضاء إلا كان خيرا له ، إن أصابته سرّاء شكر ، فكان خيرا له ، وإن أصابته ضرّاء صبر ، فكان خيرا له ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن».

وكان مطرّف بن الشّخير يقول : نعم العبد الصبار الشكور الذي إذا أعطي شكر ، وإذا ابتلي صبر.

وبعد بيان قصة سبأ وما كان من أمرهم في اتباع الهوى والشيطان ، أخبر تعالى بأنهم وأمثالهم هم ممن اتبع إبليس والهوى ، وخالفوا الرشاد والهدى ، فقال : فقال :

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ظن إبليس بهؤلاء السابئيين أنه إذا أغواهم اتبعوه ، فكان كما ظن بوسوسته ، فانقادوا لإغوائه وعصوا ربهم وعبدوا الشمس من دون الله ، إلا فريقا مؤمنا منهم قاوموا وسوسة الشيطان وعصوا أمره ، وثبتوا على طاعة الله تعالى.

﴿وَما كانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْها فِي شَكٍّ ، وَرَبُّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ أي لم يكن لإبليس على هؤلاء القوم من حجة وبرهان لإضلالهم ، ولم يقهرهم على الكفر ، وإنما كان منه الوسوسة والتزيين ، قال الحسن البصري : والله ما ضربهم بعصا ولا أكرههم على شيء ، وما كان إلا غرورا وأماني دعاهم إليها ، فأجابوه.

ولكن ابتليناهم بوسوسته وسلطانه عليهم لنعلم علم ظهور. وإلا فالله بكل شيء عليم. أمر من يؤمن بالآخرة وقيامها ، والحساب فيها ، والجزاء بالثواب والعقاب ، ممن هو منها في شك ، فلا يؤمن بحدوثها ولا بما اشتملت عليه من ثواب وعقاب. وربك أيها الرسول محافظ ورقيب على كل شيء ، ومنه أعمال هؤلاء الكفار ، وسيجازيهم عليها يوم الآخرة.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ لقد كان لقبيلة سبأ باليمن بساتين خضراء ومناظر رائعة حسناء ، وخيرات وفيرة عن يمين واديهم التي يسكنون فيها وعن شمالهم في مأرب ، وتلك علامة دالة على قدرة الله تعالى على أن لهم خالقا خلقهم ، وأن كل الخلائق لو اجتمعوا على أن يخرجوا من الخشبة ثمرة ، لم يمكنهم ذلك ، ولم يهتدوا إلى اختلاف أجناس الثمار وألوانها وطعومها وروائحها وأزهارها ، وفي ذلك ما يدل على أنها لا تكون إلا من عالم قادر.

٢ ـ كان جديرا بهم أن يشكروا نعم الله وما رزقهم بالطاعة ، فضلا عن أن الرسل قالت لهم ذلك ، فهذه أي مأرب بلدة طيبة ، أي كثيرة الثمار ، معتدلة المناخ ، لطيفة الهواء ، بعيدة عن المؤذيات ، والمنعم بهذه النعم عليهم ربّ غفور يستر ذنوبهم ، فجمع الله تعالى لهم بين مغفرة ذنوبهم وطيب بلدهم ، ولم يجمع ذلك لجميع خلقه.

٣ ـ لقد خيبوا ما يظن بهم ، فأعرضوا عن أمر ربهم واتباع رسله بعد أن كانوا مسلمين ، فأرسل عليهم سيل العرم ، أي نقض سدّ مأرب ، فتدفقت المياه المدرارة الغزيرة ، فغرّقت بساتينهم ، ودفنت بيوتهم ، فيبست الأشجار المثمرة ، ونبت مكانها أشجار مرّة لا خير فيها من الخمط أي الأراك ، والأثل : وهو كما قال الفراء : شجر شبيه بالطرفاء إلا أنه أعظم منه طولا ، والسّدر وهو نوعان : نوع له ثمر عفص لا يؤكل ، وهو الذي يسمى الضّال ، ونوع ينبت على الماء وثمره النّبق ، وورقه يشبه شجر العنّاب.

قال قتادة : بينما شجر القوم من خير شجر إذ صيّره الله تعالى من شرّ الشجر بأعمالهم ، فأهلك أشجارهم المثمرة ، وأثبت بدلها الأراك والطّرفاء والسّدر.

٤ ـ هذا التبديل من النعمة إلى النقمة جزاء كفرهم ، ولا يعاقب بهذا إلا المبالغ في كفران النعمة والكفر بالله تعالى.

وتساءل الزمخشري والقرطبي : لم خص الله تعالى المجازاة بالكفور ، ولم يذكر أصحاب المعاصي؟ والجواب أن المراد : هو الجزاء الخاص وهو العقاب بالاستئصال والإهلاك ، وليس المراد : الجزاء العام الذي يشمل الكافر والمؤمن. هذا في الدنيا ، وأما في الآخرة فقالت عائشة رضي الله عنها : سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : «من حوسب هلك [1] ، فقلت : يا نبي الله ، فأين قوله جلّ وعزّ : ﴿فَسَوْفَ يُحاسَبُ حِساباً يَسِيراً﴾ قال : إنما ذلك العرض ، ومن نوقش الحساب

---

(١) ورواه الترمذي عن أنس : «من حوسب عذب».

هلك» والمعنى : أن الكافر يكافأ على أعماله ويحاسب عليها ويحبط ما عمل من خير.

٥ ـ ومن النعم على أهل سبأ جعل طرقاتهم وممراتهم التجارية بين اليمن والشام مأهولة ، لا تحتاج إلى حمل ماء وزاد ، فقد جعل لهم محطات يستريحون فيها بالقيلولة والمبيت هي القرى الكثيرة على طول الطريق إلى الشام ، قيل : إنها كانت أربعة آلاف وسبع مائة قرية بورك فيها بالشجر والثمر والماء. والمسافات بين تلك القرى منتظمة ، إذ جعل بين كل قريتين نصف يوم ، حتى يكون المقيل في قرية والمبيت في قرية أخرى.

كما أن تلك الطرقات كانت آمنة غير مخوفة ليلا ونهارا ، ولا يحتاجون إلى طول السفر ، لوجود ما يحتاجون إليه. قال قتادة : كانوا يسيرون غير خائفين ولا جياع ولا ظماء ، وكانوا يسيرون مسيرة أربعة أشهر في أمان ، لا يحرّك بعضهم بعضا ، ولو لقي الرجل قاتل أبيه لا يحرّكه ، فلم يشكروا النعمة ، بل طلبوا التعب والكدّ.

٦ ـ بطروا النعمة أيضا ، وطغوا ، وسئموا الراحة ، ولم يصبروا على العافية ، فتمنوا طول الأسفار والكدح في المعيشة ، فتبددوا في الدنيا ، وتفرقوا في البلاد كل تفرق ، وجعل بينهم وبين الشام فلوات ومفاوز يركبون فيها الرواحل ، ويتزودون الأزواد ، وظلموا أنفسهم بكفرهم ، وأصبحوا مدار القصص والتحدث بأخبارهم ، وعبرة للمعتبر.

٧ ـ إن في هذا التبديل والتدمير وتغير نمط الحياة من رفاه ونعومة إلى تعب وكدّ وشظف وخشونة لعبرة ودلالة لكل صبار يصبر عن المعاصي ، شكور لنعم الله تعالى.

٨ ـ كانوا في كفرانهم النعم ، وجحودهم وجود الله وعبادتهم الشمس ،

وإعراضهم عن طاعة الرسل ، واتباعهم أهواءهم ، كما توقع إبليس الذي سوّل له ظنه فيهم شيئا ، فصدق ظنه أنه يغويهم ، فأغواهم فاتبعوه ، إلا قوما منهم أطاعوا الله تعالى ، وآمنوا برسلهم.

٩ . لا سلطان لإبليس على قلوب الناس ، ولا حجة يضلهم بها ، ولا قدرة له على قهرهم على الكفر ، وإنما كان منه الدعاء والتزيين والوسواس ، وكان منهم أنهم اتبعوه بشهوة وتقليد ، وهوى نفس ، لا عن حجة ودليل ، وكان هو مجرد آية وعلامة خلقها الله لتبيين ما هو في علمه السابق.

وتوضيح ذلك : لقد سلطه الله على الناس ، كما يسلط الذباب على العيون القذرة ، والأوبئة على من أهمل النظافة ، فتكون الفريسة من لا قدرة له على المقاومة ، وينجو الأقوياء الأصحاء المجاهدون.

وهو تسليط قصد به الابتلاء والاختبار ، وإظهار الواقع ، مع أن الله يعلم بكل شيء ، وتكون النتيجة ظهور أمر المؤمن بالله وبالآخرة ، وتمييزه عن الشاك بوجود الله وبالقيامة ، وتنصب في النهاية أعمال العباد في الحافظة الإلهية ، فهو سبحانه يحفظ كل شيء على العبد حتى يجازيه عليه.

إبطال شفاعة آلهة المشركين

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقالَ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَما لَهُمْ فِيهِما مِنْ شِرْكٍ وَما لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (٢٢) وَلا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ عِنْدَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قالُوا ما ذا قالَ رَبُّكُمْ قالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣)﴾

الإعراب :

﴿ما ذا قالَ رَبُّكُمْ ما﴾ في موضع نصب ب ﴿قالَ﴾ وذا : زائدة.

﴿قالُوا الْحَقَ الْحَقَ﴾ : منصوب ب ﴿قالُوا﴾ أيضا ، ليكون الجواب على وفق السؤال.

البلاغة :

﴿قُلِ : ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ تعجيز بدعاء الجماد الذي لا يسمع.

المفردات اللغوية :

﴿قُلِ﴾ أيها الرسول للمشركين في مكة وغيرها ، وهو أمر للنبي ﷺ بأن يقول لكفار قريش : هؤلاء الأصنام الذين زعمتموهم آلهة من دون الله ، ادعوهم ليكشفوا عنكم الضرّ الذي نزل بكم في سنين الجوع. ﴿ادْعُوا﴾ نادوا. ﴿زَعَمْتُمْ﴾ زعمتموهم آلهة. ﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾ غيره ، لينفعوكم بزعمكم. ثم أجاب تعالى عنهم إشعارا بتعين الجواب دون مكابرة : وهو ﴿لا يَمْلِكُونَ مِثْقالَ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ﴾ أي لا يملكون وزن ذرة من خير أو شر.

﴿وَما لَهُمْ فِيهِما مِنْ شِرْكٍ﴾ أي ليس لتلك الآلهة المزعومة من شركة ، لا خلقا ولا ملكا. ﴿وَما لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ أي ليس له تعالى من الآلهة من معين يعينه على تدبير أمرهما. ﴿وَلا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ عِنْدَهُ﴾ تعالى ، فلا تنفعهم شفاعة آلهتهم كما يزعمون ، وهو رد لقولهم : إن آلهتهم تشفع عنده. ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ أذن له أن يشفع. ﴿فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ كشف عنها الفزع بالإذن فيها ، والفزع : انقباض بسبب الخوف. ﴿قالُوا﴾ قال بعضهم لبعض استبشارا ﴿ما ذا قالَ رَبُّكُمْ﴾؟ في الشفاعة. ﴿قالُوا : الْحَقَ﴾ قالوا : قال القول الحق ، وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى ، وهم المؤمنون. ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ ذو العلو فوق خلقه بالقهر ، وذو الكبرياء العظيم ، ليس لملك ولا نبي أن يتكلم ذلك اليوم إلا بإذنه.

المناسبة :

بعد بيان حال الشاكرين كداود وسليمان ، وحال الكافرين كسبا وما فعله بهم حين بطروا النعمة وكذبوا الرسل ، عاد الله تعالى إلى خطاب المشركين ومناقشتهم ومطالبتهم على سبيل التهكم بهم بأن يستعينوا بآلهتهم المزعومة ليكشفوا

عنهم الضر ، ثم بيّن أنهم لا يملكون شيئا ولا تنفع شفاعتهم ، فكيف يعبدونهم ، وشأن المعبود تحقيق النفع للعابد؟

التفسير والبيان :

﴿قُلِ : ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أي قل أيها النبي لهؤلاء المشركين من قريش : نادوا تلك الآلهة المزعومة كالأصنام ، والتي عبدت من دون الله ، ليكشفوا عنكم الضر الذي نزل بكم في سني الجوع ، أو يجلبوا لكم النفع.

ثم أجاب سبحانه عنهم الجواب المتعين دون مكابرة ، مبينا خطأهم ، فقال :

﴿لا يَمْلِكُونَ مِثْقالَ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ﴾ أي إن تلك الآلهة المزعومة لا يملكون شيئا أبدا ، ولو كان وزن ذرة في السموات والأرض ، وليس لهم قدرة على خير ولا شر في أمر من الأمور ، كما قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر ٣٥ / ١٣].

ثم نفى الله تعالى وجود الشريك والمعين له ، فقال :

﴿وَما لَهُمْ فِيهِما مِنْ شِرْكٍ ، وَما لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ أي لا تستطيع الأصنام شيئا أصلا ، لا استقلالا ، ولا شركة في الخلق أو الملك ، فليس لله شريك ولا معين على خلق شيء ولا على حفظه ، كما قال تعالى : ﴿ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ ، وَما كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً﴾ [الكهف ١٨ / ٥١] بل الخلق كلهم فقراء إليه ، عبيد لديه.

ثم نفى إمكان شفاعتهم ، فقال :

﴿وَلا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ أي لا تنفعهم شفاعة تلك الأصنام ؛ لأنه لا تنفع الشفاعة في حال من الأحوال إلا لمن أذن الله له أن يشفع ، من الملائكة والنبيين ونحوهم من أهل العلم والعمل ، وهو لا يأذن للكافرين ،

وهؤلاء الشفعاء المأذون لهم لا يشفعون إلا لمن يستحق الشفاعة ، لا للكافرين ، كما قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة ٢ / ٢٥٥] وقال سبحانه : ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّماواتِ لا تُغْنِي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشاءُ وَيَرْضى﴾ [النجم ٥٣ / ٢٦] وقال عزّجلّ : ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى ، وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء ٢١ / ٢٨] وقال عز اسمه : ﴿لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَقالَ صَواباً﴾ [النبأ ٧٨ / ٣٨].

ومفاد هذه الآيات : أن الشفاعة تحتاج إلى إذن الله تعالى ، ولا شفاعة إلا لمن ارتضى الله ، وأن تكون أسباب الشفاعة حقا وصوابا مقبولا ، لهذا ثبت في الصحيحين من غير وجه عن رسول الله ﷺ ، وهو سيد ولد آدم ، وأكبر شفيع عند الله تعالى حين يقوم المقام المحمود ليشفع في الخلق كلهم حينما يأتي ربهم لفصل القضاء ، أنه قال : «فأسجد لله تعالى ، فيدعني ما شاء الله أن يدعني ، ويفتح علي بمحامد لا أحصيها الآن ، ثم يقال : يا محمد ارفع رأسك ، وقل تسمع ، وسل تعطه ، واشفع تشفع».

وفي هذا الموقف الرهيب يتجلى مقام رفيع من العظمة الإلهية ، وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحي ، فسمع أهل السموات كلامه ، أرعدوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغشي ، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه ومسروق وغيرهما.

وهنا ذكر الله تعالى ما يحدث بعد انتظار الإذن بالشفاعة ، فقال :

﴿حَتَّى إِذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قالُوا : ما ذا قالَ رَبُّكُمْ؟ قالُوا : الْحَقَّ ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾

أي إن الناس والملائكة يقفون فزعين خائفين منتظرين الإذن بالشفاعة ، حتى إذا أذن للشافعين ، وأزيل الخوف والفزع عنهم ، قال بعضهم لبعض : ما ذا قال ربكم في الشفاعة؟ قالوا للذي قال : قال ربنا القول الحق ، وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى ، والله هو المتفرد بالعلو والكبرياء والعظمة ،

لا يشاركه في ذلك أحد من خلقه ، وليس لملك ولا لنبي أن يتكلم في ذلك اليوم إلا بإذنه تعالى.

وكلمة ﴿حَتَّى﴾ وقعت غاية لشيء مفهوم ضمنا وهو أن ثم انتظارا للإذن وتوقعا وتمهلا من الراجين للشفعاء ، والشفعاء هل يؤذن لهم أو لا يؤذن؟

فقه الحياة أو الأحكام :

هذه مناقشة معلن عنها مسبقا في القرآن الكريم ، تحدث على سبيل التهكم والتوبيخ والتعجب بين الإله الخالق وبين المشركين.

يأمر الله فيها نبيه أن يقول لهؤلاء المشركين : هل عند شركائكم قدرة على شيء من النفع يحققونه لكم؟ ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة لكم من دون الله لتنفعكم ، أو لتدفع عنكم ما قضاه الله تبارك وتعالى عليكم ، فإنهم لا يملكون ذلك.

إنهم لا يملكون شيئا أصلا ولو وزن ذرة في السموات والأرض ، وليس للأصنام في السموات والأرض مشاركة ، لا بالخلق ولا بالملك ، ولا بالتصرف ، وليس لله من معين يعينه على شيء من أمر السموات والأرض ومن فيهما ، بل الله المنفرد بالإيجاد والتدبير ، فهو الذي يعبد ، وعبادة غيره محال.

ولا تنفع شفاعة الملائكة وغيرهم عند الله إلا لمن أذن له ، حتى إذا وقفوا ـ أي الراجون للشفاعة والشفعاء ـ جميعا خائفين وجلين منتظرين الإذن بالشفاعة ، ثم أزيل الفزع عن قلوبهم ، تساءل الناس فيما بينهم وقالوا للملائكة : ما ذا أمر الله بالشفاعة؟ فيجيبون : إنه أذن في الشفاعة للمؤمنين لا للكافرين ، والله هو المتعالي المتكبر العظيم ، فله أن يحكم في عباده بما يريد.

وهكذا يتبين أن الله تعالى يأذن للأنبياء والملائكة في الشفاعة ، وهم على غاية الفزع من الله ، كما قال : ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ ولن يكون الإذن

بالشفاعة لتلك الآلهة المزعومة من الأصنام وغيرها ، كما لن تكون الشفاعة إلا لمن رضي الله من المؤمنين ، لا الكافرين. وهذا بيان جلي يقطع الأطماع في الشفاعة الموهومة ، ويبدد الآمال في النجاة من غير أمر الله ورضوانه.

وقوله : ﴿حَتَّى إِذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ دليل على : كشف الفزع عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم بكلمة يتكلم بها رب العزة في إطلاق الإذن ، تباشروا بذلك ، وسأل بعضهم بعضا. والمأذون لهم في الشفاعة : الملائكة وغيرهم ، في رأي جمهور المفسرين منهم الزمخشري وأبو حيان.

وقال الشوكاني في فتح القدير : هذا الفزع يكون للملائكة في كل أمر يأمر به الرب ، أخرج البخاري وأبو داود ، من حديث أبي هريرة ، أن النبي ﷺ قال : «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله ، كأنه سلسلة على صفوان ، ينفذهم ذلك ، فإذا فزع عن قلوبهم ، قالوا : ما ذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال : الحقّ ، وهو العلي الكبير».

إقرار المشركين بأن الله هو الرازق وإعلامهم بالحاكم ووقت الحكم

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٢٤) قُلْ لا تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنا وَلا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنا رَبُّنا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٦) قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكاءَ كَلاَّ بَلْ هُوَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) وَما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا

يَعْلَمُونَ (٢٨) وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٢٩) قُلْ لَكُمْ مِيعادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ ساعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ (٣٠)﴾

الإعراب :

﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً إِيَّاكُمْ﴾ ضمير منفصل منصوب معطوف على اسم «إن» و ﴿لَعَلى هُدىً﴾ إما خبر لقوله : ﴿وَإِنَّا﴾ وخبر ﴿إِيَّاكُمْ﴾ محذوف لدلالة الأول عليه ، أو أن يكون خبرا للثاني ، وخبر الأول محذوف لدلالة الثاني عليه. وهذا كقولهم : زيد وعمرو قائم ، إما أن يجعل قائم خبرا للأول ، ويقدر للثاني خبر ، وإما أن يجعل خبرا للثاني ، ويقدر للأول خبر.

﴿وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا كَافَّةً .. كَافَّةً﴾ منصوب على الحال من كاف ﴿أَرْسَلْناكَ﴾ ولا يجوز جعلها حالا من الناس على المختار. وأصله «كاففة» اجتمع حرفان متحركان من جنس واحد ، فسكن الأول وأدغم في الثاني ، فصار ﴿كَافَّةً﴾ وتقديره : وما أرسلناك إلا كافّا للناس. ودخلت التاء للمبالغة ، كعلّامة ونسّابة.

﴿لَكُمْ مِيعادُ يَوْمٍ ..﴾ مبتدأ مرفوع ، و ﴿لَكُمْ﴾ خبره ، والهاء في ﴿عَنْهُ﴾ عائدة على الميعاد.

البلاغة :

﴿قُلْ : مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ توبيخ وتبكيت.

﴿قُلِ : اللهُ﴾ حذف الخبر ، لدلالة السياق عليه ، أي قل الله الخالق الرازق للعباد.

﴿تَسْتَأْخِرُونَ﴾ و ﴿تَسْتَقْدِمُونَ﴾ بينهما طباق.

﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ صيغة مبالغة على وزن فعّال وفعيل.

المفردات اللغوية :

﴿قُلْ : مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ يريد به تقرير قول السابق : لا يملكون ، والرزق من السموات : المطر ، ومن الأرض : النبات. ﴿قُلِ : اللهُ﴾ أي لا جواب سواه ، وفيه إشعار بأنهم إن سكتوا أو تلعثموا في الجواب مخافة الإلزام ، فهم مقرّون به بقلوبهم. ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ﴾ أي أحد الفريقين. ﴿لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ أي إما في حال هدى أو في ضلال

واضح. وهذا بعد ما تقدم من التقرير البليغ الدال على من هو على الهدى، ومن هو في الضلال. وهذا الإبهام أبلغ من التصريح؛ لأنه في صورة الإنصاف المسكت للخصم، وهو تلطف بهم في الدعوة إلى الإيمان إذا وفقوا له.

﴿أَجْرَمْنا﴾ أذنبنا، أو وقعنا في الجرم، وهو الذنب. ﴿وَلا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ لأنا بريئون منكم. ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنا رَبُّنا﴾ يوم القيامة. ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ﴾ أي يحكم، والفتاح: الحاكم؛ لأنه يفتح طريق الحق ويظهره، وبعد الحكم يدخل تعالى أهل الحق والإيمان الجنة، وأهل الباطل والكفر النار. ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ﴾ الحاكم بالحق. ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما يحكم به وبما يتعلق بحكمه وقضائه من المصالح.

﴿قُلْ: أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكاءَ﴾ أي أعلموني بالدليل وجه الشركة في استحقاق العبادة، وهو استفسار عن شبهتهم بعد إلزام الحجة عليهم، زيادة في تبكيتهم. ﴿كَلَّا﴾ كلمة للزجر عن كلام أو فعل صدر من المخاطب، والمراد هنا: ردع لهم عن اعتقاد شريك لله تعالى. ﴿بَلْ هُوَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الموصوف بالغلبة وكمال القدرة، والحكمة الباهرة في تدبيره لخلقه، فلا يكون له شريك في ملكه.

﴿وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾ أي وما أرسلناك إلا للناس جميعا عربهم وعجمهم، و ﴿كَافَّةً﴾ مانعا لهم، من الكف وهو المنع عن الكفر ودعوتهم إلى الإسلام، أو جامعا لهم بالإنذار والإبلاغ، من الكف بمعنى الجمع، والتاء للمبالغة، والمعنى على الأول: إلا إرسالة عامة لهم محيطة بهم؛ لأنها إذا شملتهم فقد كفتهم أن يخرج منها أحد، وعلى الثاني: إلا جامعا للناس في الإبلاغ والإنذار، وهو حال من الكاف، ولا يجوز جعله حالا من ﴿لِلنَّاسِ﴾ لأن تقدم حال المجرور عليه ممنوع كتقدم المجرور على الجار. ﴿بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ مبشرا للمؤمنين بالجنة، ومنذرا للكافرين بالعذاب. ﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك، فيحملهم جهلهم على مخالفتك، فهم لا يعلمون ما عند الله وما لهم من النفع في إرسال الرسل.

﴿وَيَقُولُونَ: مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ أي ويقول المشركون من فرط جهلهم: متى يكون هذا الوعد بالعذاب الذي تعدوننا به يا محمد وصحبه، وهو قيام الساعة، أخبرونا به إن كنتم صادقين فيه. والخطاب للنبي ﷺ والمؤمنين. ﴿مِيعادُ يَوْمٍ﴾ وعد يوم أو زمان وعد، وهو يوم البعث أو القيامة. ﴿لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ ساعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي هذا الميعاد المضروب لكم لا تتأخرون عنه ولا تتقدمون عليه، بل يكون لا محالة في الوقت الذي قدّر الله وقوعه فيه. وهو جواب تهديد جاء مطابقا لما قصدوه بسؤالهم من التعنت والإنكار.

المناسبة :

بعد بيان أن الأصنام ونحوها من الآلهة المزعومة لا يملكون شيئا في الكون ، أبان الله تعالى أن المشركين يعترفون بأن الرازق من السماء والأرض بما ينزل من المطر وينبت من الزرع ويوجد من المعادن هو الله ، فيلزمهم أن يعتقدوا بأنه لا إله غيره ، وأن المحق واحد من الفريقين وغيره مبطل ، والمحق هم المؤمنون لقيام الدليل على التوحيد ، وأن يعلموا أن الله هو الحاكم بالحق يوم القيامة ، وأنه هو الخالق الرازق ، أما الشركاء فلا يخلقون ولا يرزقون.

التفسير والبيان :

﴿قُلْ : مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، قُلِ : اللهُ﴾ أي قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين عبدة الأوثان والأصنام على سبيل التوبيخ والتبكيت : من الرازق لكم من السموات بإنزال المطر ، ومن الأرض بالنبات والمعادن ونحوها؟ قل لهم : هو الله الذي يرزقكم ، إن لم يجيبوا ، بل لا جواب لهم سواه ، وقد أجابوا فعلا في آيات أخرى بأنه هو الله ، قال تعالى : ﴿قُلْ : مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ ، أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ ، وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ، وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ، وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ؟ فَسَيَقُولُونَ : اللهُ ، فَقُلْ : أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ [يونس ١٠ / ٣١].

وإذا اعترفتم بأن الله هو الرازق ، فلم تعبدون سواه ممن لا يقدر على الرزق؟ كما قال تعالى تبكيتا وتعنيفا لهم : ﴿قُلْ : مَنْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ؟ قُلِ : اللهُ ، قُلْ : أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ ، لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلا ضَرًّا﴾ [الرعد ١٣ / ١٦].

ثم دعاهم الله تعالى إلى الإيمان بالله بطريق التلطف ، بعد هذا الإلزام القائم مقام الاعتراف والإقرار ، فقال :

﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ أي : إن أحد الفريقين منا ، سواء معشر المؤمنين الموحدين الله الخالق الرازق ، الذين يخصونه بالعبادة ، أو المشركين الذين يعبدون الجمادات العاجزة عن الخلق والرزق والنفع والضرر ، لعلى أحد الأمرين من الهدى أو في الضلال البيّن الوضح ، فلا سبيل إلى تصويب كل منا ، فإما أن نكون نحن أو أنتم على الهدى أو على الضلال ، بل واحد منا مصيب ، والآخر مخطئ مبطل. وهذا أسلوب فيه لطف وأدب ، لاستدراج الخصم إلى أن ينظر في حاله وحال غيره ، ويستعمله العرب لإعطاء الحرية للمخاطب بأن يتأمل ويعلن عن قناعة أنه مخطئ وغيره مصيب ، كما يقول الرجل لصاحبه : قد علم الله الصادق مني ومنك ، وإن أحدنا لكاذب.

ويلاحظ أنه ذكر كلمة «على» مع الهدى ، وكلمة «في» مع الضلال ؛ لأن المهتدي كأنه مرتفع متطلع ، والضال منغمس في الظلمة غريق فيها. ووصف الضلال بالمبين ، ولم يصف الهدى ؛ لأن الهدى هو الطريق المستقيم الموصل إلى الحق ، والمستقيم واحد ، وغيره كله ضلال ، بعضه أبين من بعض. وقدم الهدى على الضلال لمناسبته لوصف المؤمنين المبدوء بكلمة ﴿إِنَّا﴾ المقدم في الذكر.

ثم أعلن الله تعالى وجود الانفصال بين الفريقين واستقلال كل منهما عن الآخر بطريق التلطف مرة أخرى بنسبة الاجرام فرضا إلى المؤمنين والعمل للمشركين فقال : ﴿قُلْ : لا تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنا ، وَلا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي قل أيها الرسول أيضا للمشركين : إن كانت عبادتنا لله وطاعتنا له جريمة ، فلستم مسئولين عنا ، ولا نسأل عما تعملون من خير أو شر. وهذا معناه التبري منهم ، فلستم منا ولا نحن منكم ، بل ندعوكم إلى توحيد الله وإفراد العبادة له ، فإن أجبتم فأنتم منا ، ونحن منكم ، وإن أعرضتم وكذبتم فنحن برآء منكم ، وأنتم برآء منا ، كما قال الله تعالى : ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ : لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ، أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ ، وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس ١٠ / ٤١]. وقد أضاف الاجرام إلى النفس :

﴿أَجْرَمْنا﴾ وقال في حقهم ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ لئلا يحصل الإغضاب المانع من الفهم.

ثم أنذرهم الله تعالى بالقضاء والحكم الذي سيقضي به ، تأكيدا للنظر والتفكر ، في مجال الحساب والثواب والعذاب ، فقال :

﴿قُلْ : يَجْمَعُ بَيْنَنا رَبُّنا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنا بِالْحَقِّ ، وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ أي قل لهم أيها الرسول أيضا. إن ربنا سيجمع بيننا في ساحة واحدة يوم الحساب ، ويوم القيامة ، ثم يحكم ويقضي بيننا بالحق والعدل ، والله هو الحاكم العادل القاضي بالصواب ، العالم بحقائق الأحوال والأمور ، وبما يتعلق بحكمه من المصالح ، فيجزي كل عامل بعمله ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، وستعلمون يومئذ لمن العزة والنصرة والسعادة الأبدية ، كما قال تعالى : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ، فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا وَلِقاءِ الْآخِرَةِ ، فَأُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ﴾ [الروم ٣٠ / ١٤ ـ ١٦].

ثم تحداهم تعالى بالكشف عن الشركاء وقدراتهم ، فقال :

﴿قُلْ : أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكاءَ ، كَلَّا ، بَلْ هُوَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي قل أيها النبي لهؤلاء المشركين قولا فصلا : أروني هذه الآلهة التي جعلتموها لله أندادا ، وصيرتموها شركاء ونظراء معادلين لله ، حتى أراهم ، وأرى ما يقدرون عليه. الحق واضح ، والأمر ليس كما تزعمون ، كلا أي فارتدعوا عن ادعاء المشاركة ، فلا نظير ولا شريك ولا عديل لله ، بل هو الله الواحد الأحد ، المتفرد بالألوهية ، الذي لا شريك له ، ذو العزة التي قد قهر بها كل شيء ، وغلب كل شيء ، الحكيم في أفعاله وأقواله وشرعه وقدره ، حكمة باهرة لا يعلوها شيء. وهذا التساؤل يراد به بيان فائدة الشركاء في دفع الضرر ، بعد إبطال فائدتها بآية

﴿قُلْ : مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ لجلب المنفعة ، تمشيا مع أهداف العامة الذين لا يعبدون المعبود إلا لدفع الضرر أو لجلب المنفعة ، أما الخواص فيعبدون الله لأنه يستحق العبادة لذاته.

وبعد إثبات التوحيد ، أبان الله تعالى عموم الرسالة المحمدية للناس جميعا ، فليست ذات نزعة عنصرية ، ولا حكرا على العرب وحدهم ، فقال تعالى : ﴿وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ، وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ أي وما أرسلناك أيها النبي لقومك العرب خاصة ، بل أرسلناك للناس قاطبة ، عربهم وعجمهم ، أبيضهم وأسودهم وأحمرهم ، مبشرا من أطاع الله بالجنة ، ومنذرا من عصاه بالنار ، كما قال تعالى : ﴿قُلْ : يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ [الأعراف ٧ / ١٥٨] وقال سبحانه : ﴿تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً﴾ [الفرقان ٢٥ / ١].

وفي الصحيحين عن جابر رضي الله عنه مرفوعا : «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي .. وذكر منها : وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة». وفي الصحيح أيضا : «بعثت إلى الأسود والأحمر».

إلا أن أكثر الناس لا يعلمون بعموم الرسالة ، ولا بمهمة التبشير والإنذار ، ولا بخطورة ما هم عليه من الضلال والجهالة ، ولا بالنفع في إرسال الرسل ، ولا ما عند الله من الجزاء ، كما قال تعالى : ﴿وَما أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف ١٢ / ١٠٣] وقال سبحانه : ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ [الأنعام ٦ / ١١٦].

وبعد بيان التوحيد ثم الرسالة ، ذكر الحشر ، فأخبر تعالى عن استبعاد الكفار قيام الساعة وأجاب عنه ، فقال :

﴿وَيَقُولُونَ : مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ أي ويقول المشركون

استهزاء وتعنتا وجهلا : متى يكون هذا الوعد الذي تعدوننا به يا محمد والمؤمنون ، وهو قيام الساعة ، أخبرونا به إن كنتم صادقين في قولكم. وهذا كقوله تعالى : ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِها ، وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْها ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ [الشورى ٤٢ / ١٨].

والجواب هو :

﴿قُلْ : لَكُمْ مِيعادُ يَوْمٍ ، لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ ساعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي قل لهم أيها الرسول : لكم موعد يوم مؤجل محدد لا شك فيه ، هو يوم البعث والقيامة ، لا تتأخرون عنه ساعة ولا تتقدمون عليه ، لا يزاد ولا ينقص ، بل يكون لا محالة في الوقت الذي قدّر الله وقوعه فيه. وفي هذا إنذار كاف.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ الله سبحانه وتعالى في الواقع الذي لا يقبل سواه ، وفي اعتراف المشركين أنفسهم هو خالق الأرزاق الكائنة من السموات ، عن المطر والشمس والقمر والنجوم وما فيها من المنافع ، والخارجة من الأرض عن الماء والنبات ، وبما أن الله هو الخالق الرازق فهو الذي ينبغي أن يعبد. ومن المعلوم أن العامة يعبدون الله ، لا لكونه إلها ، وإنما يطلبون به شيئا : إما دفع ضرر ، أو جر نفع.

٢ ـ الحق واحد لا يتعدد ، فلا يعقل أن يكون كل المؤمنين والمشركين في حال واحدة من الهدى أو الضلال ، بل هما متعارضان متضادان ، وأحد الفريقين مهتد ، وهم المؤمنون ، والآخر ضال وهم المشركون.

وقد كذبهم القرآن بأسلوب يعد أحسن من تصريح الكذب ، وهو أن المشركين هم الضالون حين أشركوا بالذي يرزقهم من السموات والأرض. فقوله تعالى : ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ كما تقول : أنا أفعل كذا ،

وتفعل أنت كذا ، وأحدنا مخطئ ، وقد عرف من هو المخطئ. أما لو قال أحد المتناظرين للآخر : هذا الذي تقوله خطأ ، وأنت فيه مخطئ ، فإنه يغضب ، وإذا غضب اختل الفكر وساء الفهم.

٢ . أقام الله تعالى مهادنة ومتاركة بين المؤمنين والمشركين ، فأعلن رسوله لهم : إنما أقصد بما أدعوكم إليه الخير لكم ، لا أن ينالني ضرر كفركم ، ولا يسأل أحد الفريقين عن الآخر ، فلا يسأل المشركون عما اكتسب المؤمنون ، ولا يسأل المؤمنون أيضا عما اقترف المشركون ، كما قال تعالى : ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون ١٠٩ / ٦].

٣ . يجمع الله تعالى يوم القيامة أهل الإيمان وأهل الشرك ، ثم يقضي بينهم بالحق والعدل ، فيثيب المهتدي ، ويعاقب الضال ، والله هو القاضي بالحق ، العليم بأحوال الخلق.

٤ . يسأل المشركون : عرّفوني الأصنام والأوثان التي جعلتموها شركاء لله عَزَّوَجَلَّ ، وهل شاركت في خلق شيء؟ بينوا ما هو؟ وإلا فلم تعبدونها؟!

الحق أنه ليس الأمر كما زعم المشركون ، فليس لله شركاء ، بل هو الله ذو العزة القاهر الغالب ، الحكيم في أقواله وأفعاله ، يفعل ما هو مصلحة.

٥ . رسالة النبي ﷺ رسالة عامة للبشرية جمعاء ، وليست مقصورة على العرب خاصة ، ومهمة النبي تبشير من أطاع الله بالجنة ، وإنذار من عصاه بالنار ، ولكن أكثر الناس وهم في ذلك الوقت المشركون لا يعلمون ما عند الله تعالى.

٦ . يتساءل المشركون استهزاء وعنادا وتعجيزا ، فيقولون للمؤمنين : متى موعدكم لنا بقيام الساعة إن كنتم صادقين في إخباركم عنها؟

فيجيبهم الله تعالى : قل لهم يا محمد : لكم ميقات معين هو يوم البعث أو القيامة ، لا يزيد ولا ينقص ، ولا تتقدمون عنه ولا تتأخرون ، وهو آت لا محالة ، وعلمه عند الله لم يطلع عليه أحدا من خلقه.

إنكار المشركين القرآن والحوار يوم القيامة بين الضالين والمضلين

﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْ لا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْناكُمْ عَنِ الْهُدى بَعْدَ إِذْ جاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (٣٢) وَقالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ إِذْ تَأْمُرُونَنا أَنْ نَكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْداداً وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلالَ فِي أَعْناقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣)﴾

الإعراب :

﴿لَوْ لا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ أَنْتُمْ﴾ ضمير مرفوع منفصل ، مبتدأ ، خبره محذوف ، ولا يجوز إظهاره لطول الكلام بالجواب.

البلاغة :

﴿لَنْ نُؤْمِنَ بِهذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ استعارة في الجملة الأخيرة ، إذ ليس للقرآن يدان ، ولكنه استعارة لما سبقه من الكتب السماوية المتقدمة.

﴿وَلَوْ تَرى إِذِ الظّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ حذف الجواب للتهويل ، أي لو رأيت حالهم ، لرأيت أمرا مريعا مهولا.

﴿اسْتَكْبَرُوا﴾ و ﴿اسْتُضْعِفُوا﴾ بينهما طباق.

﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ﴾ أسند المكر إلى الليل على سبيل المجاز العقلي ، أي المكر الواقع ليلا.

﴿أَنَحْنُ صَدَدْناكُمْ عَنِ الْهُدى﴾ استفهام بمعنى الإنكار.

المفردات اللغوية :

﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أهل مكة. ﴿وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي ما تقدمه من الكتب القديمة كالتوراة والإنجيل الدالين على البعث ؛ لإنكارهم له. ﴿وَلَوْ تَرى﴾ يا محمد. ﴿إِذِ الظّالِمُونَ﴾ الكافرون. ﴿مَوْقُوفُونَ﴾ محبوسون ممنوعون في موقف الحساب. ﴿لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ الأتباع. ﴿الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ الرؤساء. ﴿لَوْ لا أَنْتُمْ﴾ لو لا إضلالكم وصدكم إيانا عن الإيمان. ﴿لَكُنّا مُؤْمِنِينَ﴾ بالله مصدقين لرسوله وكتابه.

﴿قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ مجيبين عليهم ، مستنكرين لما قالوه. ﴿أَنَحْنُ صَدَدْناكُمْ عَنِ الْهُدى﴾ أي منعناكم عن الهدى. ﴿بَعْدَ إِذْ جاءَكُمْ﴾ الهدى. ﴿بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ﴾ مصرّين على الكفر ، كثيري الاجرام والآثام. ﴿وَقالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ ردّا لجوابهم ودفعا لما نسبوه إليهم من صدهم عن الإيمان. ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ﴾ أي لم يكن إجرامنا الصادّ ، بل مكركم بنا في الليل والنهار ، ودعوتكم المستمرة لنا إلى الكفر ، هو الذي حملنا على هذا ، والمكر : الخديعة والاحتيال. ﴿أَنْداداً﴾ شركاء ، جمع ندّ : وهو النظير والشبيه. ﴿وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ﴾ أي أضمر الفريقان الندامة على ما فعلوا من الكفر ، وأخفوها عن غيرهم. ﴿الْأَغْلالَ﴾ جمع غلّ ، وهو طوق من حديد يوضع في العنق. ﴿فِي أَعْناقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ جاء بالظاهر تنويها بذمّهم ، أي جعلنا الأغلال في أعناق الكافرين في النار. ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي ما يجزون إلا جزاء عملهم في الدنيا ، أو لا يفعل بهم ما يفعل إلا جزاء على أعمالهم ، وتعدية ﴿يُجْزَوْنَ﴾ إما لتضمين «يجزى» معنى : يقضى ، أو لنزع الخافض.

المناسبة :

بعد بيان الأمور الثلاثة من التوحيد والرسالة والحشر التي كفروا بها كلها ، ذكر تعالى إنكار جماعة من المشركين القرآن والكتب السماوية القديمة ، وما فيها

من إثبات البعث والحشر والحساب والجزاء ، ثم ذكر صورة من الحوار الحادّ بين الرؤساء المضلين والأتباع الضالين ، وأوضح وصفا للجزاء الذي يلقونه على أعمالهم في الدنيا.

التفسير والبيان :

هذا لون من تمادي الكفار في طغيانهم وعنادهم وهو إصرارهم على عدم الإيمان بالقرآن الكريم ، وبما أخبر به من أمر المعاد ، فقال تعالى :

﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : لَنْ نُؤْمِنَ بِهذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي وقال جماعة من مشركي العرب في مكة وغيرها : لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالكتب السماوية السابقة ، كالتوراة والإنجيل ، ولا بما اشتملت عليه من أمور الآخرة من بعث وحشر وحساب وجزاء. والمعنى : أنهم جحدوا نزول القرآن من الله تعالى ، وأن يكون لما دل عليه من المعاد وإعادة الجزاء حقيقة.

ثم أخبر تعالى عن عاقبة أمرهم ومآلهم في الآخرة وحوارهم فيما بينهم فقال لرسوله أو للمخاطب :

﴿وَلَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾ أي ولو تنظر أيها الرسول حين يكون الكافرون أذلة مهانين محبوسين في موقف الحساب ، يتخاصمون ويتحاجون ويتحاورون فيما بينهم ويتراجعون الكلام فيما بينهم باللوم والعتاب ، لرأيت العجيب والمخيف.

وصورة الحوار هي :

﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا : لَوْ لا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ أي يقول الأتباع الضعفاء للسادة الرؤساء المتكبرين في الدنيا : لو لا صدكم لنا عن الإيمان بالله واتباع رسوله ﷺ ، لكنا مؤمنين بالله ، مصدقين برسوله ﷺ وكتابه.

فأجابهم القادة :

﴿قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا : أَنَحْنُ صَدَدْناكُمْ عَنِ الْهُدى بَعْدَ إِذْ جاءَكُمْ ، بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ﴾ أي قال السادة القادة المتكبرون في الدنيا للأتباع الضعفاء ، مستنكرين لما قالوا : أنحن منعناكم عن الإيمان واتباع طريق الهدى بعد أن جاءكم من عند الله؟ لا ، بل أنتم منعتم أنفسكم بإصراركم على الكفر ، وولوغكم في الاجرام والإثم.

فرد عليهم الأتباع بقولهم :

﴿وَقالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا : بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ ، إِذْ تَأْمُرُونَنا أَنْ نَكْفُرَ بِاللهِ ، وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْداداً﴾ أي رد الأتباع على القادة رؤساء الضلال : بل الذي صدنا عن الإيمان مكركم بنا بالليل والنهار حين كنتم تطلبون منا أن نبقى على الكفر بالله ، ونجعل له أشباها وأمثالا في الألوهية والعبادة.

ثم ذكر مصير الفريقين فقال :

﴿وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ ، وَجَعَلْنَا الْأَغْلالَ فِي أَعْناقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي وأضمر الجميع من السادة والأتباع كل ندم على ما سلف منه عن الكفر ، وأخفاه عن غيره ، مخافة الشماتة ، وتبينت الندامة في وجوههم حين واجهوا العذاب المحدق بهم ، وحين جعلنا الأغلال وهي السلاسل التي تجمع أيديهم مع أعناقهم في النار.

ثم أخبر تعالى عن عدالة هذا الجزاء ، فقال :

﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾؟ أي إنما نجازي هؤلاء وأمثالهم بأعمالهم ، كل بحسبه ، وبسبب ما اقترفه من الشرك بالله والإثم ، للقادة عذاب بحسبهم ، وللأتباع بحسبهم : ﴿وَما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت ٤١ / ٤٦].

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ لقد أعلن كفار قريش عدم إيمانهم بالقرآن وبالكتب السماوية السابقة المتضمنة الإخبار عن أمور الغيب من البعث والحشر والحساب والجزاء.

٢ ـ أخبر الله تعالى عن حالهم من الذلة والمهانة يوم القيامة ، فهم محبوسون في موقف الحساب ، يتراجعون الكلام فيما بينهم باللوم والعتاب ، بعد أن كانوا في الدنيا أخلاء متناصرين ، فحين ترى الظالمين موقوفين على تلك الحال ، ترى عجبا.

٣ ـ تكون المحاورة بين الرؤساء والأتباع شديدة حادة ، فيقول الأتباع للسادة ـ وبدأ بهم لأن المضل أولى بالتوبيخ ـ : لو لا أنكم أغويتمونا وأضللتمونا لكنا مؤمنين بالله ورسوله وكتبه.

ويردّ القادة والرؤساء على الضعفاء الأتباع بقولهم منكرين اتهامهم : ما رددناكم نحن عن الهدى ، ولا أكرهناكم ، بعد أن جاءكم من الله ، بل كنتم أنتم مشركين مصرين على الكفر.

فأجابهم الأتباع بجواب أبلغ وأحكم : إن خديعتكم وحيلتكم وعملكم في الليل والنهار هو الذي صدّنا عن الإيمان بالله ورسوله ، وهو الذي حملنا على الكفر بدعوتكم المستمرة المدبرة دوما ، وكنتم تأمروننا بالكفر بالله ، وبأن نجعل له أشباها وأمثالا ونظراء.

وحين مجيء العذاب وبعد اليأس من الحوار أضمر الفريقان الندامة ، وأخفوها مخافة الشماتة ، وهذا معنى (وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ) وقيل : معنى الإسرار :

الإظهار ، أي أظهروا الندامة ؛ لأن الفعل من الأضداد ، يكون بمعنى الإخفاء والإبداء.

٤ ـ كان جزاء الفريقين التابعين والمتبوعين وسائر الكنار : جعل أغلال الحديد في أعناقهم في النار ، وهذا جزاء حق وعدل ، ولا يجازى هؤلاء إلا بسبب أعمالهم في الدنيا من الشرك بالله والإثم والعصيان.

تسلية النبي ﷺ

ظاهرة الكفر بين المترفين واعتدادهم بالأموال والأولاد

﴿وَما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (٣٤) وَقالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالاً وَأَوْلاداً وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَما أَمْوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا زُلْفى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَأُولئِكَ لَهُمْ جَزاءُ الضِّعْفِ بِما عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفاتِ آمِنُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ (٣٨) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩)﴾

الإعراب :

﴿بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا زُلْفى إِلَّا مَنْ آمَنَ بِالَّتِي﴾ في موضع نصب ؛ لأنه خبر ﴿ما﴾. ودخلت الباء في خبر ﴿ما﴾ لتكون بإزاء اللام في خبر «إنّ» لأن «إن» للإثبات ، و ﴿ما﴾ للنفي. و ﴿إِلَّا مَنْ آمَنَ﴾ في موضع نصب على الاستثناء ، ولا يجوز أن يكون منصوبا على البدل من الكاف والميم في ﴿تُقَرِّبُكُمْ﴾ لأن المخاطب لا يبدل منه. لكن جاء إبدال الغائب من المخاطب ، بإعادة العامل في قوله تعالى : ﴿لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب ٣٣ / ٢١] أبدل منه بإعادة الجار ، فقال : لمن كان يرجو.

البلاغة :

﴿يَبْسُطُ وَيَقْدِرُ﴾ بينهما طباق.

﴿وَما أَمْوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا زُلْفى﴾ فيه التفات من الغائب إلى المخاطب للمبالغة في تحقيق الحق ، وفيه إيجاز بالحذف لدلالة السياق عليه ، حذف خبر الأول لدلالة الثاني عليه ، أي ما أموالكم بالتي تقربكم ، ولا أولادكم بالذين يقربونكم عندنا.

﴿إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ﴾ مقابلة بين عاقبة الأبرار والفجار.

﴿كافِرُونَ لا يَعْلَمُونَ آمِنُونَ مُحْضَرُونَ ٣٨﴾ فيها توافق الفواصل الذي فيه جميل الوقع على السمع.

المفردات اللغوية :

﴿قَرْيَةٍ﴾ أهل قرية أي بلد. ﴿نَذِيرٍ﴾ ينذرهم ويحذرهم عقاب الله. ﴿مُتْرَفُوها﴾ أثرياؤها وقادة الشرّ فيها. ﴿كافِرُونَ﴾ مكذبون لكم بما أرسلتم به من التوحيد والإيمان. ﴿وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ قاسوا أمر الآخرة المفترضة عندهم على أمر الدنيا ، واعتقدوا أنهم لو لم يكونوا مكرمين عند الله لما رزقهم ، ولو لا أن المؤمنين هانوا عليه لما حرمهم.

﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ﴾ يوسعه لمن يريد امتحانا. ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يضيقه لمن يشاء ابتلاء. ﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ فيظنون أن كثرة الأموال والأولاد للشرف والكرامة ، وكثيرا ما يكون للاستدراج. ﴿زُلْفى﴾ قربى أي تقريبا ، ويصح : زلفة : قربة. ﴿إِلَّا مَنْ آمَنَ﴾ لكن من آمن. ﴿جَزاءُ الضِّعْفِ بِما عَمِلُوا﴾ الجزاء المضاعف للحسنات ، أي الحسنة بعشر فأكثر. ﴿الْغُرُفاتِ﴾ غرفات الجنة ، وقرئ : الغرفة ، بمعنى الجمع. ﴿آمِنُونَ﴾ من جميع ما يكرهون من الموت وغيره.

﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آياتِنا﴾ القرآن بالرد والطعن. ﴿مُعاجِزِينَ﴾ مسابقين مغالبين لنا ، زاعمين أنهم يفوتوننا بأنفسهم. ﴿أُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ﴾ تحضرهم الزبانية إلى النار ، دون أن يجدوا عنها محيصا أو مهربا.

﴿وَما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ في فعل الخيرات التي أمر الله بها في كتابه وبيّنها رسوله ﷺ .

﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ أي يعوضه عليكم إما في الدنيا وإما في الآخرة. ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أي إن الناس مجرد وسطاء ، فإن رزق العباد لبعضهم بعضا إنما هو بتيسير الله وتقديره ، وليسوا برازقين على الحقيقة ، وإنما الرازق الحقيقي هو الله تعالى.

سبب النزول :

نزول الآية (٣٤):

﴿وَما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ ..﴾ : أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي رزين قال : «كان رجلان شريكان ، خرج أحدهما إلى الشام ، وبقي الآخر ، فلما بعث النبي ﷺ كتب إلى صاحبه يسأله ما عمل ، فكتب إليه أنه لم يتبعه أحد من قريش إلا رذالة الناس ومساكينهم ، فترك تجارته ، ثم أتى صاحبه ، فقال : دلّني عليه ، وكان يقرأ الكتب ، فأتى النبي ﷺ ، فقال : إلام تدعو؟ فقال : إلى كذا وكذا ، فقال : أشهد أنك رسول الله ، فقال : وما علمك بذلك؟ قال : إنه لم يبعث نبي إلا اتبعه رذالة الناس ومساكينهم ، فنزلت هذه الآية : ﴿وَما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها : إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ﴾ فأرسل إليه النبي ﷺ : إن الله قد أنزل تصديق ما قلت».

المناسبة :

بعد بيان تكذيب المشركين بالقرآن وبما تقدمه من الكتب السماوية ، سلّى الله رسوله ﷺ مما مني به من مخالفة قومه ، وخصّ بالتكذيب المترفين المعتمدين على كثرة الأموال والأولاد ؛ لأن الداعي إلى التكبر والإباء المفاخرة بزخارف

الدنيا والانهماك في الشهوات ، والاستهانة بمن لم يحظ منها ، وهذه ظاهرة عامة في الأمم ؛ لأن إيذاء الكفار الأنبياء ليس بدعا.

ثم فنّد الله تعالى مزاعمهم مبينا بأن الغنى والفقر لا يرتبطان بالإيمان والكفر ، فقد يرزق الكافر الفاجر ويحرم المؤمن وبالعكس ، لحكمة ومصلحة يعلمها الله تعالى ، وإنما الجزاء العادل في الآخرة حيث يمتّع المتقون بغرف الجنان ، ويزج الكافرون الصادون عن سبيل الله في نار جهنم.

التفسير والبيان :

يسلّي الله نبيه ﷺ عن إعراض قومه عن دعوته ، ويأمر بالتأسي بالرسل المتقدمين ، ويخبره بأنه ما بعث نبيا في قرية إلا كذبه مترفوها ، واتبعه ضعفاؤهم ، فقال :

﴿وَما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها : إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ﴾ أي لم نبعث إلى أهل كل قرية نبيا أو رسولا يحذرهم ويخوفهم عقاب الله إلا قال أغنياؤها وكبراؤها وأولو النعمة وقادة الشر فيها : إنا مكذبون بما أرسلتم به من توحيد الإله والإيمان به ، ونبذ تعدد الآلهة ، فلا نؤمن بكم ولا نتبعكم.

ونظير الآية كثير مثل : ﴿وَكَذلِكَ جَعَلْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكابِرَ مُجْرِمِيها لِيَمْكُرُوا فِيها﴾ [الأنعام ٦ / ١٢٣] ومثل : ﴿وَإِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنا مُتْرَفِيها ، فَفَسَقُوا فِيها ، فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ ، فَدَمَّرْناها تَدْمِيراً﴾ [الإسراء ١٧ / ١٦].

ومسوغات كفرهم : الاغترار بالأموال والأولاد ، كما قال تعالى :

﴿وَقالُوا : نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالاً وَأَوْلاداً ، وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ أي وقال المترفون الكافرون للرسل وأتباعهم المؤمنين : إن الله فضلنا عليكم بالأموال والأولاد في

الدنيا ، وأنتم فقراء ضعفاء ، فهذا دليل تميزنا وتفاخرنا ، وهو دليل على محبة الله تعالى لنا ورضاه عنا ، وما نحن عليه من الدين ، وما كان ليعطينا هذا في الدنيا ويحسن إلينا ، ثم يعذبنا في الآخرة.

ولكن هذه النظرة خطأ محض ، وقياس باطل ، فإن الإمداد بالأموال غالبا ما يكون للاستدراج ، كما قال تعالى : ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مالٍ وَبَنِينَ ، نُسارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْراتِ ، بَلْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون ٢٣ / ٥٥ ـ ٥٦]. وقال سبحانه : ﴿فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ ، إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ، وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ ، وَهُمْ كافِرُونَ﴾ [التوبة ٩ / ٥٥].

وهنا رد الله عليهم ، وأبان خطأهم ، فقال :

﴿قُلْ : إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي قل أيها الرسول لهم : إن الله يعطي المال لمن يحب ولمن لا يحب ، فيغني من يشاء ، ويفقر من يشاء ، لا لمحبة لمن وسع عليه ، ولا لبغض لمن ضيق عليه ، وإنما له في ذلك حكمة تامة بالغة ، ولأن الدنيا لا تساوي شيئا في ميزان الله ، كما قال النبي ﷺ فيما رواه الترمذي عن سهل بن سعد : «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء».

﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ أي إن أكثر الناس لا يعلمون حقيقة سنن الله في الكون ، فقياس الدار الآخرة على الدار الأولى في مسألة الرزق غلط بيّن ، أو مغالطة واضحة ، فقد يعطي الله العاصي والكافر استدراجا ، ويمنع الطائع والمؤمن ابتلاء واختبارا ، ليصبر ، فتكثر حسناته عند الله ، وبه يتبين أن ما يزعمه المترفون من أن مدار التوسعة هو الشرف والكرامة ومدار التضييق هو الهوان والذل : لا حقيقة له ولا أصل في تقدير الله تعالى.

ثم أبان تعالى ميزان القربى عنده ، وأنها ليست بكثرة المال والولد ، وإنما بالإيمان والعمل الصالح ، فقال :

﴿وَما أَمْوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا زُلْفى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً ، فَأُولئِكَ لَهُمْ جَزاءُ الضِّعْفِ بِما عَمِلُوا ، وَهُمْ فِي الْغُرُفاتِ آمِنُونَ﴾ أي وليست كثرة أموالكم وأولادكم هي دليل محبتنا لكم ورضائنا عنكم ، ولا هي مما تقربكم إلى رحمتنا وفضلنا ، فإنما أموالكم وأولادكم فتنة واختبار لنعلم من يستعملها في طاعة الله ، ممن يعصي الله فيها.

لكن من آمن بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر ، وعمل صالح الأعمال ، فأدى الفرائض ، واستعمل أمواله في طاعة الله ، فإن إيمانه وعمله يقربانه لدينا ، ويكون مرضيا عندنا ، وهؤلاء لهم الجزاء المضاعف للحسنات ، نجازيهم الحسنة بعشر أمثالها فأكثر إلى سبع مائة ضعف ، وهم آمنون من كل مكروه في غرفات الجنان.

روى الإمام أحمد ومسلم وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

وروى ابن أبي حاتم عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن في الجنة لغرفا ترى ظهورها من بطونها ، وبطونها من ظهورها ، فقال أعرابي : لمن هي؟ قال صلى الله عليه وسلم : لمن طيّب الكلام ، وأطعم الطعام ، وأدام الصيام ، وصلى بالليل والناس نيام».

ثم هدد الله تعالى الكافرين ، وأبان حال المسيئين ، فقال :

﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ ، أُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ﴾ أي إن الذين يحاولون رد آياتنا في القرآن ، والطعن فيها ، لإبطالها ، ويسعون في الصد عن سبيل الله ، واتباع رسله ، والتصديق بآياته ، زاعمين أنهم يفوتوننا ،

وأننا لا نقدر عليهم ، فأولئك جميعهم مجزيون بأعمالهم ، تحضرهم الزبانية إلى عذاب جهنم ، ولا يجدون عنها محيصا أو مهربا.

ثم أبان الله تعالى ما يريح الخلائق جميعا في مسألة الرزق ، وأنه وحده هو المصدر ، فقال:

﴿قُلْ : إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ أي قل أيها الرسول لهم: إن ربي وحده هو الذي يوسع الرزق على من يريد من عباده ، وهو الذي يضيقه على من يشاء ، بحسب ما له في ذلك من الحكمة التي لا يدركها غيره.

﴿وَما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أي إن عطاء الله متجدد دائم ، فكل ما تنفقونه في فعل الخيرات التي أمر الله بها في كتابه وبيّنها رسوله ﷺ ، فهو يعوضه عليكم بالبدل في الدنيا أو بالجزاء والثواب في الآخرة ، والله هو الرازق في الحقيقة ، وما العباد إلا وسائط وأسباب. وفي هذا تزهيد في الدنيا وترغيب في الإنفاق في الخير.

جاء في الحديث القدسي عند مسلم : «يقول الله تعالى : أنفق أنفق عليك» وروى الشيخان عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقا خلفا ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفا». وقال رسول الله ﷺ : «أنفق بلالا ، ولا تخش من ذي العرش إقلالا».

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ إن الاغترار بالأموال والأولاد ظاهرة عامة في البشر ، وهي في الغالب سبب للإعراض عن دعوة الرسل ، فلم يرسل الله نبيا ولا رسولا إلا قال مترفوها

أي أغنياؤها ورؤساؤها وجبابرتها وقادة الشر للرسل والأنبياء : نحن كافرون بما أرسلتم به.

وقالوا أيضا : لقد فضلنا عليكم بالأموال والأولاد ، ولو لم يكن ربكم راضيا بما نحن عليه من الدّين والفضل لم يعطنا ذلك ، ولسنا نحن بمعذبين في الآخرة إن وجدت كما تقولون ؛ لأن من أحسن إليه فلا يعذبه.

٢ ـ رد الله عليهم قولهم بأن الله هو الذي يفاضل بين عباده في الأرزاق امتحانا لهم ، فلا يدل شيء من ذلك على ما في العواقب ، فسعة الرزق في الدنيا لا تدل على سعادة الآخرة ، فلا تظنوا أن أموالكم وأولادكم تغني عنكم غدا شيئا ، والرزق في الدنيا لا تدل سعته وضيقه على حال المحق والمبطل ، فكم من موسر شقي ومعسر تقي.

ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذا ؛ لأنهم لا يتأملون.

٣ ـ أكد الله تعالى جوابه بأن الأموال والأولاد لا تقرب شيئا إلى الله ، أما الذي يقرب إليه فهو الإيمان والعمل الصالح ، فمن آمن وعمل صالحا فلن يضره ماله وولده في الدنيا.

وأولئك المؤمنون الصالحون لهم الجزاء المضاعف للحسنات في الآخرة ، كما قال سبحانه: ﴿مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها﴾ [الأنعام ٦ / ١٦٠] وهم الآمنون من كل مكروه في غرفات الجنة ، آمنون من العذاب والموت والأسقام ، وهذا إشارة إلى دوام النعيم وتأبيده ، فإن من تنقطع عنه النعمة ، لا يكون آمنا.

وقد استدل بعضهم بهذه الآية في تفضيل الغنى على الفقر ، قال محمد بن كعب : إن المؤمن إذا كان غنيا آتاه الله أجره مرتين بهذه الآية.

٤ ـ أما الكافرون الصادون عن سبيل الله واتباع رسله ، الساعون في إبطال

الأدلة والحجج المذكورة في القرآن ، الذين يحسبون أنهم يفوتون الله بأنفسهم ، فلا يقدر عليهم ، فأولئك تحضرهم الزبانية في نار جهنم ، وهذا إشارة أيضا إلى دوام العذاب ، كما قال تعالى : ﴿كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها أُعِيدُوا فِيها﴾ [السجدة ٣٢ / ٢٠] وكما قال تعالى : ﴿وَما هُمْ عَنْها بِغائِبِينَ﴾ [الانفطار ٨٢ / ١٦].

٥ ـ كرر الله تعالى للتأكيد أنه هو وحده باسط الرزق ومضيقه لمن يشاء ، على وفق ما يرى من الحكمة والمصلحة لعباده ، فيا أيها المغترون بالأموال والأولاد : إن الله يوسع على من يشاء ويضيق على من يشاء ، فلا تغتروا بالأموال والأولاد ، بل أنفقوها في طاعة الله ، فإن ما أنفقتم في طاعة الله فهو يخلفه عليكم ، والله تعالى يرزق من خزائن لا تفنى ، وهو الرازق على الحقيقة ، والناس مجرد وسطاء ورزقهم منقطع ، قال تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات ٥١ / ٥٨].

٦ ـ ما دلت عليه الآية : ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ والحديث المتقدم المتفق عليه عن أبي هريرة مرفوعا : «قال : قال الله عزوجل : «أنفق أنفق عليك» : فيه إشارة إلى أن الخلف في الدنيا عن النفقة إذا كانت النفقة في طاعة الله ، وقد لا يكون الخلف في الدنيا فيكون كالدعاء لتكفير الذنوب أو ادخار الثواب في الآخرة.

روى الدارقطني عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «كل معروف صدقة ، وما أنفق الرجل على نفسه وأهله ، كتب له صدقة ، وما وقى به الرجل عرضه [١] فهو صدقة ، وما أنفق الرجل من نفقة فعلى الله خلفها إلا ما كان من نفقة في بنيان أو معصية».

أما ما أنفق الشخص في معصية فلا خوف أنه غير مثاب عليه ، ولا مخلوف له. وأما البنيان فما يكون منه ضروريا يكنّ الإنسان ويحفظه فذلك مخلوف

---

(١) مثل إعطاء الشاعر وذي اللسان لتوقي الذم والقدح والهجاء.

عليه ، ومأجور ببنيانه ، كحفظ بنيته ، وستر عورته. قال ﷺ فيما رواه الترمذي والحاكم عن عثمان : «ليس لابن آدم حق في سوى هذه الخصال : بيت يسكنه ، وثوب يواري عورته ، وجلف الخبز والماء» أي الوعاء.

٧ ـ دل قوله تعالى : ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ على أن نعيم الآخرة لا ينافي نعمة الدنيا ، بل الصالحون قد يحصل لهم في الدنيا النعم ، مع القطع بحصول النعيم لهم في العقبى ، بناء على وعد الله تعالى.

وخيرية الرزق في أمور ذكرها الرازي : أحدها ـ ألا يؤخر عن وقت الحاجة ، والثاني ـ ألا ينقص عن قدر الحاجة ، والثالث ـ ألا ينكده بالحساب ، والرابع ـ ألا يكدره بطلب الثواب [1].

تقريع الكفار يوم القيامة أمام معبوداتهم

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قالُوا سُبْحانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (٤١) فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ (٤٢)﴾

البلاغة :

﴿أَهؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كانُوا يَعْبُدُونَ﴾ تقريع وتوبيخ للمشركين ، والخطاب للملائكة.

﴿نَفْعاً﴾ و ﴿ضَرًّا﴾ بينهما طباق.

---

(١) تفسير الرازي : ٢٥ / ٢٦٣

المفردات اللغوية :

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أي يحشر للحساب العابد والمعبود ، والمستكبر والمستضعف ، وقرئ: نحشرهم ﴿أَهؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كانُوا يَعْبُدُونَ﴾ هذا تقريع للمشركين ، وتوبيخ لكل من عبد غير الله عَزَّجَلَّ ، وإقناط لهم عما يتوقعون من شفاعتهم. والخطاب للملائكة ؛ لأنهم أشرف شركائهم ، والصالحون للخطاب منهم.

﴿قالُوا﴾ أي الملائكة ﴿سُبْحانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنا مِنْ دُونِهِمْ﴾ أي تنزيها لك عن الشريك ، أنت الذي نتولاه ونطيعه ونعبده من دونهم ، ولا موالاة بيننا وبينهم ، وما كنا معبودين لهم على الحقيقة ﴿بَلْ﴾ للإضراب والانتقال ﴿كانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَ﴾ الشياطين ، وهم إبليس وجنوده ، فإنهم كانوا يطيعونهم في عبادتهم إيانا ﴿أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ أي أكثر المشركين مصدقون بالجن فيما يلقونه إليهم من الوساوس والأكاذيب ، ومنها أمرهم بعبادة الأصنام ، فالضمير الأول للمشركين والثاني للجن.

قال تعالى : ﴿فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلا ضَرًّا﴾ أي لا يملك المعبودون للعابدين شفاعة ونجاة ، ولا عذابا وهلاكا ؛ لأن الأمر يوم القيامة كله لله ، والدار دار جزاء ، والله هو المجازي وحده ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم وكفروا بعبادة غير الله ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ في الدنيا.

المناسبة :

لما بيّن الله تعالى أن حال النبي ﷺ كحال من تقدمه من الأنبياء ، وحال قومه كحال من تقدم من الكفار ، وبيّن لهم خطأ اعتمادهم على كثرة الأموال والأولاد ، بيّن ما يكون من حالهم يوم القيامة من التقريع والتوبيخ ، بسؤال الملائكة : أهم كانوا يعبدونكم؟ إهانة لهم. ثم بيّن أنهم كانوا ينقادون لأمر الجن ، وأن ما كانوا يعبدونه لا ينفعهم.

التفسير والبيان :

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ، ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ : أَهؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كانُوا يَعْبُدُونَ﴾؟ أي ويوم يحشر الله تعالى العابدين والمعبودين ، والمستكبرين والمستضعفين جميعا ، ثم يسأل الملائكة الذين كان المشركون يزعمون أنهم يعبدون الأنداد التي هي على صورهم ، ليقربوهم إلى الله زلفى : أأنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم؟ وهذا السؤال يراد

به تقريع المشركين يوم القيامة أمام الخلائق ، على طريقة : إياك أعني واسمعي يا جارة.

وهذا شبيه بقوله تعالى : ﴿أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبادِي هؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ [الفرقان ٢٥ / ١٧] وشبيه بسؤال عيسى عليه‌السلام : ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ : اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ؟ قالَ : سُبْحانَكَ ما يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ ما لَيْسَ لِي بِحَقٍ﴾ [المائدة ٥ / ١١٦]. والله يعلم أن الملائكة وعيسى أبرياء من هذه التهمة ، وإنما السؤال والجواب للتقريع والتوبيخ والتعيير.

﴿قالُوا : سُبْحانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنا مِنْ دُونِهِمْ ، بَلْ كانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ أي قالت الملائكة : تنزيها لك يا رب عن الشريك ، نحن عبيدك ، ونبرأ إليك من هؤلاء ، وأنت الذي نتولاه ونطيعه ونعبده من دونهم ، ما اتخذناهم عابدين ، ولا موالاة بيننا وبينهم ، بل إنهم كانوا يعبدون الشياطين وهم إبليس وجنوده ، فهم الذين زينوا لهم عبادة الأوثان وأضلوهم ، وأكثر المشركين مصدقون الجن فيما يلقونه إليهم من الوساوس والأكاذيب ، ومنها أمرهم بعبادة الأصنام ، كما قالت تبارك وتعالى : ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِناثاً ، وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطاناً مَرِيداً ، لَعَنَهُ اللهُ﴾ [النساء ٤ / ١١٧ ـ ١١٨].

ثم أعلن الله تعالى إفلاسهم وتبدد آمالهم بشفاعة الآلهة المزعومة ، زيادة في إيلامهم وحسرتهم ، فقال :

﴿فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلا ضَرًّا﴾ أي في يوم القيامة هذا لن يتحقق لكم نفع ممن كنتم ترجون نفعه من الأوثان والأنداد التي ادخرتم عبادتها لشدائدكم وكربكم ، ولن تكون لكم شفاعة وقدرة على النجاة ، كما لن يكون بيدكم العذاب والهلاك ، وإنما المجازي هو الله وحده.

﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا : ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ﴾ أي

ونقول للذين ظلموا أنفسهم بعبادة غير الله وهم المشركون تأنيبا وتوبيخا : ذوقوا عذاب جهنم الذي كنتم تكذبون بوقوعه في الدنيا ، فأنتم الآن في أعماق النار. وهذا تأكيد لبيان حالهم في الظلم وعقابهم على الإثم.

فقه الحياة أو الأحكام :

تدل الآيات على ما يأتي :

١ ـ الحشر والحساب حق ، والله يحشر جميع الخلائق ، لكن يكون للكفار حشر وموقف خاص ، فالله تعالى يحشر العابدين والمعبودين أي يجمعهم للحساب مع بعضهم ، ثم يسأل الملائكة الذين يزعمون أنهم يعبدون الأنداد التي هي على صورهم ، فيقول تقريعا وتوبيخا للكفار على عبادتهم غير الله : أهؤلاء كانوا يعبدونكم؟

٢ ـ يتبرأ الملائكة من هذه التهمة قائلين : سبحانك ، أي تنزيها لك يا رب عن الشريك ، أنت ربنا الذي نتولاه ونطيعه ونعبده ونخلص في العبادة له ، وإنما يعبد هؤلاء الشياطين ويطيعونهم ، لأنهم زينوا لهم عبادة الأوثان وأضلوهم.

وجاء في التفاسير : أن بني مليح من خزاعة كانوا يعبدون الجن ، ويزعمون أن الجن تتراءى لهم ، وأنهم ملائكة ، وأنهم بنات الله. وهو قوله : ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً﴾ [الصافات ٣٧ / ١٥٨].

٣ ـ أيأس الله تعالى الكفار من شفاعة أحد من آلهتهم المزعومة ، وأخبر بأنه في يوم القيامة لا يملك المعبودون للعابدين شفاعة ونجاة ، ولا عذابا وهلاكا ، وإنما المالك المجازي وحده هو الله تعالى.

٤ ـ يعاين الكفار جهنم ، ويقذفون فيها ، فيقال لهم تقريعا وتوبيخا :

﴿ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ﴾ في الدنيا ، والمكذب به هنا : هو النار ، وفي سورة السجدة ﴿عَذابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ﴾ [٢٠] هو العذاب ، وهم في الواقع يكذبون بالكل. وسبب التغاير في التعبير أن الآية هنا في وصف النار التي كانت أول ما رأوها بعد الحشر والسؤال ، وأما في سورة السجدة فالمراد وصف العذاب الذي يعانونه بعد دخولهم النار ، وأنه العذاب الدائم.

أسباب تعذيب الكفار

﴿وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالُوا ما هذا إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُكُمْ وَقالُوا ما هذا إِلاَّ إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (٤٣) وَما آتَيْناهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَها وَما أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (٤٤) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَما بَلَغُوا مِعْشارَ ما آتَيْناهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ (٤٥) قُلْ إِنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنى وَفُرادى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ (٤٦) قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٤٧) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (٤٨) قُلْ جاءَ الْحَقُّ وَما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَما يُعِيدُ (٤٩) قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّما أَضِلُّ عَلى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِما يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (٥٠)﴾

الإعراب :

﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنى وَفُرادى أَنْ تَقُومُوا﴾ : إما في موضع جر على البدل من قوله : ﴿بِواحِدَةٍ﴾ أي بأن ، أو في موضع رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : وهي أن تقوموا ، أو في موضع نصب على تقدير حذف حرف الجر ، وهو اللام ، وتقديره : لأن تقوموا لله ، و ﴿مَثْنى وَفُرادى﴾ منصوبان على الحال من واو ﴿تَقُومُوا﴾.

﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ مرفوع على أنه خبر ثان بعد أول وهو ﴿يَقْذِفُ﴾ أو على البدل من ضمير ﴿يَقْذِفُ﴾ أو خبر مبتدأ محذوف تقديره : وهو ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ ، أو بدل من «ربّ» على الموضع ، وموضعه الرفع ، أو وصف ل «رب» على الموضع. ويجوز فيه النصب من وجهين : على الوصف ل «رب» أو على البدل منه.

﴿وَما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَما يُعِيدُ﴾ : ﴿ما﴾ : في موضع نصب ، تقديره : أيّ شيء يبدئ الباطل ، وأيّ شيء يعيد.

البلاغة :

﴿بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ﴾ استعارة ، استعار لفظ اليدين لما يكون من الأهوال أمام الإنسان.

﴿وَما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَما يُعِيدُ﴾ كناية عن زهوق الباطل ومحو أثره.

﴿مَثْنى وَفُرادى﴾ بينهما طباق.

﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِ﴾ وضع الظاهر موضع الضمير للدلالة على إمعانهم في الكفر.

المفردات اللغوية :

﴿آياتُنا﴾ القرآن ﴿بَيِّناتٍ﴾ واضحات الدلالات ، ظاهرات المعاني ما هذا التالي لها وهو النبي محمد ﷺ ﴿يَصُدَّكُمْ﴾ يمنعكم ﴿وَقالُوا : ما هذا﴾ قالوا ثانيا ما هذا القرآن ﴿إِفْكٌ﴾ كذب ﴿مُفْتَرىً﴾ مختلق لا أساس له ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قالوا ثالثا ﴿لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ﴾ لأمر الدين الذي جاءهم به رسول الله ﷺ من القرآن والمعجزات ، وهذا باعتبار لفظه وإعجازه ، والأول باعتبار معناه ﴿إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ما هذا إلا سحر ظاهر سحريته.

ويلاحظ أن الإشارة الأولى : ﴿ما هذا إِلَّا رَجُلٌ﴾ إلى رسول الله ﷺ ، والثانية : ﴿ما هذا إِلَّا إِفْكٌ﴾ إلى القرآن ، والثالثة : ﴿لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ﴾ والحق : أمر النبوة كله ودين الإسلام كما

وتكرار الفعل : ﴿قالوا﴾ والتصريح بذكر الكفرة ، وقوله : ﴿لَمَّا جاءَهُمْ﴾ من المبادهة بالكفر وأنه حين جاءهم لم يفكروا فيه ، بل بادروه بالإنكار : دليل على صدور الكفر عن إنكار عظيم له ، وغضب شديد منه ، وتعجيب بليغ منه ، كأنه قال : وقال أولئك الكفرة المتمردون بجراءتهم على الله ، ومكابرتهم لمثل ذلك الحق المنير قبل أن يتذوقوه : ما هو إلا سحر واضح لمن يتأمله.

﴿وَما آتَيْناهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَها﴾ أي ما أنزلنا على العرب كتبا سماوية يدرسون فيها ، وهو دليل على صحة الإشراك ﴿وَما أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ يدعوهم إليه ، وينذرهم بالعذاب على تركه. وهذا في غاية التجهيل لهم والتسفيه لرأيهم ، فليس لتكذيبهم بالقرآن وبالرسول ﷺ وجه ، ولا شبهة يعتمدون عليها ، إذ لم يأتهم كتاب ، ولا نذير بهذا الذي فعلوه ، فمن أين كذبوك؟!

﴿وَما بَلَغُوا مِعْشارَ ما آتَيْناهُمْ﴾ أي وما بلغ هؤلاء عشر ما آتينا أولئك من القوة وطول العمر وكثرة المال فأهلكهم الله ، كعاد وثمود ونحوهم ، والمعشار : هو العشر أي عشرة في المائة ، وقيل : هو عشر العشر ، أي واحد في المائة ﴿فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ﴾ أي فكيف كان إنكاري عليهم بالعذاب والعقوبة؟ أي هو واقع موقعه.

﴿أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ﴾ أحذركم وأنذركم سوء عاقبة ما أنتم فيه ، وأوصيكم بخصلة واحدة وهي ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنى وَفُرادى﴾ أي أن تقوموا في طلب الحق بالفكرة الصادقة متفرقين : اثنين اثنين ، أو واحدا واحدا ؛ لأن الاجتماع يشوش الفكر. ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ تنظروا في حقيقة أمر النبي ﷺ وما جاء به من الكتاب ، فتعلموا أنه ﴿ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ أن محمدا ﷺ ليس بمجنون ولا ساحر ، فليس في أحواله ولا تصرفاته ما يدل على ذلك ، ومجيئه بالوحي دليل ظاهر على صدقه ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ﴾ ما هو إلا منذر لكم قبل مجيء عذاب شديد في الآخرة إن عصيتموه ، وقد علمتم أنه أرجح الناس عقلا ، وما جربتم عليه كذبا مدة عمره فيكم.

﴿قُلْ : ما سَأَلْتُكُمْ﴾ قل لهم : ما طلبت منكم على الإنذار والتبليغ ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ مال مقابل الرسالة ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ﴾ ما ثوابي إلا على الله ، لا على غيره ﴿وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ مطلع ، لا يغيب عنه شيء ، يعلم صدقي.

﴿قُلْ : إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ يتكلم بالحق ويلقيه إلى أنبيائه ، وهو القرآن والوحي ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ يعلم ما غاب عن خلقه في السموات والأرض ﴿جاءَ الْحَقُّ﴾ أي الإسلام والتوحيد ، والقرآن الذي فيه البراهين والحجج ﴿وَما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَما يُعِيدُ﴾ أي لا أثر للكفر أو الشرك ، فهو لا حقيقة له بدءا وإعادة. ﴿إِنْ ضَلَلْتُ﴾ عن الحق وطريقه ﴿فَإِنَّما أَضِلُّ عَلى نَفْسِي﴾ أي إثم ضلالتي يكون على نفسي ﴿فَبِما يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ من القرآن والحكمة والموعظة ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ مني ومنكم ، يعلم الهدى والضلالة.

المناسبة :

بعد بيان عقاب المشركين في نار جهنم يوم القيامة وأنه يقال لهم : ﴿ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ﴾ ذكر الله تعالى الأسباب الموجبة للعذاب من فساد الاعتقاد ، واشتداد العناد ، وتكذيب النبي ﷺ والقرآن والإسلام كله ، ثم أنذرهم سوء العاقبة كالذين من قبلهم من الأمم القوية ، ودعاهم إلى التأمل والتفكر الهادئ العميق في شأن النبي ﷺ المنذر من عذاب يوم القيامة ، وأخبرهم بأن الله أرسل إليهم الحق الدامغ الساطع وهو القرآن والوحي ، وما عداه هو الباطل الذي لا حقيقة ولا بقاء لأثره.

التفسير والبيان :

يخبر الله تعالى عن أسباب استحقاق الكفار العقوبة وأليم العذاب ، ويذكر هنا أهمها وهي ثلاث : الطعن بالنبي ﷺ ، وبالقرآن الكريم ، وبالدين والإسلام كله ، فيقول :

١ ـ ﴿وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالُوا : ما هذا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُكُمْ﴾ أي وإذا تليت آيات القرآن الواضحات الدلالة على إثبات التوحيد وإبطال الشرك ، الظاهرات المعاني ، قالوا : ما هذا أي النبي محمد ﷺ إلا رجل يريد صرفكم عن دين الآباء والأجداد من عبادة الأصنام ، دون حجة ولا برهان ، وما جاء به باطل.

٢ ـ ﴿وَقالُوا : ما هذا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرىً﴾ أي وقال الكفار ثانيا : ما هذا أي القرآن إلا كذب على الله ، مختلق من عنده ، بقصد تضليل الأتباع.

٣ ـ ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ : إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي وقال الكافرون ثالثا : ما هذا الدين والإسلام المشتمل على المعجزات والشرائع والأحكام لتنظيم الحياة الاجتماعية إلا سحر ظاهر.

فرد الله عليهم مبطلا كون دينهم حقا ، ومظهرا انعدام حجتهم في اتباعه ، فقال :

﴿وَما آتَيْناهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَها ، وَما أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ أي ما أنزل الله على العرب من كتاب قبل القرآن يقرر لهم دينا ، وما أرسل إليهم نبيا قبل محمد ﷺ يدعوهم إلى الحق ، وينذرهم بالعذاب مع أنهم كانوا يقولون : لو جاءنا نذير أو أنزل علينا كتاب لكنا أهدى من غيرنا ، فلما منّ الله عليهم بذلك كذبوه وجحدوه وعاندوه.

وإذا كان الدين الصحيح لا يعرف إلا بوحي من عند الله ، وبكتاب ينزل على رسول ، فإن ادعاء المشركين أن الشرك بالله وتقليد الأسلاف هو الدين الحق ادعاء باطل لا يعتمد على أساس ولا حجة.

ونظير الآية كثير منها : ﴿أَمْ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمْ سُلْطاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِما كانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم ٣٠ / ٣٥] ﴿أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ [الزخرف ٤٣ / ٢١] ﴿أَمْ لَكُمْ كِتابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ، إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَما تَخَيَّرُونَ﴾ [القلم ٦٨ / ٣٧ ـ ٣٨].

ثم هددهم بعذاب مشابه لعذاب الأمم الظالمة من قبلهم ، فقال :

﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَما بَلَغُوا مِعْشارَ ما آتَيْناهُمْ ، فَكَذَّبُوا رُسُلِي ، فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ﴾ أي ولقد كذبت الرسل والوحي أمم سابقة من القرون الخالية كقوم نوح وعاد وثمود ، وكانوا في الدنيا أشد قوة وبأسا من العرب ، بل إن أهل مكة من مشركي قريش وغيرهم من العرب لم يبلغوا بقوتهم وكثرة ما لهم عشر ما آتينا من قبلهم من القوة وكثرة المال ، فلم يدفع عنهم عذاب الله ولا رده ، وإنما أهلكهم الله ودمرهم تدميرا ، كما قال تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ، فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، كانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ ، وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ [غافر ٤٠ / ٨٢].

وما جرى على المثيل يجري على مثيله ، لتساويهما في سبب العقاب ، فيتساويان في الحكم.

ثم نصحهم القرآن بالتأمل والتريث في الحكم على النبي ﷺ ، فقال تعالى : ﴿قُلْ : إِنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ : أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنى وَفُرادى ، ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا : ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ أي أحذركم وأنذركم سوء عاقبة ما أنتم فيه ، وآمركم وأنصحكم بخصلة واحدة : هي قيامكم في طلب الحق بالفكرة الصادقة ، والتأمل الذاتي المجرد المخلص ، دون تأثر بهوى أو عصبية ، متفرقين اثنين اثنين ، أو واحدا واحدا ؛ لأن الاجتماع والتجمهر يشوّش الفكر ، وينشر الغوغائية والفوضى ، ويثني الفكر عن الصواب ، ثم ينصح بعضكم بعضا بإخلاص أن ينظر ويتفكر في حقيقة أمر النبي ﷺ وما جاء به من الكتاب ، فإنكم حينئذ تعلمون أن صاحبكم ليس بساحر ولا مجنون ؛ ليس في أحواله ولا تصرفاته ما يدل على ذلك ، وإنما هو نبي مؤيد من عند الله بالمعجزات الدالة على صدقه.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ﴾ أي وما هذا الرسول إلا منذركم ومخوفكم ما تستقبلونه من عذاب شديد على النفوس يوم القيامة. وجعل إنذاره بين يدي العذاب إشارة إلى قرب العذاب ؛ لأنه بعث قرب الساعة ، روى الإمام أحمد حديثا هو : «بعثت أنا والساعة جميعا إن كادت لتسبقني».

وروى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : «صعد النبي ﷺ الصّفا ذات يوم ، فقال : يا صباحاه ، فاجتمعت إليه قريش ، فقالوا : ما لك؟ فقال : أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو يصبّحكم أو يمسّيكم ، أما كنتم تصدقوني؟ قالوا : بلى ، قال ﷺ : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، فقال أبو لهب : تبّا لك ، ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ ، وَتَبَ﴾ [المسد ١١١ / ١].

قال الرازي : ذكر الأصول الثلاثة في هذه الآية بعد ما سبق منه تقريرها بالدلائل ، فقوله: ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ﴾ إشارة إلى التوحيد ، وقوله : ﴿ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ﴾ إشارة إلى الرسالة ، وقوله : ﴿بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ﴾ إشارة إلى اليوم الآخر.

ولما نفى تعالى عن النبي ﷺ الجنون المستلزم كونه نبيا ، ذكر سببا آخر يلزم منه أنه نبي: وهو عناؤه الشديد في دعوته لا لغرض دنيوي عاجل ، وإنما بقصد الثواب الأخروي ، فقال :

﴿قُلْ : ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ ، وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي قل أيها الرسول للمشركين : لا أريد منكم أجرا ولا عطاء على أداء رسالة الله عزّ وجلّ إليكم ، ونصحي لكم ، وأمري بعبادته تعالى ، إنما أطلب ثواب ذلك من عند الله تعالى ، والله عالم بجميع الأمور ، من صدقي في تبليغ الرسالة ، وما أنتم عليه.

ثم صرح تعالى بأن ما جاء به هذا الرسول ﷺ إنما هو وحي من عند الله ، فقال : ﴿قُلْ : إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ ، عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ أي قل للمشركين : إن الله يرسل الملك بالوحي إلى من يشاء من عباده ، فمن يصطفيهم لرسالته ، وهو علام الغيوب ، فلا تخفى عليه خافية في السموات ولا في الأرض.

وهذا كما قال تعالى : ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ﴾ [غافر ٤٠ / ١٥] وقال سبحانه : ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ﴾ [الأنعام ٦ / ١٢٤].

وبعد أن ذكر الله تعالى أنه يقذف بالحق بصيغة الاستقبال ، أخبر أن ذلك الحق قد جاء فقال :

﴿قُلْ : جاءَ الْحَقُّ ، وَما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَما يُعِيدُ﴾ أي قل للمشركين : جاء الدين الحق وهو الإسلام والقرآن والتوحيد ، وهو الذي سيعلو على سائر الأديان ، ويمحق الله الباطل ويذهب أثره ، فلا يبقي منه شيئا ، كما قال تعالى : ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ ، فَيَدْمَغُهُ ، فَإِذا هُوَ زاهِقٌ﴾ [الأنبياء ٢١ / ١٨].

روى البخاري ومسلم والترمذي والنسائي «أنه لما دخل رسول الله ﷺ المسجد الحرام يوم الفتح ، ووجد الأصنام منصوبة حول الكعبة ، جعل يطعن الصنم منها بسية قوسه ويقرأ : ﴿وَقُلْ : جاءَ الْحَقُّ ، وَزَهَقَ الْباطِلُ ، إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً﴾ [الإسراء ١٧ / ٨١] ، و ﴿قُلْ جاءَ الْحَقُّ ، وَما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَما يُعِيدُ﴾.

ثم أكد الله تعالى تقرير الرسالة ، وأعلن القول الفصل بين النبي ﷺ وبين المشركين ، فقال :

﴿قُلْ : إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّما أَضِلُّ عَلى نَفْسِي ، وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِما يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ أي قل أيها النبي لأولئك المشركين : إن ضللت عن الهدى وطريق الحق ، فإن إثم ضلالي وضرره على نفسي ، وإن عرفت طريق الهداية فمما أوحى إلي ربي من الخير والحق والاستقامة ، إنه سميع لقولي وأقوالكم ، قريب مني ومنكم ، يعلم الهدى والضلالة ، ويجازي كل إنسان بما يستحق.

فالخير كله من الله عزّوجلّ ، وفيما أنزله من الوحي والحق المبين الذي فيه الهدى والبيان والرشاد ، ومن ضل فإنما يضل من تلقاء نفسه.

فقه الحياة أو الأحكام :

يفهم من الآيات ما يلي :

١ ـ العدل والحق المطلق أهم مزية الحكم الإلهي ، فلا يظلم الله أحدا ،

ولا يعاقب إلا بأسباب موجبة للعقاب ، وأهم الأسباب التي استحق بها المشركون نار جهنم : الطعن بالنبي ﷺ ، وبالقرآن المجيد ، وبالدين والإسلام نظام البشرية الأمثل ، وقانونها الأعدل والأحكم.

٢ . لا حجة للمشركين في الإشراك بالله إلا تقليد الأسلاف واتباع الآباء والأجداد ، دون حجة عقلية ولا برهان منطقي مقبول.

٣ . ليس للمشركين ما يعتمدون عليه أيضا من الأدلة النقلية ، فليس لهم كتاب يقرءون فيه بطلان ما جاء به النبي ﷺ ، ولم يسمعوا شيئا عن دينهم من رسول بعث إليهم ، فلا وجه لتكذيبهم ولا شبهة يتمسكون بها ، كشبهة أهل الكتاب وإن كانت باطلة ، الذين يقولون : نحن أهل كتاب وشرائع ، ومستندون إلى رسل من رسل الله.

والخلاصة : أنه ليس للمشركين على شركهم حجة عقلية ولا نقلية.

٤ . لم يبق أمام موقف أولئك المشركين المتشدد المعاند إلا توعدهم على تكذيبهم رسول الله ﷺ والقرآن بما حلّ من العذاب بالأمم الغابرة كعاد وثمود ، الذين كانوا أشد من أهل مكة المشركين بطشا ، وأكثر أموالا وأولادا ، وأوسع عيشا ، فأهلكهم الله ، بل إنهم ما بلغوا عشر ما أوتي من قبلهم من تلك الأمم.

٥ . وبجانب الوعيد فهناك للكلمة المتأنية والفكرة الهادئة دور حيوي ، لذا دعاهم الله تعالى أيضا إلى إعمال الفكر ، لا بنحو جماهيري جماعي غوغائي ، وإنما بطريق ثنائي أو فردي يدعو إلى الهدوء والتروي والمناقشة المنطقية المقبولة ، وذلك في توحيد الله مصدر السعادة ، وفي حقيقة النبي محمد ﷺ ، بدراسة تاريخ حياته المعاصرة لهم ، فهل جربوا عليه كذبا ، أو رأوا فيه جنونا وخللا عقليا ، وهل في أحواله وتصرفاته من فساد وشذوذ وانحراف ، وهل كان يتردد إلى من يدّعي العلم بالسحر ، وهل تعلّم الأقاصيص وقرأ الكتب ، وهل عرفوه طامعا في

أموالهم ، وهل هم قادرون على معارضة القرآن المنزل عليه في سورة واحدة؟!

فإذا عرفوا بهذه التأملات والدراسة الواقعية صدقه ، فما بال هذه المعاندة والمعارضة له؟

٦ . لم يكن رسول الله ﷺ إلا مبشرا من أطاعه بالجنة ، ومنذرا من عصاه بنار جهنم يوم القيامة.

٧ . وأيضا إن عناء النبي الشديد في تبليغ دعوته دون أن يأخذ من أحد أجرا على تبليغ الرسالة دليل واقعي على صدق نبوته ، فهو لا يريد إلا الأجر والثواب من عند ربه ، وهذا دليل الإخلاص ، والله رقيب على كل أعماله وأعمالهم ، وعالم بها لا يخفى عليه شيء ، فهو يجازي الجميع بما يستحقون.

٨ . الله الحق هو مصدر الوحي والحق والقرآن وبيان الحجة وإظهارها ، وهذا ما أنزله على نبيه محمد ﷺ ؛ لأنه علام الغيوب : أي الأمر الذي غاب وخفي جدّا ، وقد علم أن محمدا ﷺ أولى من غيره باصطفائه للنبوة والرسالة ونزول القرآن على قلبه.

٩ . لقد جاء الحق للبشرية فعلا وهو القرآن الذي فيه البراهين والحجج على صحة الاعتقاد من التوحيد والرسالة والبعث والحساب. وإذا جاء الحق اندحر الباطل وهو الشرك والكفر ولم يعد له قرار ولا أثر ولا مقام ، ولم يبق منه شيء أمام الحق.

١٠ . قال الكفار للنبي محمد ﷺ : تركت دين آبائك فضللت ، فرد الله عليهم آمرا نبيه ﷺ أن يقول لهم : إن ضللت كما تزعمون ، فإنما أضل على نفسي ، أي إن ضرره وإثمه علي ، وإن اهتديت إلى الحق والرشاد فبما أوحى الله إلي من الحكمة والبيان ، إن الله سميع ممن دعاه ، قريب الإجابة ، وفي هذا تقرير للرسالة أيضا.

تهديد الكفار بشديد العقاب وإيمانهم حين معاينة العذاب

﴿وَلَوْ تَرى إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ (٥١) وَقالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّناوُشُ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ (٥٢) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ما يَشْتَهُونَ كَما فُعِلَ بِأَشْياعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ (٥٤)﴾

الإعراب :

﴿وَلَوْ تَرى إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ ، وَأُخِذُوا﴾ جواب ﴿لَوْ﴾ محذوف ، تقديره : لو ترى لتعجبت ، و ﴿فَزِعُوا﴾ : جملة فعلية في موضع جرّ بإضافة ﴿إِذْ﴾ إليها. و ﴿أُخِذُوا﴾ : جملة فعلية أخرى معطوفة عليها.

﴿وَأَنَّى لَهُمُ التَّناوُشُ﴾ قرئ «التناؤش» بالهمز على الأصل : أي التأخر ، وقرئ بترك الهمز على إبدال الهمزة واوا ، أو بمعنى التناول ، فلا يكون أصله الهمز.

البلاغة :

﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ﴾ استعارة تصريحية ، استعار لفظ القذف للقول ، وشبه القائل بغير علم وإنما بالظن بالصائد الذي يرمي هدفا بعيدا فلا يصيبه.

المفردات اللغوية :

﴿وَلَوْ تَرى﴾ يا محمد ، وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف ، تقديره : لرأيت مدهشا أو عجبا ﴿إِذْ فَزِعُوا﴾ عند البعث. والفزع : انقباض في النفس عند الأمر المخيف ﴿فَلا فَوْتَ﴾ أي فلا يفوت أحد منهم ، ولا ينجو منهم ناج ﴿وَأُخِذُوا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ﴾ أي من القبور أو من موقف الحساب ، فهم قريبون من الله ، لا يفوتونه.

﴿آمَنَّا بِهِ﴾ أي بمحمد ﷺ أو بالقرآن ﴿التَّناوُشُ﴾ تناول الإيمان تناولا سهلا ﴿مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ﴾ عن محله ، إذ هم في الآخرة ، ومحله والتكليف به في الدنيا. ﴿كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أي

كفروا بمحمد ﷺ أو بالعذاب في الدنيا قبل ذلك أوان التكليف ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ﴾ يرجمون أو يرمون بالظن الذي لا دليل عليه ، تقول العرب لكل من لم يتيقن أمرا : يقذف بالغيب ، أي يرمي به ﴿مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ﴾ من جهة بعيدة ، ليس فيها مستند لظنهم الباطل ، وفيه تمثيل لحالهم بحال من يرمي شيئا لا يراه من مكان بعيد. والمراد أنهم يتكلمون في شأن النبي ﷺ من المطاعن أو في العذاب من الجزم بنفيه ، حيث قالوا في النبي ﷺ : ساحر ، شاعر ، كاهن ، وفي القرآن : سحر ، شعر ، كهانة.

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ما يَشْتَهُونَ﴾ من قبول الإيمان ، أو الرجوع إلى الدنيا ، أو من أموالهم وأهليهم في الدنيا ﴿كَما فُعِلَ بِأَشْياعِهِمْ مِنْ قَبْلُ﴾ أي فعل بأمثالهم ونظرائهم من كفار الأمم الماضية ، من قبلهم ، والأشياع : جمع شيع : وهذا جمع شيعة : وهي أنصار المذهب المتشيعين له ﴿فِي شَكٍّ مُرِيبٍ﴾ موقع في الريبة والظن ، في أمر الرسل وما دعوا إليه من التوحيد ، والبعث والجنة والنار. ومريب : يحتمل وجهين : الأول : موقع في الريب والتهمة ، والثاني : ذي ريب.

المناسبة :

بعد بيان أسباب العذاب ، والرد على شبهات الكفار ، هددهم الله تعالى وأنذرهم بشديد العقاب يوم القيامة ، ثم أخبر عن إيمانهم حين معاينة العذاب يوم لا ينفع إيمان ، لفوات الأوان ، وكفرهم بالله وبرسوله وكتابه من قبل.

التفسير والبيان :

﴿وَلَوْ تَرى إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ ، وَأُخِذُوا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ﴾ أي لو رأيت يا محمد هؤلاء الكفار حين خافوا عند البعث ، وخروجهم من القبور ، ورؤيتهم ألوان العذاب الشديد ، لرأيت أمرا عجبا ، فهم لا يتمكنون من الهرب ولا فوت ، أي لا مفر لهم ولا ملجأ لهم من العذاب ، وأخذوا لأول وهلة حين الفزع من القبور وموقف الحساب إلى نار جهنم ، كما قال تعالى : ﴿وَلَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً ، إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة ٣٢ / ١٢].

﴿وَقالُوا : آمَنَّا بِهِ ، وَأَنَّى لَهُمُ التَّناوُشُ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ﴾ أي وقال الكفار

حينئذ : آمنا بالله وملائكته وكتبه ورسله وآمنا بالقرآن والنبي ﷺ ، وكيف لهم تعاطي الإيمان ، وقد بعدوا عن محل قبوله ؛ لأن الدار الآخرة وهي دار الجزاء ليست بدار التكليف أو دار الابتلاء ، وإنما الدنيا هي مدار التكاليف من الإيمان والعمل الصالح. أو كيف يقدرون على الظفر بالمطلوب ، والإيمان لا يكون إلا في الدنيا ، وهم في الآخرة ، والدنيا من الآخرة بعيدة؟!

﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ ، وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ﴾ أي كيف يحصل لهم الإيمان في الآخرة ، وقد كفروا بالحق في الدنيا ، وكذبوا الرسل؟ وكانوا يرجمون بالظن ويتكلمون بما لا مستند لهم فيه ، فتارة يقولون في الرسول ﷺ : شاعر ، أو كاهن ، أو ساحر ، أو مجنون ونحو ذلك من الأباطيل ، وتارة يقولون في القرآن : سحر ، أو شعر ، أو كهانة ، أو إفك مفترى ، وتارة يقولون : لا بعث ولا جنة ولا نار ولا حساب ولا جزاء ، وما نحن بمعذبين.

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ما يَشْتَهُونَ﴾ أي قد حيل بينهم وبين شهواتهم في الدنيا ، وبين ما طلبوه في الآخرة ، فمنعوا منه ، مثل قبول الإيمان ، والفرار من العذاب ، أو الرجوع إلى الدنيا ، أو اصطحاب أموالهم وأهليهم ، كما قال تعالى : ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا : آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ ، وَكَفَرْنا بِما كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ، فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا﴾ [غافر ٤٠ / ٨٤ - ٨٥].

﴿كَما فُعِلَ بِأَشْياعِهِمْ مِنْ قَبْلُ ، إِنَّهُمْ كانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ﴾ هذا بيان سنة الله في أمثالهم ، وعلة تعذيبهم ورفض قبول إيمانهم ، والمعنى : لقد فعلنا بهم كما فعلنا في أمثالهم ونظرائهم من كفار الأمم الماضية ، إنهم كانوا جميعا في الدنيا في شك مغرق في الريبة في أمر الرسل وما جاؤوا به من التوحيد ، وإثبات البعث والجزاء ، والشرائع والأحكام.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ هذه صورة كئيبة محزنة من أحوال الكفار في وقت اضطرارهم إلى معرفة الحق ، فتراهم في أسوأ حال وأعجبه حين يستبد بهم الفزع والخوف ويتملكهم عند نزول بأس الله تعالى بهم ، ومعاينة العذاب والعقاب يوم القيامة ، حيث لا مفر ولا مهرب ولا نجاة لهم ، وأخذوا من حيث كانوا في موقف الحساب إلى النار ، فهم من الله قريب لا يعزبون عنه ولا يفوتونه.

٢ ـ في هذه الحالة الرهيبة يعلنون الإيمان بالقرآن والنبي ﷺ ، والبعث ، ولكن كيف لهم تعاطي الإيمان وتناوله في الآخرة ، وقد كفروا في الدنيا؟!

٣ ـ إنهم كفروا بالله عزّوجلّ وبالقرآن وبمحمد ﷺ في الدنيا ، ويرجمون بالظن ، ويتكلمون بالأوهام كحال من يرمي شيئا لا يراه من مكان بعيد ، فلا يصيبه ، فيقولون : لا بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار ، رجما منهم بالظن ، ويقولون في القرآن : سحر ، وشعر ، وأساطير الأولين ، ويقولون في محمد ﷺ : ساحر ، شاعر ، كاهن ، مجنون.

٤ ـ والنهاية المحتومة : الحيلولة بينهم وبين النجاة من العذاب ، ومن الرجوع إلى الدنيا ، ومما يشتهون في الدنيا من أموالهم وأهليهم. وذلك المصير مشابه لمصير أمثالهم ممن مضى من القرون السالفة الكافرة ، إنهم جميعا استحقوا العذاب ؛ لأنهم كانوا في شك ممعن في الريبة في أمر الرسل والبعث والجنة والنار ، بل وفي الدين كله والتوحيد.

بسم الله الرّحمن الرّحيم

سورة فاطر

مكيّة ، وهي خمس وأربعون آية

تسميتها :

تسمى سورة «فاطر» لافتتاحها بهذا الوصف لله عَزَّجَلَّ الدال على الخلق والإبداع والإيجاد للكون العظيم ، والمنبئ عن عظمة الخالق وقدرته الباهرة. كما تسمى أيضا سورة «الملائكة» ؛ لأنها أفادت في مطلعها أيضا أن الله سبحانه جاعل الملائكة وسائط بينه وبين أنبيائه لتبليغهم رسالاته وأوامره.

مناسبتها لما قبلها :

قال السيوطي : مناسبة وضعها بعد سبأ : تآخيهما في الافتتاح بالحمد ، مع تناسبهما في المقدار.

وتظهر صلتها أيضا بما قبلها في أنه لما أبان تعالى في ختام سورة سبأ هلاك الكفار وتعذيبهم أشد العذاب ، فقال : ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ما يَشْتَهُونَ ، كَما فُعِلَ بِأَشْياعِهِمْ مِنْ قَبْلُ﴾ اقتضى أن يذكر ما يلزم المؤمنين من الحمد والشكر لله تعالى على ما اتصف به من قدرة الخلق والإبداع ، وإرسال الملائكة رسلا إلى الأنبياء لتبليغ الرسالة والوحي.

مشتملاتها :

موضوع هذه السورة كموضوع سائر السور المكية في العقيدة من الدعوة إلى

توحيد الله ، وإقامة البراهين على وجوده ، وهدم قواعد الشرك ، والإلزام بمنهج الاستقامة على دين الله وأخلاق الإسلام.

وقد اشتملت هذه السورة في فاتحتها ومقدمتها على بيان الأدلة الدامغة على قدرة الله عَزَّوَجَلَّ بإبداع الكون ، وجعل الملائكة رسلا بينه وبين أنبيائه لتبليغ الوحي. ثم ذكّرت الناس بنعم الله ليشكروها ، وحذرت من وساوس الشيطان ، وأبانت الفرق المتميز بين جزاء الكفار وجزاء المؤمنين الأبرار ، وميّزت بين المؤمن والكافر بضرب المثل بالأعمى والبصير ، والظلمات والنور ، والظل والحرور.

وأوضحت مظاهر القدرة الإلهية ، وأقامت الأدلة والبراهين على البعث في سجل هذا الكون من إنزال الغيث ، وإنبات الزرع والثمار ، وخلق الإنسان في أطوار ، وعزل البحر المالح عن البحر العذب ، وتعاقب الليل والنهار ، وإيلاج أحدهما في الآخر ، وتسخير الشمس والقمر ، واختلاف ظواهر الجبال والناس والدواب والأنعام ، ومزية العلماء.

وأعلنت إرسال النبي ﷺ بالحق بشيرا ونذيرا ،كما أرسل نذير في كل أمة ، وثبّتت قلبه بذكر قصص المكذبين السابقين للأنبياء.

وأشادت بمن يتلو كتاب الله ، ويقيم الصلاة ، وينفق من رزق الله سرا وعلانية ، وأبانت أن القرآن مصدّق للكتب السماوية السابقة ، وفاخرت بميراث الأمة الإسلامية لأشرف رسالة ، وذكرت انقسام الأمة إزاءها إلى أنواع ثلاثة : ظالم مقصّر ، ومحسن مقتصد ، وسابق بالخيرات ، وحددت جزاء كل نوع في عالم الآخرة.

ثم ذكرت جزاء المؤمنين وجزاء الكافرين ، ووصفت عاقبة كل منهم وما أعد له يوم القيامة.

وختمت السورة بتقريع المشركين في عبادتهم الأوثان والأصنام ، وأنذرتهم بعاقبة الذين من قبلهم الذين كانوا أشد منهم قوة ، وقرنت هذا الإنذار برحمة الله العامة للناس جميعا حيث لم يعاجلهم العقوبة ، وإنما يؤخرهم إلى أجل مسمى.

بعض أدلة القدرة الإلهية والتذكير بنعم الله وإثبات التوحيد والرسالة

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) ما يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها وَما يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢) يا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤)﴾

الإعراب :

﴿فاطِرِ السَّماواتِ فاطِرِ﴾ : إما صفة لاسم الله تعالى أو بدل.

﴿جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً رُسُلاً﴾ : مفعول به لاسم الفاعل : ﴿جاعِلِ﴾ إذا كان مرادا به الحال أو الاستقبال ؛ لأنه حينئذ يكون عاملا ، أما إن أريد به الماضي كان ﴿رُسُلاً﴾ منصوبا بتقدير فعل.

﴿أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ﴾ : صفة : ﴿أَجْنِحَةٍ﴾ ، وهي ممنوعة من الصرف للوصف والعدل ، فهي معدولة عن لفظ اثنين وثلاثة وأربعة.

﴿ما يَفْتَحِ اللهُ﴾ و ﴿وَما يُمْسِكْ .. ما﴾ فيهما : شرطية منصوبة ب ﴿يَفْتَحِ﴾ و ﴿يُمْسِكْ﴾ ، وما الشرطية يعمل فيها ما بعدها كالاستفهامية ؛ لأن الشرط والاستفهام لهما صدر الكلام ، وقوله ﴿فَلا مُمْسِكَ فَلا مُرْسِلَ﴾ جواب الشرط.

﴿هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللهِ غَيْرُ﴾ : إما مرفوع لأنه فاعل أو صفة لخالق على الموضع ، وإما مجرور صفة لخالق على اللفظ ، وإما منصوب على الاستثناء. و ﴿يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ﴾ خبر المبتدأ.

البلاغة :

﴿ما يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها﴾ استعارة تمثيلية ، أستعير الفتح لإطلاق النعم والإمساك للمنع.

﴿يَفْتَحِ﴾ و ﴿يُمْسِكْ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية :

﴿فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق ، من الفطر بمعنى الشق أي شق العدم بإخراج السماء والأرض ﴿جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً﴾ إلى الأنبياء ، أي وسائط بين الله وبين أنبيائه ، يبلغونهم رسالاته بالوحي ، والملائكة : هم جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل ﴿أُولِي أَجْنِحَةٍ﴾ أصحاب أجنحة ، فمنهم من له جناحان ، ومنهم له ثلاثة ، ومنهم له أربعة ، ينزلون بها من السماء إلى الأرض ، ويعرجون بها من الأرض إلى السماء ﴿مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ﴾ معدولة عن اثنين وثلاثة وأربعة ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ﴾ أي في خلق الملائكة وغيرها. وهو استئناف للدلالة على أن تفاوتهم في ذلك مقتضى مشيئته ومؤدى حكمته ﴿إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فبقدرته يزيد ما يشاء.

﴿ما يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ﴾ ما يعطي من نعمة حسية أو معنوية ، كرزق ومطر ، وصحة وأمن ، وعلم ونبوة وحكمة ، ونحو ذلك ﴿فَلا مُمْسِكَ لَها﴾ فلا مانع لها ﴿فَلا مُرْسِلَ لَهُ﴾ يطلقه بعد إمساكه ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ القوي الغالب ، يتصرف في ملكه كما يشاء ﴿الْحَكِيمُ﴾ في فعله ، يضع الأمر في موضعه المناسب ، ولا معقب لحكمه ، وكل ما يفعله فهو لحكمة بالغة.

﴿اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾ تذكروا نعمه ، واحفظوها بمعرفة حقها ، والاعتراف بها ، وطاعة المنعم بها ، ومن النعم التي كانت على أهل مكة : إسكانهم الحرم ، ومنع الغارات عنهم ﴿يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ﴾ بالمطر وغيره من فائدة الكواكب ﴿وَالْأَرْضِ﴾ بالنبات وغيره من المعادن ، والاستفهام في

قوله : ﴿هَلْ مِنْ خالِقٍ يَرْزُقُكُمْ ...﴾ للتقرير ، أي لا خالق رازق غيره ﴿فَأَنَّ تُؤْفَكُونَ﴾ فكيف تصرفون عن توحيد الخالق ، مع إقراركم بأنه الخالق الرازق.

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ﴾ يا محمد في دعوتك إلى التوحيد والبعث والحساب والعقاب ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ في ذلك ، فاصبر كما صبروا. وفي هذا دعوة له للتأسي بمن قبله من الأنبياء ، وتسلية عن تكذيب كفار العرب له ﴿وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أي المصير النهائي المحتوم إلى الله ، فيجازي كلا بما يستحقه ، يجازي المكذبين ، وينصر المرسلين.

التفسير والبيان :

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي لله الشكر الخالص على نعمه وقدرته ، فإنه خلق السموات والأرض وأبدعهما ، لا على مثال سابق ، وأحكم نظامهما. فموضوع الآية : أن الله تعالى يحمد نفسه على عظيم قدرته وعلمه وحكمته التي يشهد عليها ابتداء خلق السموات والأرض من العدم ، واختراعهما على غير مثال ، قال سفيان الثوري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : «كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض ، حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر ، فقال أحدهما لصاحبه : هذه بئري وأنا فطرتها» أي بدأتها.

والمقصود من هذا أن من قدر على ابتداء هذا الخلق العظيم ، فهو قادر على الإعادة.

﴿جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ﴾ أي إنه تعالى جاعل الملائكة وسائط بينه وبين أنبيائه لتبليغ رسالاته وغير ذلك ، وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل ، وهم ذوو أجنحة متعددة ، بعضهم له جناحان ، وبعضهم له ثلاثة ، وبعضهم له أربعة ، وبعضهم له أكثر من ذلك ، ينزلون بها من السماء إلى الأرض ، ويعرجون بها من الأرض إلى السماء. جاء في الحديث الصحيح عن مسلم عن ابن مسعود «أن رسول الله ﷺ رأى جبريل عليه السلام ، وله ستّ مائة جناح ، بين كل جناحين ، كما بين المشرق والمغرب». ولهذا قال جلّ وعلا :

﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ ، إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي يزيد في خلق الملائكة أجنحة أخرى ما يشاء ، ويزيد في خلق غيرهم ما يشاء ، من ملاحة العين ، وحسن الأنف ، وحلاوة الفم ، وجمال الصوت ، إن الله كامل القدرة في خلق الزيادة المادية الحسية والمعنوية ، فلا يعجز عن شيء ، وبقدرته يزيد مما يشاء.

قال الزهري وابن جريح في قوله تعالى : ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ﴾ : يعني حسن الصوت [1].

وبعد بيان كمال القدرة بيّن الله تعالى أنه نافذ الإرادة والمشيئة والأمر ، فقال :

﴿ما يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها ، وَما يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي ما يعطي الله تعالى من نعمة حسيّة أو معنوية من رزق ومطر ، أو صحة وأمن ، أو علم ونبوة وحكمة ، فلا مانع له ، وما يمنع من ذلك فلا يقدر أحد أن يرسله من بعد إمساكه ، بيده الخير كله ، ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ولا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع ، روى الإمام أحمد والشيخان عن المغيرة بن شعبة : أن رسول الله ﷺ كان إذا انصرف من الصلاة ، قال : «لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كلّ شيء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ».

وروى مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول : «سمع الله لمن حمده ، اللهم ربّنا لك الحمد ملء السّماء والأرض ، وملء ما شئت من شيء بعد ، اللهم أهل الثناء والمجد ، أحق

---

(١) رواه عن الزّهري البخاري في الأدب وابن أبي حاتم في تفسيره.

ما قال العبد ، وكلنا لك عبد ، اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ».

ونظير الآية قوله تعالى : ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ، وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ ، فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [الأنعام ٦ / ١٧].

وفي موطأ مالك : بلغه أن أبا هريرة كان يقول إذا أصبح ، وقد مطر الناس : مطرنا بنوء الفتح ، ثم يتلو هذه الآية : ﴿ما يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ ، فَلا مُمْسِكَ لَها﴾.

وبعد بيان كونه تعالى مصدر الخلق والرزق والنعم ، أمر بتذكر نعمه والإقرار بالتوحيد فقال :

﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ ، اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ ، هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ ، لا إِلهَ إِلَّا هُوَ ، فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ أي يا أيها الناس قاطبة ، تذكروا نعم الله عليكم ، وارعوها ، واحفظوها بمعرفة حقوقها والاعتراف بها ، وأفردوا موجدها بالعبادة والطاعة ، فهو وحده رازقكم من السماء بالمطر ، ومن الأرض بالنبات وغير ذلك ، وأعلنوا توحيد الله وأنه لا إله إلا هو ، وإذا أقررتم بذلك ، فكيف بعد هذا البيان ووضوح البرهان تصرفون عن الحق : وهو توحيد الله وشكره ، وتعبدون بعد هذا الأنداد والأوثان؟!

وبعد تقرير الأصل الأول وهو التوحيد ، قرر الله تعالى الأصل الثاني وهو الرسالة ، فقال مسلّيا رسوله ﷺ عن تكذيب قومه :

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ ، فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ ، وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أي وإن يكذّبك يا محمد هؤلاء المشركون ، ويعارضونك فيما جئت به من التوحيد ، بعد إثباته بالأدلة والبراهين ، فتأسّ بمن سلف قبلك من الرّسل ، فإنهم أيضا جاؤوا قومهم بالبيّنات وأمروهم بالتوحيد ، فكذبوهم وخالفوهم ، ومصير

الجميع في النهاية إلى الله ، فيجازي على ذلك أوفر الجزاء ، يجازيك على صبرك ، ويجازيهم على التكذيب.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ الله تعالى هو مستحق الحمد والشكر على قدرته ونعمه وحكمته ، وقد ذكرت سابقا أن هذه السورة ـ كما ذكر الرازي ـ إحدى السّور القرآنية الأربع المبدوءة بالحمد ، فسورة الأنعام إشارة بالحمد إلى النعمة العاجلة وهي الإيجاد ، وسورة الكهف إشارة بالحمد إلى النعمة العاجلة وهي الإبقاء ، وسورة سبأ إشارة بالحمد إلى نعمة الإيجاد الثاني وهو الحشر ، وهذه السورة إشارة بالحمد إلى نعمة البقاء في الآخرة ، بدليل قوله تعالى : ﴿جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً﴾ أي يجعلهم رسلا يتلقون عباد الله تعالى.

٢ ـ الله سبحانه هو مبدع السموات والأرض على غير مثال سبق ، وهو جاعل الملائكة ذوي أجنحة من اثنين إلى ثلاثة فأربعة ، فأكثر ، للطيران والتحليق هبوطا وصعودا بين السماء والأرض ، وجاعلهم رسلا إلى الأنبياء ، أو إلى العباد برحمة أو نقمة في الدنيا ، ولتلقي عباد الله في الآخرة كما ذكر الرازي.

٣ ـ الله تعالى هو الذي يزيد في مخلوقاته ما يشاء ، سواء في خلق الملائكة ، بالأجنحة الكثيرة ، أو في الزيادة المادية الحسية أو المعنوية في خلق الناس ، كالتميز بأنواع الجمال المختلفة في العينين والأنف والفم ونحوها ، وحسن الصوت ، وجمال الخط أو الكلام أو النّطق.

٤ ـ الله عزوجل تامّ القدرة على كل شيء بالنّقصان والزّيادة ، والإيجاد والإعدام ، وغير ذلك.

قال الزمخشري في آية ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ ..﴾ : الآية مطلقة تتناول كلّ زيادة في الخلق من طول قامة ، واعتدال صورة ، وتمام في الأعضاء ، وقوة في البطش ، وحصافة في العقل ، وجزالة في الرأي ، وجرأة في القلب ، وسماحة في النفس ، وذلاقة في اللسان ، ولباقة في التّكلّم ، وحسن تأتّ [١] في مزاولة الأمور ، وما أشبه ذلك مما لا يحيط به الوصف [٢].

٥ ـ الله عَزَّوَجَلَّ نافذ المشيئة والإرادة والأمر ، فإذا منح نعمة لأحد ، فلا يقدر أحد أن يمنعها ، وإذا حرم أحدا نعمة ، لم يستطع أحد إعطاءه إياها. وبما أن الرّسل بعثوا رحمة للناس ، فلا يقدر على إرسالهم غير الله ، وأي شيء يمسك الله فلا أحد يقدر على إطلاقه.

وتنكير الرحمة : ﴿مِنْ رَحْمَةٍ﴾ يفيد العموم والشمول ، والإشاعة والإبهام ، فهي متناولة لكل رحمة ، سماوية كانت أو أرضية.

٦ ـ على الناس شكر نعمة الله عليهم ، بحفظها وأداء حقها وذكرها باللسان والقلب ، وإفراد المنعم بالطاعة والعبادة والثناء عليه بما هو أهله ، وإنهاء التعلق بالأصنام والأوثان وجعلها شركاء لله ، وهو أبطل الباطل الذي لا يقره العقل المتحضر ، ولا الإنسان المتمدن.

٧ ـ لا أحد على الإطلاق يأتي بالرزق ، فالله تعالى مصدر الرزق من السماء بالمطر ، ومن الأرض بالنبات.

٨ ـ يجب على الخلق جميعا إعلان توحيد الله ، فالوحدانية في صحيفة الكون ، في الضمير والوجدان ، ومقتضى الفطرة ، وفي ميزان العقل الراقي.

---

(١) التأتي في الأمور : الترفق لها ، وإتيانها من وجهها ، وعلاجها بحكمة.

(٢) الكشاف : ٣ / ٥٦٩

٩ ـ إذ أثبت العقل ودلّت آيات القرآن والكون وحدانية الله ، فكيف يصحّ للبشر الانصراف عن هذا الظاهر ، وكيف يشركون المنحوت بمن له الملكوت؟!

١٠ ـ إثبات التوحيد يستتبع إثبات الرسالة وصدق نبوة النبي ﷺ بالمعجزات الظاهرة ، وأعلاها وأخلدها القرآن العظيم.

وإذا كذب بعض الناس قديما وحديثا رسول الله ، فقد كذب الكفار عبر التاريخ أنبياءهم ، وتلك ظاهرة عامة ، وما على الرسول وأتباعه إلا التّأسّي بمن سبق في الصبر ، والنهاية الحتمية المصيرية إلى الله ، فيجازي الجميع بما يستحقون.

تقرير الحشر والتحذير من الشيطان

وجزاء الكافرين والمؤمنين

﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ (٥) إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّما يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحابِ السَّعِيرِ (٦) الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِما يَصْنَعُونَ (٨)﴾

الإعراب :

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا ..﴾ ﴿الَّذِينَ﴾ : إما بدل مجرور من ﴿أَصْحابِ﴾ وإما بدل منصوب من ﴿حِزْبَهُ﴾ وإما بدل مرفوع من ضمير ﴿لِيَكُونُوا﴾. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ مبتدأ ، خبره : ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾.

﴿حَسَراتٍ﴾ إما مفعول لأجله ، أو منصوب على المصدر. وقرئ بالإمالة مع فتحة الراء وإمالتها ، فمن قرأ بفتح الراء أتى بها على الأصل ، ومن أمال فلأن الألف بدل عن الياء ، ثم أتبع الراء إمالة الهمزة ، والإتباع للمجانسة كثير في كلام العرب.

البلاغة :

﴿يُضِلُّ﴾ و ﴿يَهْدِي﴾ بينهما طباق.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ بينهما مقابلة وهي كالطباق إلا أنها تكون في أكثر من شيئين.

﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ، فَرَآهُ حَسَناً﴾ حذف الجواب لدلالة اللفظ عليه ، أي كمن لم يزين له سوء عمله؟ ودلّ على المحذوف بقية الآية : ﴿فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ ..﴾ و ﴿فَمَنْ﴾ مبتدأ ، وخبره : كمن هداه الله.

﴿فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيا﴾ ثم قال : ﴿وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ﴾ إطناب بتكرار الفعل.

﴿فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ﴾ كناية عن الهلاك ؛ لأن النفس إذا ذهبت هلك الإنسان.

﴿السَّعِيرِ كَبِيرٌ﴾ سجع مؤثر على السمع.

المفردات اللغوية :

﴿إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾ أي إن وعده بالبعث والجزاء أو الحشر والعقاب لا خلف فيه. ﴿فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا﴾ لا تلهينكم ويذهلنكم التمتع بها عن الإيمان بالحشر وعن طلب الآخرة والسعي لها. ﴿وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ﴾ في حلمه وإمهاله. ﴿الْغَرُورُ﴾ الشيطان ، بأن يمنيكم المغفرة ، مع الإصرار على المعصية.

﴿إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ عداوة عامة قديمة. ﴿فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ بطاعة الله ، ولا تطيعوه في المعاصي ، واحذروه في كل الأحوال. ﴿إِنَّما يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحابِ السَّعِيرِ﴾ أي إنما يدعو أصحابه وأتباعه المتحزبين له ، والمطيعين له ، إلى المعاصي والكفر ، لأجل أن يكونوا من أهل النار الشديدة ، لعداوته لآدم وذريته. وهذا تقرير لعداوته وبيان لغرضه في دعوة أشياعه إلى اتّباع الهوى والركون إلى الدنيا.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وعيد لمن أجاب دعاء الشيطان ، ووعد لمن خالفه بالإيمان والعمل الصالح بمغفرة الذنوب والأجر الكبير وهو الجنة.

﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً﴾ أي من غلب وهمه على عقله ، فرأى عمله السيء صوابا ، والباطل حقا ، والقبيح حسنا ، كمن لم يزين له؟ حذف الجواب لدلالة : ﴿فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ

﴿مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ﴾ أي من شاء الله إضلاله أضلّه ، ومن شاء هدايته هداه. ﴿فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ﴾ أي عليه وهو المزين له ، والمعنى : فلا تهلك نفسك باغتمامك على غيّهم وكفرهم وإصرارهم على التكذيب. والحسرة : همّ النفس على فوات أمر ، أي التلهف عليه. ﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِما يَصْنَعُونَ﴾ فيجازيهم عليه ؛ لأنه لا تخفى عليه خافية من أفعالهم وأقوالهم.

سبب النزول :

نزول الآية (٨):

﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ : أخرج جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال : أنزلت هذه الآية : ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ حيث قال النبي ﷺ : «اللهم أعزّ دينك بعمر بن الخطاب ، أو بأبي جهل بن هشام» فهدى الله عمر ، وأضلّ أبا جهل ، ففيهما أنزلت.

المناسبة :

بعد بيان الأصل الأول وهو التوحيد ، والأصل الثاني وهو الرسالة ، ذكر الله تعالى الأصل الثالث وهو الحشر أو البعث والنشور ، والحساب والعقاب ، وقرر أنه حق لا شك فيه ، وحذر من وسواس الشيطان في تشكيك الناس بالإيمان به ، ثم صنّف الناس إزاءه صنفين : حزب الشيطان الذين لهم العذاب الشديد ، وحزب الرحمن الذين لهم المغفرة والأجر الكبير وهو الجنة. ثم أبان قضية جوهرية وهي أن الضلال والهدى بيد الله حسبما يعلم من استعداد النفوس للأول أو الثاني.

التفسير والبيان :

﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ، فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا ، وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ﴾

يا أيها البشر جميعا إن وعد الله بالبعث والجزاء حقّ ثابت مؤكد

لا شك فيه ، والمعاد كائن لا محالة ، فلا تتلهوا بزخارف الدنيا ونعيمها ولذاتها عن عمل الآخرة ، ولا يغرنكم الشيطان بالله ، فيجعلكم تعيشون في الأوهام والآمال المعسولة ، قائلا لكم : إن الله يتجاوز عنكم ، ويغفر لكم ، لسعة رحمته ، فتنزلقوا في المعاصي ، وتسرفوا في المخالفات ، فإنه غرّار كذّاب أفّاك.

وهذه الآية كآية آخر سورة لقمان : ﴿فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا ، وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ﴾.

ثم بيّن الله تعالى علّة عدم الاغترار بالشيطان وهي عداوة إبليس لابن آدم ، فقال :

﴿إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ ، فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ أي إن عداوة الشيطان لكم عداوة قديمة عامة ظاهرة ، فعادوه أنتم أشدّ العداوة ، وخالفوه وكذّبوه فيما يغركم به ، بطاعة الله ، ولا تطيعوه في معاصي الله تعالى.

ثم ذكر الله تعالى أغراض الشيطان ومقاصده الخبيثة فقال :

﴿إِنَّما يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحابِ السَّعِيرِ﴾ أي إنما يقصد أن يضلكم حتى تدخلوا معه إلى عذاب النار الشديد الدائم. جاء في حديث عبد الله بن مسعود الذي أخرجه الترمذي والنسائي وابن حبان عن النبي ﷺ : «إن للشيطان لمة (١) بابن آدم وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشّرّ وتكذيب بالحقّ ، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحقّ».

ثم ذكر تعالى جزاء حزب الشيطان وحزب الرحمن فقال :

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ﴾ أي إن الذين كفروا بالله ورسوله وأنكروا البعث ، واتبعوا وساوس الشيطان ، لهم عذاب شديد في نار جهنم ؛ لأنهم أطاعوا الشيطان ، وعصوا الرحمن.

---

(١) اللمة : الخطرة التي تقع في القلب.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أي والذين صدقوا بالله ورسوله وباليوم الآخر ، وعملوا صالح الأعمال من اتّباع الأوامر واجتناب النواهي ومخالفة الشيطان وهوى النفس ، لهم مغفرة لذنوبهم وأجر كبير وهو الجنة ، بسبب الإيمان والعمل الصالح وعمل الخير.

ثم بيّن تعالى الفرق بين الصنفين ، فليس من عمل سيّئا كالذي عمل صالحا ، فقال :

﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً﴾ أي كيف يتساوى المسيء والمحسن ، وهل يكون أولئك الكفار الفجار الذين بتزيين الشيطان وتحسين القبيح يعملون أعمالا سيّئة من كفر ووثنية وعصيان ، معتقدين أنهم يحسنون صنعا ، كالذين كانوا على الهدى ، ويعلمون أنهم على الحق؟! والمراد بمن زين له سوء عمله : كفار قريش وأمثالهم.

وسبب ذلك ما قال تعالى :

﴿فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ ، وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ﴾ أي من شاء الله إضلاله أضلّه ، ومن شاء هدايته هداه ، لما له في ذلك من الحجة البالغة ، والعلم التامّ ، وتبعا لعلمه باستعداد النفوس للخير والشّر.

ثم سلّى تعالى رسوله ﷺ حيث حزن من إصرار قومه على الكفر ، فقال :

﴿فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِما يَصْنَعُونَ﴾ أي لا تغتم ولا تأسف ولا تهلك نفسك على عدم إيمانهم ، وإصرارهم على الكفر ، واستمرارهم على الضلال ، فالله عليم بأحوالهم واستعداداتهم ، وعليم بما يصنعون من المنكرات والقبائح لا تخفى عليه خافية ، فيجازيهم بما يستحقون. وهذا وعيد كاف. وزجر بليغ إن أدركوا أبعاده ومراميه.

ونظير الآية كثير ، منها قوله تعالى : ﴿فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلى آثارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً﴾ [الكهف ١٨ / ٦] ومنها : ﴿لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء ٢٦ / ٣].

فقه الحياة أو الأحكام :

دلّت الآيات على ما يأتي :

١ ـ بعد إيضاح الدّليل على إثبات البعث والحشر ذكر الله تعالى مبدأ عاما في الاعتقاد : وهو أن البعث والثواب والعقاب حق لا مرية فيه ، ولا بدّ من حصوله.

٢ ـ وفي ضوء هذا المنظور الأخروي في عقيدة الإسلام الراسخة ، على الإنسان ألا تلهيه الدنيا وزخارفها عن العمل للآخرة ، وألا يغترّ بوساوس الشيطان ، فإنه أفّاك كذّاب ، قال سعيد بن جبير : غرور الحياة الدنيا أن يشتغل الإنسان بنعيمها ولذّاتها عن عمل الآخرة ، حتى يقول : ﴿يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَياتِي﴾ [الفجر ٨٩ / ٢٤].

٣ ـ إن عداوة الشيطان للإنسان عامة قديمة ، فيجب الحذر منه ، ومعاداته وعدم إطاعته ، ودليل عداوته : إخراجه أبانا آدم من الجنة ، وإصراره على إضلال الإنسان وضمانه ذلك في قوله : ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ [النساء ٤ / ١١٩] ، وقوله : ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ، ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ [الأعراف ٧ / ١٦ ـ ١٧].

٤ ـ إن هدف الشيطان الدّال على عداوته للإنسان أيضا دعوة حزبه أي أشياعه وأتباعه ليكونوا معه في نار جهنم الشديدة الاستعار.

٥ ـ هناك فرق واضح بين المسيء والمحسن ، فلا يسوّى بين من زيّن له

الشيطان عمله السيء فأطاعه ، وبين من هداه الله للخير ، فاتّبع أوامر الله تعالى. والفريق الأول يشمل كل الكفار من اليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان والأصنام والشيطان ونحو ذلك.

٦ . إن الإضلال والهداية من الله بحسب ماله من العلم التامّ المسبق بكل إنسان ، وما لديه من استعداد للشرّ أو للخير.

٧ . لا داعي للأسف والاغتمام على إصرار الكفار على كفرهم ، ولا ينفع التأسف على مقامهم على كفرهم ، فإن الله عليم بصنعهم القبائح ، وسيجازيهم على أفعالهم.

من دلائل القدرة الإلهية لإثبات البعث

﴿وَاللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَسُقْناهُ إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها كَذلِكَ النُّشُورُ (٩) مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئاتِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولئِكَ هُوَ يَبُورُ (١٠) وَاللهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْواجاً وَما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتابٍ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ (١١)﴾

الإعراب :

﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ الهاء تعود على الكلم ، أي والعمل الصالح يرفع الكلم ، وقيل : تعود على العمل ، أي والعمل الصالح يرفعه الله ، ولو صح هذا القول لكان يلزم نصب كلمة ﴿الْعَمَلُ﴾.

﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئاتِ السَّيِّئاتِ﴾ : إما مفعول ﴿يَمْكُرُونَ﴾ بمعنى يعملون ، أو منصوب على المصدر ؛ لأن معنى ﴿يَمْكُرُونَ﴾ : يسيئون ، أو وصف لمصدر محذوف ، أي يمكرون المكرات السيئات ، ثم حذف الموصوف وأقام الصفة مقامه. ﴿وَمَكْرُ أُولئِكَ هُوَ يَبُورُ مَكْرُ﴾ مبتدأ وخبره ﴿يَبُورُ﴾ وهو : فصل بين المبتدأ والخبر ، ويجوز الفصل إذا كان الفعل مضارعا.

البلاغة :

﴿وَاللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ ، فَتُثِيرُ سَحاباً ، فَسُقْناهُ﴾ سقناه : التفات من الغيبة إلى التكلم للإشعار بالعظمة.

﴿تَحْمِلُ﴾ و ﴿تَضَعُ﴾ بينهما طباق ، وكذا بين ﴿يُعَمَّرُ﴾ و ﴿يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾.

المفردات اللغوية :

﴿أَرْسَلَ﴾ أطلق وأوجد من العدم. ﴿فَتُثِيرُ سَحاباً﴾ تزعجه وتحركه ، وأتى بالمضارع حكاية للحال الماضية استحضارا لتلك الصورة البديعة الدالة على كمال الحكمة. ﴿إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ بالتخفيف ، أو ميّت بالتشديد : لا نبات فيه ، ويرى بعضهم : أن الميت بالتخفيف : هو الذي مات ، والميّت بالتشديد ، والمائت : هو الذي لم يمت بعد. ﴿بَعْدَ مَوْتِها﴾ يبسها ، وأحيينا به الأرض : معناه أنبتنا بالمطر الزرع والكلأ. ﴿كَذلِكَ النُّشُورُ﴾ أي كذلك يحي الله العباد بعد موتهم ، كما أحيا الأرض بعد موتها. و ﴿النُّشُورُ﴾ البعث والإحياء ، يقال : نشر الله الميت وأنشره ، أي أحياه.

﴿الْعِزَّةَ﴾ الشرف والجاه والمنعة. ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾ أي فليطلبها من عند الله ، فإن له كل العزة في الدنيا والآخرة ، ولا تنال منه العزة إلا بطاعته ، فليطعه. ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ مجاز يراد به قبول الله له ، أو علمه به ، و ﴿الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ هو التوحيد (لا إله إلا الله) وكل كلام طيب من ذكر الله ، وأمر بمعروف ، ونهي عن منكر ، وتلاوة قرآن ودعاء وغير ذلك. ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ أي والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب ، كما لا يقبل الكلم الطيب إلا مع العمل الصالح. و ﴿الْعَمَلُ الصَّالِحُ﴾ ما كان بإخلاص ، و ﴿يَرْفَعُهُ﴾ يقبله. ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئاتِ﴾ أي الذين يعملون السيئات في الدنيا على وجه المكر والخديعة ، كالمكر بالنبي ﷺ في دار الندوة من تقييده أو قتله أو إخراجه ، كما ذكر في الأنفال ، أو مراءاة المؤمنين في أعمالهم بإيهامهم أنهم مطيعون لله. ﴿يَبُورُ﴾ يبطل ويفسد ولا ينفذ ، من البوار : الهلاك.

﴿خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ﴾ أي خلق أباكم آدم من تراب. ﴿نُطْفَةٍ﴾ مني يخلق ذريته منه. ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْواجاً﴾ ذكرانا وإناثا. ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ أي لا يخرج شيء عن علمه وتدبيره ، وهو حال ، أي

معلومة له. ﴿وَما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ أي لا يزاد ولا يطول من عمر أحد ، ولا ينقص من عمر معمر آخر ، وذلك بحسب العرف والعادة الشائعة بين الناس. ﴿إِلَّا فِي كِتابٍ﴾ أي في صحيفة المرء في اللوح المحفوظ ، وتطويل العمر وتقصيره : هما بقضاء الله وقدره ، لأسباب تقتضي التطويل أو التقصير ، فمن أسباب التطويل : صلة الرحم ، ومن أسباب التقصير : الاستكثار من معاصي الله عزّوجلّ . ﴿إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ أي لا يصعب عليه منه شيء.

المناسبة :

بعد الإخبار عن عذاب الكفار الشديد ، والمغفرة والأجر الكبير للمؤمنين يوم القيامة ، أقام تعالى الدليل على البعث بإحياء الأرض بعد موتها ، وبخلق الإنسان ومروره في أطوار مختلفة من التراب ، فالنطفة ، فالبشر السوي ، فالمدّ في العمر أو تقصيره.

التفسير والبيان :

كثيرا ما يستدل الله تعالى على المعاد أو البعث بإحياء الأرض بعد موتها ، كما في أول سورة الحج مثلا ، وقال هنا :

﴿وَاللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً ، فَسُقْناهُ إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ ، فَأَحْيَيْنا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها ، كَذلِكَ النُّشُورُ﴾ أي والدليل الحسي المشاهد على إمكان البعث وأنه مقدور لله تعالى : أنه سبحانه يرسل الرياح ، فتحرك الغيوم إلى حيث يشاء الله ، فيقوده إلى بلد ميت لا نبات به ، فينزل المطر عليه ، فتحيا الأرض بالنبات بعد يبسها ، وتصبح مخضرة ذات زرع وشجر ، بعد أن كانت تربة هامدة ، فكذلك يكون النشور أي كما يحيي الله الأرض بعد موتها ، يحيي العباد بعد موتهم ، وهذا هو النشور ، أي جعلهم أحياء.

جاء في حديث أبي رزين : «قلت : يا رسول الله ، كيف يحيي الله الموتى؟ وما آية ذلك في خلقه؟ قال صلى‌الله‌عليه‌وسلم : يا أبا رزين ، أما مررت بوادي قومك

ممحلا ، ثم مررت به يهتز خضرا؟! قلت : بلى ، قال ﷺ : فكذلك يحيي الله الموتى».

ثم ندد الله تعالى بمشاعر الكفار بالعزة والغطرسة التي حجبتهم عن طاعة الله ، فقال :

﴿مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾ أي من كان يريد الوصول إلى الشرف والتعزز والسمو ، فليتعزز بطاعة الله ، وليطلبها من الله لا من غيره ، فإن الله مصدر العزة ، وهو يهب منها لمن يشاء ، وهذا ردّ على الكفار الذين كانوا يطلبون العزة بعبادة الأصنام ، وعدم الطاعة للرسل ، وترك الاتّباع له ، فقال : إن كنتم تطلبون بهذا الكفر العزة في الحقيقة ، فهي كلها لله ، ومن يتذلل له فهو العزيز ، ومن يتعزز عليه ، فهو الذليل. وذلك كما قال تعالى : ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ، وَلكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون ٦٣ / ٨]. وقد حكى القرآن طلب المشركين العزة بعبادة الأصنام ، فقال : ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ [مريم ١٩ / ٨١]. وأما المشركون فكانوا يطلبون العزة عند الكفار فقال تعالى : ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ؟!﴾ [النساء ٤ / ١٣٩].

ثم وصف الله تعالى بعض مظاهر العزة ردا على الكفار الذين كانوا يقولون : نحن لا نعبد من لا نراه ولا نحضر عنده ، فقال :

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ أي إن كنتم لا تصلون إلى الله ، فهو يسمع كلامكم ، ويقبل طيب الكلام ، كالتوحيد والأذكار ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والدعاء ، وتلاوة القرآن وغير ذلك. ومن أفضل الأذكار : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر.

وإن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب ، كما أنه لا يقبل الكلم الطيب إلا مع

العمل الصالح ، وصلاح العمل : الإخلاص فيه ، فلا يتقبل الله صلاة وصياما وزكاة ونحو ذلك من أعمال البر ، إذا لم تكن لله ، وفعلت مراءاة للناس.

قال ابن عباس : الكلم الطيب : ذكر الله تعالى ، يصعد به إلى الله عَزَّجَلَّ ، والعمل الصالح : أداء الفريضة.

ثم أخبر الله تعالى أنه لا يقبل من المرائين أعمالهم ، فقال :

﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئاتِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ أي والذين يعملون المكرات السيئات في الدنيا ، كالتآمر على قتل النبي ﷺ ، أو لإضعاف المسلمين ، ويوهمون غيرهم أنهم في طاعة الله تعالى ، وهم بغضاء إلى الله عَزَّجَلَّ ، يراءون بأعمالهم ، لهم عقاب بالغ الغاية في الشدة.

ومكر هؤلاء الكاذبين المفسدين يفسد ويبطل ولا ينفذ ؛ لأن الأمور مقدرة ، لا تتغير بالمكر والحيلة ، ولأن المرائي ينكشف أمره بسرعة ، ولا يروج أمره ويستمر إلا على غني ، أما المؤمنون المتفرسون فلا يروج ذلك عليهم ، بل ينكشف لهم عن قريب ، وعالم الغيب لا تخفى عليه خافية ، يجازي على الرياء أشد العذاب.

ثم ذكر الله تعالى دليلا آخر على إمكان البعث بخلق الأنفس فقال :

﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ، ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ، ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْواجاً﴾ أي والله سبحانه ابتدأ خلق الإنسان من تراب ، فخلق أبانا آدم من تراب ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، فجعل الخلق المتوالي الدائم من النطفة (المني) والنطفة من الغذاء ، والغذاء من الماء والتراب ، فقد صير التراب نطفة ، ثم جعل الناس أصنافا ، ذكرانا وإناثا ، فهذا التحول من تراب إلى خلية حية ، إلى إنسان سوي دليل قاطع على إمكان البعث الذي هو إعادة الحياة مرة أخرى ، والإعادة في مفهوم الناس أهون من الإعادة ، أما عند الله فهما سواء.

هذا دليل القدرة ، أعقبه تعالى بالدليل على كمال العلم فقال :

﴿وَما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَلا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ أي إن الله عالم بحمل أي أنثى في العالم ، لا يخفى عليه من ذلك شيء ، كما أنه عالم بوقت الوضع ومكانه وكيفيته ، كما قال : ﴿اللهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى وَما تَغِيضُ الْأَرْحامُ وَما تَزْدادُ ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ ، عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعالِ﴾ [الرعد ١٣ / ٨ ـ ٩].

﴿وَما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتابٍ﴾ سماه معمّرا بما هو صائر إليه ، أي ما يمدّ في عمر أحد ، وما ينقص من عمر آخر إلا في صحيفة كل إنسان في اللوح المحفوظ ، لا يزيد على ذلك ولا ينقص منه ، سواء أكان من أصحاب الأعمار الطويلة أم القصيرة الأجل ، فتطويل العمر وتقصيره هما بقضاء الله وقدره ، لأسباب مسبقة يعلمها الله ، فمن أطال عمره فلأنه يفعل ما يقتضي التطويل ، كصلة الرحم ، ومن قصر عمره فلأنه يفعل ما يقتضي التقصير ، كالإكثار من معاصي الله.

روى البخاري ومسلم وأبو داود عن أنس بن مالك رضي‌الله‌عنه قال : سمعت رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم يقول : «من سرّه أن يبسط له في رزقه ، وينسأ له في أثره [١] ، فليصل رحمه».

﴿إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ أي إن ذلك النظام المرتب للعالم سهل يسير على الله ، لديه علمه جملة وتفصيلا ، فإن علمه شامل لجميع المخلوقات ، لا يخفى عليه شيء منها.

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يلي :

---

(١) أي يؤخر له في أجله.

١ ـ إمكان حدوث البعث ؛ لأن الله قادر على كل شيء ، ومن مظاهر قدرته الدالة على ذلك بنحو حسي مباشر : إحياء الأرض بالمطر بعد يبسها وذهاب ما فيها من زروع ونباتات ، واكتسائها بالخضرة والمروج ، والنبات ، والثمار المختلفة الألوان والأنواع والطعوم.

فكما حدث من تبدل من موت إلى حياة كذلك يحدث إحياء المخلوقات ، فمثل إحياء الأرض الموات نشر الأموات ، وإعادة الحياة لهم بعد الموت.

٢ ـ إن الاعتزاز بالكفر والمال والأولاد والجاه والسمعة والنفوذ سراب خادع ، فإن من كان يريد العزة التي لا ذلة فيها في الدنيا والآخرة ، فعليه بطاعة الله عزّوجلّ وعبادته وحده دون شريك ؛ لأن الله تعالى مصدر العزة ، وهو سبحانه يعز من يشاء في الدنيا والآخرة ، ويذلّ من يشاء ، قال ﷺ مفسّرا لقوله تعالى : ﴿مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾ : «من أراد عزّ الدارين ، فليطع العزيز».

وعليه ، من كان يريد العزة لينال الفوز الأكبر ، ويدخل في دار العزة ـ ولله العزة ـ فليقصد بالعزة الله سبحانه والاعتزاز به ، فإنه من اعتز بالعبد أذله الله ، ومن اعتز بالله أعزه الله.

٣ ـ الكلم الطيب من توحيد الله وذكره ودعائه وتلاوة كتابه ونحو ذلك هو الذي يقبله الله عزّوجلّ ، والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب كما قال ابن عباس وغيره ، كما أن الكلم الطيب لا يقبل إلا مع العمل الصالح. وصلاح العمل : الإخلاص فيه ، جاء في الحديث : «لا يقبل الله قولا إلا بعمل ، ولا يقبل قولا وعملا إلا بنية ، ولا يقبل قولا وعملا ونية إلا بإصابة السنة»[1].

---

(١) رواه الطبراني عن ابن عمر بلفظ : «لا يقبل إيمان بلا عمل ، ولا عمل بلا إيمان».

وردّ على ابن عباس قوله بتعارضه مع معتقد أهل السنة ، وأن ذلك لا يصح عنه. قال القرطبي : والحق أن العاصي التارك للفرائض إذا ذكر الله ، وقال كلاما طيبا ، فإنه مكتوب له متقبّل منه ، وله حسناته وعليه سيئاته ، والله تعالى يتقبل من كل من اتقى الشرك. وأيضا فإن الكلام الطيب عمل صالح ، وإنما يستقيم قول من يقول : إن العمل هو الرافع للكلم ، بأن يتأوّل أنه يزيد في رفعه ، وحسن موقعه إذا تعاضد معه ، كما أن صاحب الأعمال من صلاة وصيام وغير ذلك ، إذا تخلل أعماله كلم طيب وذكر الله تعالى ، كانت الأعمال أشرف ؛ فيكون قوله : ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ موعظة وتذكرة وحضّا على الأعمال. وأما الأقوال التي هي أعمال في نفوسها ، كالتوحيد والتسبيح فمقبولة [١].

٤ . إن الذين يراءون في أعمالهم ، ويعملون المكرات السيئات في الدنيا ، لهم عذاب شديد في نار جهنم ، ومكرهم بائد غير نافذ. والمكر : ما عمل على سبيل احتيال وخديعة.

٥ . الدليل الاخر على إمكان البعث أحوال نفوس البشر وأطوارها ، فقد خلق الله تعالى أصلها من تراب ، ثم جعل النطفة سببا للخلق ، ثم حدث التزاوج بين الذكر والأنثى ، ليتم البقاء في الدنيا إلى نهاية العالم ، عن طريق التناسل ، فلا يكون حمل ولا وضع إلا والله عالم به ، ولا يخرج شيء عن تدبيره.

٦ . الأعمار كالأرزاق مقدرة محددة في صحيفة كل إنسان ، لا تزيد ولا تنقص ، وأما طول العمر بأسباب ، كصلة الرحم ، فهو داخل في تقدير العمر بصفة نهائية في علم الله ، إذ إنه يكتب في اللوح المحفوظ : عمر فلان كذا سنة ، فإن وصل رحمه ، زيد في عمره كذا سنة ، وفي موضع آخر من اللوح المحفوظ بيّن : إنه سيصل رحمه ، فمن اطلع على الأول دون الثاني ، ظن أنه زيادة أو نقصان.

---

(١) تفسير القرطبي : ١٤ / ٣٣٠

٧ ـ إن نظام العالم البديع ، وكتابة الأعمال والآجال غير متعذر على الله ، وإنما هو سهل يسير هيّن ؛ لأن علم الله مطلق غير نسبي كعلم البشر ، وشامل غير محدود ، وعام غير خاص يشمل الماضي والحاضر والمستقبل.

من دلائل الوحدانية والقدرة الإلهية

﴿وَما يَسْتَوِي الْبَحْرانِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ سائِغٌ شَرابُهُ وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَواخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤)﴾

الإعراب :

﴿وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ الشرك : مصدر بمعنى الإشراك ، وهو مضاف إلى الكاف والميم ، وهي الفاعل في المعنى ، وتقديره : بإشراككم إياهم ، فحذف المفعول.

البلاغة :

﴿هذا عَذْبٌ فُراتٌ وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ﴾ بينهما ما يسمى بالمقابلة وهي كالطباق ، لكنها بين أكثر من شيئين.

المفردات اللغوية :

﴿وَما يَسْتَوِي الْبَحْرانِ﴾ العذب والمالح. ﴿عَذْبٌ فُراتٌ﴾ شديد العذوبة ، والعذب:

الحلو اللذيذ الطعم ، والفرات : المزيل للعطش. ﴿سائِغٌ شَرابُهُ﴾ سهل انحداره. ﴿أُجاجٌ﴾ شديد الملوحة ، وذلك مثل للمؤمن والكافر. ﴿وَمِنْ كُلٍّ﴾ منهما ﴿تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا﴾ هو السمك. ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها﴾ أي من البحر الملح ، وقال الزجّاج : إنما تستخرج الحلية منهما إذا اختلطا ، والحلية هنا : هي اللؤلؤ والمرجان ، وهي في الأصل : كل ما يتحلى به من سوار أو خاتم. ﴿وَتَرَى﴾ تبصر. ﴿الْفُلْكَ﴾ السفن. ﴿فِيهِ﴾ في كل من البحرين. ﴿مَواخِرَ﴾ عابرات شاقات تشق الماء بجريها ، مقبلة ومدبرة بريح واحدة. ﴿لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ تطلبوا من فضل الله تعالى بالتجارة والتنقل فيها. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي لتشكروا الله على ما أنعم عليكم به من ذلك.

﴿يُولِجُ﴾ يدخل ، فيزيد في كل من الليل والنهار بالنقص من الآخر. ﴿سَخَّرَ﴾ أجرى. ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ كل منهما يسير في فلكه هي مدة دورانه ، أو منتهاه ، وقيل : إلى يوم القيامة. ﴿ذلِكُمُ﴾ الفاعل لهذه الأفعال. ﴿اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ أي هذا الصانع لما تقدم هو الخالق المقدر ، والقادر المقتدر ، المالك للعالم ، والمتصرف فيه. ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي تعبدون من غيره وهم الأصنام. ﴿ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ القطمير : لفافة النواة ، أي القشرة البيضاء الرقيقة التي تكون على النواة ـ البزرة. وهذا دليل التفرد بالألوهية والربوبية.

﴿لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ﴾ لأنهم جماد. ﴿وَلَوْ سَمِعُوا﴾ على سبيل الفرض. ﴿مَا اسْتَجابُوا لَكُمْ﴾ ما أجابوكم. ﴿يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ أي يجحدون بإشراككم إياهم مع الله ، وعبادتكم لهم ، والمعنى : يتبرءون منكم ومن عبادتكم إياهم. ﴿وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ أي ولا يخبرك بالأمر ، ويعلمك بأحوال الدارين مخبر مثل الخبير العالم به ، وهو الله تعالى.

المناسبة :

بعد إيراد أدلة إثبات البعث ، أورد الله تعالى الأدلة والبراهين الدالة على وحدانيته وعظيم قدرته ، بخلقه أشياء متحدة الجنس ، لكنها مختلفة المنافع ، من الماء الواحد ، والليل والنهار ، والشمس والقمر. وأردفه بالرد على عبدة الأصنام التي لا تملك شيئا ، ولا تسمع دعاء ، ولا تجيب نداء ، وتتبرأ من عابديها يوم القيامة.

التفسير والبيان :

نبّه الله تعالى على قدرته العظيمة في خلقه الأشياء المختلفة ، فقال عن اختلاف البحرين:

﴿وَما يَسْتَوِي الْبَحْرانِ : هذا عَذْبٌ فُراتٌ سائِغٌ شَرابُهُ ، وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ﴾ أكثر المفسرين على أن المراد من الآية ضرب المثل في حق الكفر والإيمان ، أو الكافر والمؤمن ، فالإيمان لا يتساوى مع الكفر في الحسن والنفع ، كما لا يتساوى البحران العذب الفرات ، والملح الأجاج ، وقال الرازي : والأظهر أن المراد منه ذكر دليل آخر على قدرة الله تعالى ، وذلك من حيث إن البحرين يستويان في الصورة ، ويختلفان في الماء ، فإن أحدهما عذب فرات ، والآخر ملح أجاج.

والمعنى : لا يتساوى ولا يتشابه البحران في الحقيقة ، فأحدهما عذب الماء شديد العذوبة ، سائغ الشراب ، يجري في الأنهار بحسب الحاجة إليها في الأقاليم والأمصار ، وثانيهما ملح شديد الملوحة ، وهو البحر الساكن الذي تسير فيه السفن الكبار.

وبعد اختلافهما في هذا يتشابهان في أمور : مثل أخذ اللحم الطري والحلية منهما ، والذي يوجد في المتشابهين اختلافا وفي المختلفين تشابها لا يكون إلا قادرا مختارا ، فقال تعالى :

﴿وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا ، وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها﴾ أي يصاد السمك من كل منهما ، وتستخرج الحلية الملبوسة منهما ، وهو اللؤلؤ والمرجان ، كما قال عزّ وجلّ : ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجانُ ، فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾ [الرحمن ٥٥ / ٢٢ ـ ٢٣].

﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَواخِرَ ، لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي تبصر أيها الناظر السفن في البحر شاقّة الماء ، مقبلة مدبرة ، حاملة المؤن

والأقوات وأنواع التجارة من قطر إلى آخر ، لتطلبوا بأسفاركم بالتجارة بين البلدان من فضل الله ، لتشكروا الله أو شاكرين ربكم على تسخيره لكم هذا البحر العظيم ، وعلى ما أنعم به عليكم من النعم ، فإنكم تتصرفون في البحر كيف شئتم ، وتذهبون أين أردتم دون عائق ولا مانع ، بل بقدرته تعالى قد سخر لكم جميع ما في السموات والأرض من فضله ورحمته.

ثم ذكر تعالى دليلا آخر على قدرته التامة وهو اختلاف الأزمنة ، فقال :

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ ، وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أي يدخل أحدهما في الآخر فيكون أطول منه ، فيزيد في زمن كل منهما بالنقص من الآخر ، فيطول هذا ويقصر هذا ، ثم يتقارضان صيفا وشتاء.

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي سيّر الشمس والقمر وبقية الكواكب السيّارة ، والثوابت الثاقبة بإرادته وقدرته ، يجري كل منهما بمقدار معين ، ومنهاج مقنن ، ومدة محددة هي زمن مدارها أو منتهاها ، لتعلموا عدد السنين والحساب ، وقيل : ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي إلى يوم القيامة.

﴿ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ ، لَهُ الْمُلْكُ﴾ أي الذي فعل هذا من خلق السموات والأرض وخلق الإنسان من تراب وغير ذلك هو الرب العظيم ، الذي لا إله غيره ، وهو صاحب الملك التام ، والقدرة الشاملة ، والسلطان المطلق ، وكل من عداه عبد له.

ثم أبان تعالى في مقابل ذلك ما ينافي صفة الألوهية ، فقال :

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ أي والذين تعبدونهم من الأصنام والأوثان التي هي على صورة من تزعمون من الملائكة المقربين ،

لا يملكون شيئا من السموات والأرض ، ولو كان حقيرا بمقدار هذا القطمير ، وهو قشرة النواة الرقيقة.

ثم أبطل ما يقولون : إن في عبادة الأصنام عزة ، وأبان عجزها وضعفها وحقارتها ، فقال:

﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ ، وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجابُوا لَكُمْ﴾ أي إن تدعوا هذه الآلهة من دون الله تعالى لا تسمع دعاءكم ؛ لأنها جماد لا تدرك شيئا ، ولو سمعوا لم يقدروا أن ينفعوكم بشيء مما تطلبون منها ، لعجزها عن ذلك ، فهي لا تضر ولا تنفع ولا تغني شيئا ، فكيف تعبدونها؟!

﴿وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ أي وفي اليوم الآخر يجحدون كون ما فعلتموه حقا ، وينكرون أنهم أمروكم بعبادتهم أو أقروكم عليها ، ويتبرءون منكم ، كما قال تعالى : ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ ، وَهُمْ عَنْ دُعائِهِمْ غافِلُونَ. وَإِذا حُشِرَ النَّاسُ كانُوا لَهُمْ أَعْداءً ، وَكانُوا بِعِبادَتِهِمْ كافِرِينَ﴾ [الأحقاف ٤٦ / ٥ ـ ٦] وقال تعالى : ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ، كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ ، وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم ١٩ / ٨١ ـ ٨٢].

وتقريرا عاما لهذه المعاني ، وتأكيدا لهذه الأخبار ، قال تعالى :

﴿وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ أي ولا يخبرك عن أمر هذه الآلهة وعن أمر عبدتها يوم القيامة ، أو لا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها إلا خبير بصير بها ، وهو الله تعالى الذي لا تخفى عليه خافية في الحال أو في الاستقبال ، وقد أخبر بالواقع لا محالة.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ من أدلة القدرة الإلهية العظيمة الدالة على وحدانية الخالق خلق الأشياء المتفاوتة ، التي منها خلق البحرين : العذب الزلال وهو الأنهار ، والملح الأجاج وهو البحار ، ومع اختلافهما وتمايزهما حينما يتجاوران ، فيهما تشابه بوجود الأسماك في كل منهما ، واستخراج الحلية وهي اللؤلؤ والمرجان منهما ، أي من اختلاطهما وتمازجهما ونزول مطر السماء ، وإن كانت الحلية من البحر المالح.

٢ ـ في قوله تعالى : ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ دليل على أن لباس كل شيء بحسبه ، فالخاتم يجعل في الإصبع ، والسوار في الذراع ، والقلادة في العنق ، والخلخال في الرّجل.

٣ ـ من نعم الله تعالى ودليل قدرته : تسيير السفن في البحر ، لتبادل التجارات بين الأقطار البعيدة في مدة قريبة ، وكسب الأرزاق ، الذي يستدعي الشكر على ما آتانا الله من فضله وعلى تسخيره البحر للانتقال فيه ، وحرية الحركة في أنحائه.

٤ ـ ومن أدلة القدرة الإلهية أيضا : اختلاف الأزمنة بتعاقب الليل والنهار ، واختلاف الفصول ، وتفاوت زمن الليل والنهار صيفا وشتاء ، وتسيير الشمس والقمر وسائر الكواكب السيارة والثابتة في مدة دوران معينة تنتهي في اجتياز مدارها ، وبقائها على هذا النحو الدقيق إلى يوم القيامة.

٥ ـ إن صانع كل ما ذكر من خلق السموات والأرض ، وإنزال الغيث ، وخلق الإنسان من تراب ، وإيجاد الماء العذب والماء الملح وما يحققان من ثروة مائية ومعدنية ونفطية وحلي ، ودورة الأرض واختلاف الليل والنهار بين نصفي

الكرة الأرضية ، وفي النصف الواحد في مدار السنة وغير ذلك ، إن هذا الصانع هو الخالق المدبر ، والقادر المقتدر ، والمالك القاهر ، فهو الذي يستحق أن يعبد.

٦ . ما أقل عقول الوثنيين وما أبسطها حين يعبدون الأصنام الصماء من الحجارة والمعادن وغيرها ، وهي لا تقدر على شيء ولا على خلقه ، ولا تنفع ولا تضر ، ولا تبصر ولا تسمع ، فلا تغيث أحدا إذا استغاث بها ؛ لأنها جمادات ، ولا تجيب إن ناداها عبّادها ؛ لأنها لا تنطق. والداهية العظمى أنها يوم القيامة تتبرأ من عابديها ، وتنكر أفعالهم ، وتتنصل من تبعة المسؤولية الموجهة إليهم ، والله أصدق مخبر بذلك.

سبب العبادة والمسؤولية الشخصية

وانتفاع العابدين بالإنذار

﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَما ذلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ (١٧) وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلى حِمْلِها لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى إِنَّما تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّما يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ (١٨)﴾

البلاغة :

﴿يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ﴾ بينهما طباق.

﴿وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ﴾ بينهما جناس الاشتقاق ، وكذا ﴿حِمْلِها لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾.

المفردات اللغوية :

﴿أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللهِ﴾ المحتاجون إليه في جميع أمور الدين والدنيا ، وفي كل حال على الإطلاق. وتعريف الفقراء للمبالغة في فقرهم كأنهم لشدة افتقارهم وكثرة احتياجهم هم الفقراء.

﴿وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ على الإطلاق عن خلقه. ﴿الْحَمِيدُ﴾ المستحق للحمد من عباده بإحسانه إليهم ، المحمود في صنعه بهم.

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ إن يشأ يفنكم ، ويأت بقوم آخرين من جنسكم بدلكم ، أطوع منكم ، أو من جنس آخر غير ما تعرفونه. ﴿وَما ذلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي وما ذلك الإذهاب لكم والإتيان بآخرين بمتعذر ولا بمتعسر على الله تعالى.

﴿وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى﴾ أي لا تحمل نفس آثمة ذنب أو إثم نفس أخرى. ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلى حِمْلِها﴾ أي وإن تدع نفس مثقلة بالذنوب نفسا أخرى ، لتحمل عنها بعض الذنوب التي تحملها. ﴿لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ لم تحمل تلك المدعوة من تلك الذنوب شيئا. ﴿وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى﴾ أي ولو كان المدعو قريبا لها في النسب كالأب والابن ، فكيف بغير القريب؟! وهذا حكم مبرم من الله تعالى. ﴿إِنَّما تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾ يخافونه غائبا عنهم ؛ لأنهم المنتفعون بالإنذار. ﴿وَأَقامُوا الصَّلاةَ﴾ احتفلوا بأمرها ، وأداموها ، ولم يشتغلوا عنها بشيء مما يلهيهم. ﴿وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّما يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾ ومن تطهر من الشرك وغيره من المعاصي ، واستكثر من العمل الصالح ، فإنما يتطهر لنفسه ؛ لأن نفع ذلك مختص به ، كما أن وزر من تدنس بالذنب لا يكون إلا عليه. ﴿وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ﴾ إلى الله المرجع والمآل ، فيجزي على تزكيهم وعملهم في الآخرة.

المناسبة :

بعد بيان كون العبادة واجبة لله تعالى ؛ لأنه المالك المطلق ، والأصنام لا تملك شيئا ، أبان الله تعالى حكمة العبادة للرد على الكفار القائلين بأن أمر الله بالعبادة أمرا بالغا ، والتهديد الشديد على تركها ، لاحتياجه إلى عبادتنا. ثم أوضح أن كل إنسان مسئول عن نفسه فقط ، وأرشد إلى أن البشارة والإنذار إنما تنفع الذي يخشى الله بالغيب وأقام الصلاة.

التفسير والبيان :

يخبر الله تعالى عن غناه المطلق عمن سواه ، وافتقار جميع المخلوقات إليه ، فقال :

﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ ، أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللهِ ، وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أي يا أيها البشر جميعا ، أنتم المحتاجون إلى الله تعالى على الإطلاق ، في منح القدرة على الحياة والبقاء ، وفي جميع الحركات والسكنات ، وفي جميع أمور الدين والدنيا ، لذا فاعبدوه وحده ؛ لأن ثمرة العبادة عائدة إليكم وحدكم ، والله هو المنفرد بالغنى وحده لا شريك له عن عبادتكم وغيرها ، وهو المحمود المشكور على نعمه وعلى جميع ما يفعله ويقوله ويقدره ويشرعه. وذكر ﴿الْحَمِيدُ﴾ ليدل به على أنه الغني النافع بغناه خلقه ، الجواد المنعم عليهم ، المستحق بإنعامه عليهم أن يحمدوه.

ثم أبان غناه وقدرته التامة بإمكانه استبدالكم ، وأنه غير محتاج إليكم ، فقال :

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ، وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ، وَما ذلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي لو شاء لأفناكم أيها الناس ، وأتى بقوم غيركم ، يكونون أطوع منكم ، وأجمل وأحسن وأتم ، وما ذلك بصعب عليه ولا ممتنع ، بل هو يسير هيّن عليه.

وفي هذا تهديد ووعيد وتبديد لأوهامكم أنه لو أذهب البشر لزال ملكه وعظمته.

ثم دعاهم إلى النظر والتأمل في المستقبل ، وأخبرهم بمسؤولية كل إنسان يوم القيامة عن نفسه فقط دون غيره ، فقال :

﴿وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى﴾ أي ولا تحمل نفس آثمة أو مذنبة إثم أو ذنب نفس أخرى. وهذا لا يمنع مضاعفة الإثم للمضلين القادة ، كما قال تعالى : ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَأَثْقالاً مَعَ أَثْقالِهِمْ ، وَلَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَمَّا كانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت ٢٩ / ١٣].

﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلى حِمْلِها لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ ، وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى﴾ أي وإن طلبت نفس مثقلة بالأوزار والذنوب مساعدة نفس أخرى في حملها ، لتحمل

عنها بعض الذنوب ، لم تحمل تلك المدعوة من تلك الذنوب شيئا ، ولو كانت قريبة لها في النسب كالأب والابن ؛ لأن كل امرئ مشغول بنفسه وحاله ، وله من الهموم ما يغنيه.

ونظير الآية : ﴿لا يَجْزِي والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ، وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِدِهِ شَيْئاً﴾ [لقمان ٣١ / ٣٣] وقوله سبحانه : ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ، وَصاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس ٨٠ / ٣٤ ـ ٣٧].

قال عكرمة في قوله تعالى : ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلى حِمْلِها﴾ : هو الجار يتعلق بجاره يوم القيامة ، فيقول : يا رب سل هذا لم كان يغلق بابه دوني ، وإن الكافر ليتعلّق بالمؤمن يوم القيامة ، فيقول له : يا مؤمن ، إن لي عندك يدا ، قد عرفت كيف كنت لك في الدنيا ، وقد احتجت إليك اليوم ، فلا يزال المؤمن يشفع له عند ربه ، حتى يرده إلى منزل دون منزله ، وهو في النار ، وإن الوالد ليتعلق بولده يوم القيامة ، فيقول : يا بني ، أي والد كنت لك؟ فيثني خيرا ، فيقول له : يا بني ، إني قد احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك أنجو بها مما ترى ، فيقول له ولده : يا أبت ، ما أيسر ما طلبت ، ولكني أتخوف مثل ما تتخوف ، فلا أستطيع أن أعطيك شيئا ، ثم يتعلق بزوجته ، فيقول : يا فلانة أو يا هذه ، أي زوج كنت لك؟ فتثني خيرا ، فيقول لها : إني أطلب إليك حسنة واحدة تهبينها لي لعلي أنجو بها مما ترين ، قال : فتقول : ما أيسر ما طلبت ، ولكني لا أطيق أن أعطيك شيئا ، إني أتخوف مثل الذي تتخوف ، يقول الله تعالى : ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلى حِمْلِها﴾ الآية.

ثم أبان الله تعالى من يجدي عنده الإنذار ، فقال :

﴿إِنَّما تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ﴾ أي إنما يتعظ بما جئت به أيها الرسول أولو البصيرة والعقل الذين يخافون من عذاب ربهم قبل

معاينته أو في خلواتهم عن الناس ، ويفعلون ما أمرهم به ، ويقيمون الصلاة المفروضة عليهم على النحو الأتم المشروع ، إقامة فيها احتفال بأمرها ، وبعد عن الاشتغال بغيرها.

ثم ذكر الله تعالى أن فائدة العبادة تعود عليهم ، فقال :

﴿وَمَنْ تَزَكَّى ، فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ ، وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ﴾ أي ومن تطهر من الشرك والمعاصي ، وعمل صالحا ، فإنما يتطهر لنفسه ؛ لأن نفع ذلك يعود على نفسه ، لا غيره ، وإلى الله المرجع والمآب ، وهو سريع الحساب ، وسيجزي كل عامل بعمله ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر.

فقه الحياة أو الأحكام :

يستفاد من الآيات ما يأتي :

١ ـ الناس قاطبة فقراء محتاجون إلى ربهم الخالق الرازق في بقائهم وكل أحوالهم ، والله هو الغني عن عباده ، المحمود على جميع أفعاله وأقواله ونعمه الكثيرة التي لا تحصى.

وغنى الله لا يعود عليه ، وإنما ينفع به عباده ، فاستحق الحمد التام والشكر الكامل من أعماق النفوس.

٢ ـ الله قادر على إفناء الخلق ، والإتيان بخلق جديد آخر أطوع منهم وأزكى ، وليس ذلك بممتنع عسير متعذر على الله تعالى.

٣ ـ من مفاخر الإسلام مبدأ ﴿وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى﴾ أي مبدأ المسؤولية الشخصية في الدنيا والآخرة ، فلا يسأل إنسان عن جريمة غيره ، ولا يتحمل امرؤ عقوبة جان آخر : ﴿قُلْ : لا تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنا ، وَلا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبأ ٣٤ / ٢٥].

٤ ـ كل إنسان في الآخرة مشغول بنفسه ، فلا يستطيع أن يتحمّل شيئا من آثام غيره ، ولو كان أقرب الناس لديه ، كالأب والابن وغيرهما.

٥ ـ إنما يقبل إنذار النبي ﷺ وإنذارات القرآن الكريم : من يخشى عقاب الله تعالى في السرّ والعلن وقبل معاينة العذاب ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ، وَخَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ﴾ [يس ٣٦ / ١١].

٦ ـ من تطهر من أدناس المعاصي فإنما يتطهر لنفسه ، ومن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ، وتظهر الفائدة في الآخرة ؛ إذ إلى الله مرجع جميع الخلق ، فيحاسبهم على ما فعلوا.

مثل المؤمن والكافر وإرسال الرسل في الأمم

﴿وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلا الظُّلُماتُ وَلا النُّورُ (٢٠) وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ (٢١) وَما يَسْتَوِي الْأَحْياءُ وَلا الْأَمْواتُ إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشاءُ وَما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٢٢) إِنْ أَنْتَ إِلاَّ نَذِيرٌ (٢٣) إِنَّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيها نَذِيرٌ (٢٤) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتابِ الْمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ (٢٦)﴾

البلاغة :

﴿الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ الظُّلُماتُ﴾ و ﴿النُّورُ الظِّلُ﴾ و ﴿الْحَرُورُ الْأَحْياءُ﴾ و ﴿الْأَمْواتُ﴾ بين كل طباق.

﴿وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ﴾ استعارة تصريحية ، استعار المشبه به وهو الأعمى للكافر ، لعدم الاهتداء إلى الطريق الصحيح ، واستعار البصير للمؤمن لاهتدائه إلى منهج الاستقامة ووضوح الطريق أمامه.

وزيادة ﴿لَا﴾ في الآيات [٢٠ ـ ٢٢] في المواضع الثلاثة للتأكيد.

﴿نَذِيرٌ بِالْكِتابِ الْمُنِيرِ فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ﴾ توافق الفواصل ذو التأثير في جمال الكلام والوقع على النفس.

المفردات اللغوية :

﴿الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ﴾ الأول : فاقد البصر ، والثاني له ملكة البصر ، والمراد تشبيه الكافر بالأعمى ، وتشبيه المؤمن بالبصير. ﴿الظُّلُماتُ﴾ و ﴿النُّورُ﴾ شبه الباطل بالظلمات ، وشبه الحق بالنور. ﴿الظِّلُ﴾ و ﴿الْحَرُورُ﴾ أراد بالظل الجنة وأراد بالحرور النار. و ﴿الْحَرُورُ﴾ السموم ، إلا أن السموم بالنهار ، والحرور بالليل والنهار. ﴿الْأَحْياءُ﴾ و ﴿الْأَمْواتُ﴾ شبه المؤمنين بالأحياء ، وشبه الكافرين بالأموات. ﴿إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشاءُ﴾ هدايته ، فيجيب بالإيمان. ﴿وَما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ أي الكفار ، شبههم بالموتى الذين لا يجيبون.

﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أي ما أنت إلا منذر لهم ، أو ما عليك إلا الإنذار والتبليغ ، أما الإسماع فليس إليك ، ولا قدرة لك عليه ؛ لأن الهدى والضلالة بيد الله عزوجل. ﴿إِنَّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِ﴾ أي إرسالا مصحوبا بالحق ، وهو الهدى ، فيشمل المرسل والمرسل ، فكلاهما محق. ﴿بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ مبشرا من أجابك بالجنة ، ومنذرا من لم يجبك بالنار. ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ﴾ أي ما من جماعة كثيرة أو أهل عصر. ﴿إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ﴾ سلف ومضى فيها منذر مخوف من نبي أو عالم ينذر عنه ، واكتفى بالنذير ؛ لأن الإنذار قرين البشارة ، سيما وقد قرن به من قبل ، أو لأن الإنذار هو المقصود الأهم من البعثة.

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي إن يكذبك أهل مكة فقد كذبت الأمم الماضية أنبياءهم. ﴿بِالْبَيِّناتِ﴾ المعجزات الدالة على صدقهم في نبوتهم. ﴿وَبِالزُّبُرِ﴾ أي الكتب المكتوبة ، كصحف إبراهيم ، جمع زبور : أي كتاب ، والكتاب : ما فيه شرائع وأحكام. ﴿أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بتكذيبهم. ﴿فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ﴾ فكيف كان إنكاري عليهم بالعقوبة والإهلاك.

المناسبة :

بعد بيان طريق الهدى وطريق الضلالة ، واهتداء المؤمن الذي يخاف ربه ،

وجحود الكافر المعاند ، ضرب الله تعالى الأمثال للكافر والمؤمن ، وللباطل والحق ، وللجنة والنار ، وللمؤمنين والكافرين ، وعدّد الأمثلة ، للتعريف بأن المؤمن بصير الطريق ، والكافر أعمى الطريق ، وأن الإيمان نور فلا يخفى على المؤمن ، والكفر ظلمة فيزيد الأعمى حيرة ، ثم ذكر مآلهما ومرجعهما ، فالمؤمن بإيمانه في ظل وراحة ، والكافر بكفره في حر وتعب ، ثم جعل الكافر أسوأ حالا من الأعمى فشبهه بالميت ؛ لأنه غير مدرك إدراكا نافعا ، فهو كالميت ، أما الأعمى فقد يدرك شيئا ما كالبصير. ثم أوضح تعالى أن الهداية بيده يمنحها من يشاء ، ولكنه لم يترك سبيلا لأحد بالاعتذار ، فقد أرسل الرسل والأنبياء في كل أمة من الأمم ، فمن آمن نجا ، ومن عصى عذب في النار.

التفسير والبيان :

﴿وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ ، وَلَا الظُّلُماتُ وَلَا النُّورُ ، وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ﴾ هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمنين وللكافرين ، فكما لا تستوي هذه الأشياء المتباينة المختلفة في حقيقتها وفائدتها ، كذلك لا يتساوى الكافر الذي عمي عن دين الله ، والمؤمن الذي عرف طريق الرشاد فاتبعه وانقاد له ، ولا تتساوى ظلمات الكفر ونور الإيمان ، أو الباطل والحق ، ولا يتساوى الثواب والعقاب أو الجنة والنار.

فالمؤمن سميع بصير يمشي في نور على صراط مستقيم في الدنيا والآخرة ، حتى يستقر به الحال في الجنات ذات الظلال الوارفة والعيون المتدفقة ، والكافر أصم أعمى يمشي في ظلمات لا خروج له منها ، بل يتيه في غيه وضلاله في الدنيا والآخرة ، حتى ينتهي به الأمر إلى الحرور والسموم والحميم.

﴿وَما يَسْتَوِي الْأَحْياءُ وَلَا الْأَمْواتُ﴾ أي ولا يتساوى المؤمنون أحياء القلوب والنفوس والمشاعر ، والكافرون أموات القلوب والحواس.

فهذه أمثال للمؤمن والإيمان والعاقبة ، والكافر والكفر والمصير ، كما قال تعالى : ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمى وَالْأَصَمِّ ، وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ، هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً﴾؟! [هود ١١ / ٢٤] وقال عَزَّوَجَلَّ : ﴿أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ ، وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ، كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها﴾ [الأنعام ٦ / ١٢٢]. قال قتادة : هذه كلها أمثال ؛ أي كما لا تستوي هذه الأشياء ، كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن.

ثم بيّن تعالى مصدر الهداية ، فقال :

﴿إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشاءُ ، وَما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ أي إن الله يهدي من يشاء إلى سماع الحجة وقبولها والانقياد لها ، وكما لا ينتفع الأموات بعد موتهم وصيرورتهم إلى قبورهم ، وهم كفار ، بالهداية والدعوة إليها ، كذلك هؤلاء المشركون لا تستطيع أيها النبي هدايتهم ؛ لأن الكفر أمات قلوبهم.

وأما مهمة الرسول فهي :

﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أي ما أنت إلا رسول منذر عذاب الله ، ليس عليك إلا الإنذار والتبليغ ، أما الهدى والضلالة فهي بيد الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿إِنَّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ أي أرسلناك أيها الرسول إرسالا مصحوبا بالحق ، والمرسل محق ، وكذا المرسل محق ، مبشرا المؤمنين أهل الطاعة بالجنة ، ومنذرا الكافرين أهل المعصية بالنار.

والإرسال منهج عام في البشرية ، فقال تعالى :

﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ﴾ أي ما من أمة من بني آدم سبقت إلا وقد بعث الله إليهم النذر ، وأزاح عنهم العلل ، كما قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ ، وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ، فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ﴾ [النحل ١٦ / ٣٦].

ثم سلّى رسوله ﷺ عما يلقاه من صدود قومه وتكذيبهم وإعراضهم عن دعوته ، فقال:

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتابِ الْمُنِيرِ﴾ أي وإن يكذبك أيها الرسول قومك فقد كذبت الأمم الماضية من قبلهم أنبياءهم ، جاءتهم رسلهم بالمعجزات الواضحة والأدلة القاطعة ، وبالكتب المكتوبة كصحف إبراهيم ، وبالكتاب الواضح البيّن ، كالتوراة والإنجيل. وكرر الزبر والكتاب ، وهما واحد ، لاختلاف اللفظين.

ثم هدد مخالفيه وأوعدهم بالعقاب ، فقال :

﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ﴾ أي ومع كل هذه الأدلة كذب أولئك رسلهم فيما جاءوهم به ، فأخذتهم بالعقاب والنكال ، فكيف رأيت إنكاري عليهم شديدا بليغا؟!

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يأتي :

١ ـ لا مساواة بين الكافر والمؤمن والجاهل والعالم ، ولا بين الكفر والإيمان أو الحق والباطل ، ولا بين الثواب والعقاب أو الجنة والنار ، ولا بين العقلاء والجهال أو أحياء القلوب وأموات القلوب.

٢ ـ إن الله يسمع أولياءه الذين خلقهم لجنته ، ويهدي أحباءه لطاعته ، ولن يستطيع النبي إسماع الكفار الذين أمات الكفر قلوبهم ؛ أي كما لا يسمع من مات ، كذلك لا يسمع من مات قلبه. والمراد بالآية : أن الكفار الذين حجبوا نور الهداية عن قلوبهم هم بمنزلة أهل القبور في أنهم لا ينتفعون بما يسمعونه ولا يقبلونه.

٣ . ما الرسول إلا مجرد رسول منذر ، فليس عليه إلا التبليغ ، ليس له من الهدى شيء ، إنما الهدى بيد الله تبارك وتعالى.

٤ . أرسل الله رسوله ﷺ بالهدى ودين الحق ، بشيرا بالجنة أهل طاعته ، ونذيرا بالنار أهل معصيته.

٥ . لم تخل أمة من نبي أو رسول ينذرها ويبشرها.

٦ . سلّى الله رسوله ﷺ عما يلقاه من تكذيب كفار قريش ، بأن الأمم السابقة كذبوا أنبياءهم ، بالرغم من تأييد صدقهم بالمعجزات الظاهرات والشرائع الواضحات ، وبالكتب المكتوبة ، وبالكتاب المنير ، وكانت نتيجة التكذيب عقوبة الاستئصال.

العلوم العملية الطبيعية

دليل آخر على وحدانية الله وقدرته وحال العلماء أمام

مشاهد الكون

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ ثَمَراتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوانُها وَمِنَ الْجِبالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُها وَغَرابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ كَذلِكَ إِنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨) إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتابَ اللهِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجارَةً لَنْ تَبُورَ (٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠)﴾

الإعراب :

﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ﴾ هاء ﴿أَلْوانُهُ﴾ تعود على موصوف محذوف ، تقديره : خلق مختلف ألوانه ، فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه ، هي في موضع رفع بالابتداء ، والجار والمجرور قبله : خبره. و ﴿أَلْوانُهُ﴾ فاعل مختلف ؛ لأنه اسم فاعل يعمل عمل الفعل.

﴿يَرْجُونَ تِجارَةً﴾ خبر إن. و ﴿لَنْ تَبُورَ﴾ صفة للتجارة.

البلاغة :

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً ، فَأَخْرَجْنا﴾ التفات من الغيبة إلى التكلم ، بدلا من «أخرج» للدلالة على كمال قدرة الله وحكمته.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً﴾ استفهام تقريري ، فيه معنى التعجب.

﴿إِنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ﴾ قصر صفة على موصوف ، قصر الخشية على العلماء.

﴿يَرْجُونَ تِجارَةً لَنْ تَبُورَ﴾ استعارة ، استعار التجارة للمعاملة مع الله لنيل ثوابه ، وشبهها بالتجارة الدنيوية ، وأيدها بقوله : ﴿لَنْ تَبُورَ﴾ وهو الذي يسمى ترشيحا.

﴿عَزِيزٌ غَفُورٌ لَنْ تَبُورَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ توافق الفواصل من عناصر جمال الكلام.

المفردات اللغوية :

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تعلم فهذه رؤية القلب والعلم. ﴿مُخْتَلِفاً أَلْوانُها﴾ أجناسها أو أصنافها أو هيئاتها من أصفر وأحمر وأخضر وأبيض وأسود ونحو ذلك. ﴿جُدَدٌ﴾ أي ذو جدد ، أي طرائق وخطوط في الجبال وغيرها ، جمع جدة : وهي الخطة أو الطريقة المختلفة الألوان في الجبل ونحوه. ﴿بِيضٌ وَحُمْرٌ﴾ أي وصفر ونحوها. ﴿مُخْتَلِفاً أَلْوانُها﴾ بالشدة والضعف. ﴿وَغَرابِيبُ سُودٌ﴾ معطوف على جدد ، أي صخور شديدة السواد ، وأصل اللفظ : وسود غرابيب ، والعرب تقول كثيرا للشديد السواد المشابه لون الغراب : أسود غربيب ، وقليلا : غربيب أسود.

﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ كَذلِكَ﴾ كاختلاف الثمار والجبال. ﴿إِنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ﴾ بخلاف الجهال كأهل مكة ؛ إذ شرط الخشية معرفة المخشي والعلم بصفاته وأفعاله ، فمن كان أعلم به كان أخشى منه ، ولذلك قال ﷺ فيما أخرجه البخاري ومسلم والنسائي عن أنس : «إني لأخشاكم لله وأتقاكم له».

﴿عَزِيزٌ﴾ غالب قاهر. ﴿غَفُورٌ﴾ لذنوب عباده التائبين المؤمنين. والجملة : ﴿إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ تعليل لوجوب الخشية.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتابَ اللهِ﴾ يستمرّون على تلاوة القرآن الكريم. ﴿وَأَقامُوا الصَّلاةَ﴾ أداموا إقامتها في أوقاتها ، مع كمال أركانها وأذكارها. ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً﴾ فيه حث على الإنفاق

كيفما تهيأ ، لكن السر أفضل من العلانية. ﴿يَرْجُونَ تِجارَةً﴾ أي تحصيل ثواب الطاعة. ﴿لَنْ تَبُورَ﴾ لن تكسد ولن تهلك بالخسران.

سبب نزول الآية (٢٩):

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ ..﴾ : أخرج عبد الغني بن سعيد الثقفي في تفسيره عن ابن عباس أن حصين بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف القرشي نزلت فيه : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتابَ اللهِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ﴾ الآية.

المناسبة :

هذا دليل آخر على وحدانية الله وقدرته من مشاهد الكون المختلفة الأجناس والألوان ، ضمّنه أن العلماء في العلوم الكونية أقدر الناس على إدراك عظمة الكون. فيكونون هم أخشى الناس لله ، ثم أردفه ببيان حال العلماء العاملين بكتاب الله ، فهم الذين يرجون ثواب الله على طاعتهم.

التفسير والبيان :

ينبه الله تعالى على كمال قدرته في خلقه الأشياء المتنوعة من الشيء الواحد ، وهو الماء الذي ينزله من السماء ، فيخرج به ثمرات مختلفا ألوانها ، فقال :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً ، فَأَخْرَجْنا بِهِ ثَمَراتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوانُها﴾ أي ألم تشاهد أيها الإنسان أن الله تعالى خلق الأشياء المختلفة من الشيء الواحد ، فأنزل الماء من السماء ، وأخرج به ثمارا مختلفة الأجناس والأنواع والطعوم والروائح والألوان من أصفر وأحمر وأخضر وأبيض وأسود ونحو ذلك ، كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ ، وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ ، وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوانٌ وَغَيْرُ صِنْوانٍ ، يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ ، وَنُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد ١٣ / ٤].

﴿وَمِنَ الْجِبالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُها ، وَغَرابِيبُ سُودٌ﴾ أي وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان كما هو مشاهد من بيض وحمر ، وفي بعضها طرائق وهي الجدد مختلفة الألوان أيضا.

﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ كَذلِكَ﴾ أي وخلق أيضا خلقا آخر من الناس والدواب والأنعام التي هي الإبل والبقر والغنم مختلفة الألوان في الجنس الواحد ، بل وفي النوع الواحد ، وفي الحيوان الواحد ، كاختلاف الثمار والجبال. وقوله : ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ﴾ ، أي خلق مختلف ألوانه ، كما قال تعالى : ﴿وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوانِكُمْ﴾ [الروم ٣٠ / ٢٢]. والدواب : كل ما دب على القوائم ، و ﴿الْأَنْعامِ﴾ من باب عطف الخاص على العام. وكلمة ﴿كَذلِكَ﴾ هنا تمام الكلام ، أي كذلك تختلف أحوال العباد في الخشية.

وإنما ذكر سبحانه اختلاف الألوان والأصباغ في هذه الأشياء ؛ لأن هذا الاختلاف من أعظم الأدلة على قدرة الله وبديع صنعه ، فذكر أولا اختلاف الألوان في ثمار النبات ، ثم ذكر اختلاف الألوان في الجمادات ، ثم في الناس والحيوان.

أخرج الحافظ أبو بكر البزار عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : جاء رجل إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم ، فقال : أيصبغ ربك؟ قال صلّى الله عليه وسلّم : نعم صبغا لا ينفض ، أحمر وأصفر وأبيض».

ثم ذكر مستأنفا من يعرف جمال ذلك ودقائقه وهم العلماء فقال :

﴿إِنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ ، إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ أي إنما يخاف الله بالغيب العالمون به ، وبما يليق به من صفاته الجليلة وأفعاله الجميلة ، ومنها عظيم قدرته على صنع ما يشاء وفعل ما يريد ، فمن كان أعلم بالله ، كان أخشاهم له ،

ومن لم يخش الله فليس بعالم. والمراد به العالم بعلوم الطبيعة والحياة وأسرار الكون. وسبب خشية العلماء من الله أن الله قوي في انتقامه من الكافرين ، غفور لذنوب المؤمنين به التائبين إليه ، والمعاقب والمثيب حقه أن يخشى ، وهذا يوجب الخوف والرجاء ، فكونه عزيزا ذا انتقام يوجب الخوف التام ، وكونه غفورا لما دون ذلك يوجب الرجاء البالغ ، وهذا كله يدركه بدقة وشمول العلماء المتخصصون.

قال ابن عباس : العالم بالرحمن : من لم يشرك به شيئا ، وأحلّ حلاله ، وحرّم حرامه ، وحفظ وصيته ، وأيقن أنه ملاقيه ، ومحاسب بعمله.

وقال الحسن البصري : العالم : من خشي الرحمن بالغيب ، ورغب فيما رغّب الله فيه ، وزهد فيما سخط الله فيه ، ثم تلا الآية : ﴿إِنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ ، إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾.

وقال سعيد بن جبير : الخشية : هي التي تحول بينك وبين معصية الله عزّوجلّ .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : ليس العلم عن كثرة الحديث ، ولكن العلم عن كثرة الخشية. وقال مالك : إن العلم ليس بكثرة الرواية ، وإنما العلم نور يجعله الله في القلب.

ثم أخبر الله تعالى عن العلماء بكتاب الله العاملين به ، فقال :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتابَ اللهِ ، وَأَقامُوا الصَّلاةَ ، وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجارَةً لَنْ تَبُورَ﴾ أي إن الذين يواظبون على تلاوة القرآن الكريم ويعملون بما فيه من فرائض ، كإقام الصلاة المفروضة في أوقاتها ، مع كمال أركانها وشرائطها والخشوع فيها ، والإنفاق مما أعطاهم الله تعالى من فضله ليلا ونهارا ، سرا وعلانية ، هؤلاء يطلبون ثوابا من الله على طاعتهم ، لا بد من حصوله ، لذا قال :

﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أي ليوفيهم الله ثواب ما عملوه ، ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم ، إنه غفور لذنوبهم ، شكور لطاعتهم وللقليل من أعمالهم.

ونظير الآية قوله : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ، وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء ٤ / ١٧٣] وقوله : ﴿رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ ..﴾ إلى قوله : لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا ، وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ..﴾ [النور ٢٤ / ٣٧ ـ ٣٨].

فقه الحياة أو الأحكام :

يفهم من الآيات ما يلي :

١ ـ من أدلة قدرة الله العظمى ووحدانيته واختياره : إنزال الماء من السماء ، وإنبات النباتات ، وإخراج الثمار المختلفة الأنواع والطعوم والروائح والألوان.

٢ ـ ومن الأدلة أيضا : إرساء الأرض بالجبال ، وخلق طرق مختلفة الألوان فيما بينها تخالف لون الجبل ، وإن كان الجميع حجرا أو ترابا.

٣ ـ ومنها أيضا خلق الناس والدواب والأنعام مختلفة الألوان ، ففيهم الأحمر والأبيض والأسود والأصفر وغير ذلك ، وكل ذلك دليل على وجود صانع مختار ، واحد لا شريك له.

٤ ـ إن العلماء بطبيعة تركيب الكون ودقائقه ، وبصفات الله وأفعاله ، هم الذين يخافون قدرته ، فمن علم أنه عزوجل قدير أيقن بمعاقبته على المعصية ، ومن لم يخش الله فليس بعالم ، كما قال الربيع بن أنس ، والخشية بمعرفة قدر المخشي ، والعالم يعرف الله فيخافه ويرجوه. وهذا دليل على أن العالم أعلى درجة من العابد ؛ لأن الله بين أن الكرامة بقدر التقوى ، والتقوى بقدر العلم.

أخرج البخاري ومسلم عن عائشة أن النبي ﷺ قال : «ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه ، فو الله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية».

٥ ـ آية ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتابَ اللهِ﴾ : هذه آية القراء العالمين بكتاب الله العاملين بما فيه ، الذين يقيمون صلاة الفرض والنفل ، وينفقون مما رزقهم الله سرا وعلانية ، هؤلاء هم الذين يبتغون تحصيل الثواب من الله على طاعاتهم ، ويزيدهم الله من فضله ، والزيادة هي الشفاعة في الآخرة ، إن الله عند إعطاء الأجور غفور للذنوب ، وعند إعطاء الزيادة شكور يقبل القليل من العمل الخالص ، ويثيب عليه الجزيل من الثواب.

وقوله : ﴿يَرْجُونَ تِجارَةً لَنْ تَبُورَ﴾ إشارة إلى الإخلاص ، أي ينفقون لا ليقال : إنه كريم ، ولا لشيء من الأشياء غير وجه الله تعالى.

تصديق القرآن لما تقدمه وأنواع ورثته وجزاء المؤمنين

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللهَ بِعِبادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١) ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ بِإِذْنِ اللهِ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ (٣٣) وَقالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنا دارَ الْمُقامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنا فِيها نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنا فِيها لُغُوبٌ (٣٥)﴾

الإعراب :

﴿مُصَدِّقاً﴾ حال مؤكدة ؛ لأن الحق لا ينفك عن هذا التصديق.

﴿ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ذلِكَ﴾ : مبتدأ ، و ﴿الْفَضْلُ﴾ : خبره ، و ﴿هُوَ﴾ : ضمير فصل بين المبتدأ والخبر. و ﴿الْكَبِيرُ﴾ : صفة الخبر ، ويصح القول : ﴿ذلِكَ﴾ مبتدأ أول ، و ﴿هُوَ﴾ مبتدأ ثان ، و ﴿الْفَضْلُ﴾ خبر المبتدأ الثاني ، والجملة منهما خبر المبتدأ الأول.

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ إما مبتدأ ، و ﴿يَدْخُلُونَها﴾ الخبر ، أو بدل من قوله : ﴿الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ ، أو خبر مبتدأ محذوف تقديره : هو جنات. و ﴿يُحَلَّوْنَ﴾ خبر ثان أو حال مقدرة.

﴿مِنْ أَساوِرَ﴾ جمع أسورة ، وهذا جمع سوار. و ﴿لُؤْلُؤاً﴾ معطوف على محل : ﴿مِنْ أَساوِرَ﴾.

﴿الَّذِي أَحَلَّنا .. الَّذِي﴾ في موضع نصب صفة اسم «إن» في قوله تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّنا﴾ ويصح جعله في موضع الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره : هو الذي ، أو خبر بعد خبر ، أو بدل من ضمير ﴿شَكُورٌ﴾.

البلاغة :

﴿لا يَمَسُّنا فِيها نَصَبٌ ، وَلا يَمَسُّنا فِيها لُغُوبٌ﴾ إطناب بتكرار الفعل ، للمبالغة في انتفاء كل من النصب واللغوب.

المفردات اللغوية :

﴿مِنَ الْكِتابِ﴾ القرآن ، و ﴿مِنَ﴾ للتبيين. ﴿لِما بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ تقدمه من الكتب. ﴿لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ عالم بالبواطن والظواهر. ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا﴾ أعطيناه وقضينا وقدرنا. ﴿الْكِتابَ﴾ القرآن. ﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا﴾ اخترناهم ، وهم علماء الأمة الإسلامية من الصحابة ومن بعدهم. ﴿ظالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ بالتقصير في العمل به ، والظلم : تجاوز الحدود. ﴿مُقْتَصِدٌ﴾ متوسط يعمل به في أغلب الأوقات. ﴿سابِقٌ بِالْخَيْراتِ﴾ يضم إلى العلم والتعليم ، والإرشاد إلى العمل. و ﴿سابِقٌ﴾ متقدم إلى ثواب الله ، و ﴿بِالْخَيْراتِ﴾ أي بسبب عمل الخيرات والأعمال الصالحة. ﴿بِإِذْنِ اللهِ﴾ بإرادته وتوفيقه. ﴿ذلِكَ﴾ توريثهم الكتاب والاصطفاء ، وقيل : السبق إلى الخيرات.

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ إقامة. ﴿أَساوِرَ﴾ جمع أسورة : وهي حلية تلبس في اليد. ﴿الْحَزَنَ﴾ الخوف من مخاطر المستقبل. ﴿لَغَفُورٌ﴾ للذنوب. ﴿شَكُورٌ﴾ للطاعة.

﴿دارَ الْمُقامَةِ﴾ أي دار الإقامة الدائمة وهي الجنة. ﴿نَصَبٌ﴾ تعب. ﴿لُغُوبٌ﴾ إعياء من التعب أو كلال ، ونفيهما جميعا للدلالة على الاستقلال ، ولعدم التكليف في الجنة.

سبب النزول :

نزول الآية (٣٥):

﴿الَّذِي أَحَلَّنا دارَ الْمُقامَةِ﴾ : أخرج البيهقي وابن أبي حاتم عن عبد الله بن أبي أوفى قال : «قال رجل للنبي ﷺ : إن النوم مما يقرّ الله به أعيننا في الدنيا ، فهل في الجنة من نوم؟ قال : لا ، إن النوم شريك الموت ، وليس في الجنة موت ، قال : فما راحتهم؟ فأعظم ذلك رسول الله ﷺ ، وقال : ليس فيها لغوب ، كل أمرهم راحة ، فنزلت : ﴿لا يَمَسُّنا فِيها نَصَبٌ ، وَلا يَمَسُّنا فِيها لُغُوبٌ﴾».

المناسبة :

بعد بيان الأصل الأول في العقيدة ، وهو وجود الله الواحد ، وإثباته بأنواع الأدلة ، وهي : ﴿وَاللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ وَاللهُ خَلَقَكُمْ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ﴾ ذكر الأصل الثاني وهو الرسالة ، فقال : ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ﴾.

ولما بيّن الله تعالى في الآية السابقة ثواب تلاوة كتاب الله ، أكد ذلك وقرره بأن هذا الكتاب حق وصدق ، فتاليه محق ومستحق لهذا الثواب ، وهو مصدق لما تقدمه من الكتب السابقة ، ثم قسم ورثته ثلاثة أنواع ، ثم أوضح جزاء العاملين به في الآخرة.

التفسير والبيان :

يبين الله تعالى مكانة القرآن ومهمته بين الكتب السماوية فقال :

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ ، إِنَّ اللهَ

بِعِبادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ أي إن الذي أوحينا إليك به يا محمد وهو القرآن هو الحق الثابت الدائم ، المصدق والموافق لما تقدمه من الكتب السماوية السابقة ، إن الله محيط بجميع أمور عباده ، يعلم أحوالها الباطنة والظاهرة ، يشرع لهم من الشرائع والأحكام المناسبة لكل زمان ومكان ، وقد أنزله على محمد ﷺ خاتم النبيين والمرسلين ، لما اقتضت حكمته وعدله.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا ، فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ ، وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ، وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ بِإِذْنِ اللهِ﴾ أي ثم قضينا وقدرنا بتوريث هذا القرآن من اخترنا من عبادنا ، وهم يا محمد علماء أمتك من الصحابة فمن بعدهم ، التي هي خير الأمم بنص الآية : ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران ٣ / ١١٠] وجعلناهم أقساما ثلاثة :

١ ـ الظالم لنفسه : بتجاوز الحد ، وهو المفرط في فعل بعض الواجبات ، المرتكب لبعض المحرمات.

٢ ـ المقتصد : المتوسط المؤدي للواجبات ، التارك للمحرمات ، لكنه قد يترك بعض المستحبات ، ويفعل بعض المكروهات.

٣ ـ السابق بالخيرات بإذن الله : وهو الذي يفعل الواجبات والمستحبات ، ويترك المحرمات والمكروهات وبعض المباحات. وهذا خير الثلاثة ، الذي سبق غيره في أمور الدين.

﴿ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ أي توريث الكتاب والاصطفاء فضل عظيم من الله تعالى.

ثم أبان الله تعالى جزاء المؤمنين السابقين بغير حساب والمقتصدين بحساب يسير ، والظالمين إن رحموا ، فقال :

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ، يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً ، وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ﴾ أي يدخل هؤلاء المصطفون جميعا جنات الإقامة الدائمة يوم المعاد ، التي يحلّون فيها أساور من ذهب مرصع باللؤلؤ ، ويكون لباسهم حريرا خالصا ، وقد أباحه الله تعالى لهم في الآخرة ، بعد أن كان محظورا عليهم في الدنيا. ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : «من لبس الحرير في الدنيا ، لم يلبسه في الآخرة» وقال : «هي لهم في الدنيا ، ولكم في الآخرة».

وعلى هذا تكون الآية عامة في جميع الأقسام الثلاثة في هذه الأمة ، والعلماء أغبط الناس بهذه النعمة ، وأولى الناس بهذه الرحمة.

أخرج أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن قيس بن كثير قال : قدم رجل من أهل المدينة إلى أبي الدرداء رضي الله عنه ، وهو بدمشق ، فقال : ما أقدمك أي أخي؟ قال : حديث بلغني أنك تحدّث به عن رسول الله ﷺ ، قال : أما قدمت لتجارة؟ قال : لا ، قال : أما قدمت لحاجة؟ قال : لا ، قال : أما قدمت إلا في طلب هذا الحديث؟ قال : نعم ، قال رضي الله عنه : فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول :

«من سلك طريقا يطلب فيها علما ، سلك الله تعالى به طريقا إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم ، وإنه ليستغفر للعالم من في السموات والأرض حتى الحيتان في الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب. إن العلماء هم ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورّثوا دينارا ولا درهما ، وإنما ورّثوا العلم ، فمن أخذ به ، أخذ بحظّ وافر».

﴿وَقالُوا : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ، إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أي وقالوا حين استقروا في مأواهم جنات عدن : الحمد والشكر والثناء على الله الذي أزال عنا الخوف من المحذور ، وأراحنا من هموم الدنيا والآخرة ، إن ربنا صاحب الفضل والرحمة والسعة ، فهو غفور لذنوب عباده ، شكور لطاعتهم.

روى الطبراني عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في الموت ، ولا في القبور ، ولا في النشور ، وكأني أنظر إليهم عند الصيحة ينفضون رؤوسهم من التراب يقولون : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ، إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾».

قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره : غفر لهم الكثير من السيئات ، وشكر لهم اليسير من الحسنات.

ثم حمدوه أيضا على نعمة البقاء والاستقرار في الجنة والراحة فيها ، فقال :

﴿الَّذِي أَحَلَّنا دارَ الْمُقامَةِ مِنْ فَضْلِهِ ، لا يَمَسُّنا فِيها نَصَبٌ ، وَلا يَمَسُّنا فِيها لُغُوبٌ﴾

أي يقولون : الذي أعطانا هذه المنزلة ، وهذا المقام الذي لا تحول عنه من فضله ومنّه ورحمته ، لم تكن أعمالنا تساوي ذلك ، كما ثبت في الصحيح لدى مسلم وأبي داود عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : «لن يدخل أحدا منكم عمله الجنة ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله تعالى برحمة منه وفضل» ولا نتعرض فيها لتعب ولا إعياء ، لا في الأبدان ولا في الأرواح ؛ إذ إنهم دأبوا على العبادة في الدنيا ، فصاروا في راحة دائمة مستمرة ، كما قال تعالى : ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِما أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخالِيَةِ﴾ [الحاقة ٦٩ / ٢٤].

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ القرآن الكريم هو الحق الصدق الثابت الذي لا شك فيه ، وهو الموافق والمصدق لأصول الكتب السماوية السابقة في صورتها الصحيحة قبل التحريف والتبديل ؛ لأن الله أعلم بما يحقق الحكمة والمصلحة والعدل.

٢ ـ علماء الأمة الإسلامية من الصحابة فمن بعدهم ممن اختارهم الله ورثوا

القرآن وضمنه كل كتاب منزل ؛ لأن الله شرفهم على سائر العباد ، وجعلهم أمة وسطا ليكونوا شهداء على الناس ، وأكرمهم بكونهم أمة خير الأنبياء وسيد ولد آدم.

٣ ـ قسم الله الأمة المسلمة بالنسبة للعمل بالقرآن ثلاثة أقسام : الظالم لنفسه : أصحاب الكبائر من أهل التوحيد ، والمقتصد الذي لم يصب كبيرة ، والسابق إلى الأعمال الصالحة.

٤ ـ وعد الله المصطفين جميعا أو السابقين إلى الخيرات جنات عدن يدخلونها ، متمتعين فيها بحلي الذهب المرصع باللؤلؤ ، مرتدين فيها الحرير الخالص. وهذا دليل سرورهم ومتعتهم.

٥ ـ يحمد الله هؤلاء المؤمنون الذين جعل مأواهم جنات عدن ودار الإقامة ، قائلين : الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن أي الخوف من محذور المستقبل ، لا يصيبنا فيها عناء ولا إعياء ولا مشقة.

وهذا إخبار ببقائهم في الجنان ودوامهم فيها على الاستمرار.

جزاء الكافرين وأحوالهم في النار وتهديدهم على كفرهم

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها كَذلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيها رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٣٧) إِنَّ اللهَ عالِمُ غَيْبِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (٣٨) هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ

كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتاً وَلا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَساراً (٣٩)﴾

الإعراب :

﴿لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا فَيَمُوتُوا﴾ : منصوب بأن مضمرة بعد النفي.

البلاغة :

﴿غَفُورٌ شَكُورٌ كَفُورٍ﴾ صيغ مبالغة ، وتوافق فواصل.

﴿فَذُوقُوا فَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ تهكم في صيغة أمر.

﴿وَلا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً ، وَلا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَساراً﴾ إطناب لزيادة التشنيع والتقبيح على الكافرين وكفرهم.

﴿وَجاءَكُمُ النَّذِيرُ ، فَذُوقُوا فَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ سجع عفوي فيه غاية الجمال.

المفردات اللغوية :

﴿لا يُقْضى عَلَيْهِمْ﴾ لا يحكم عليهم بموت ثان ﴿فَيَمُوتُوا﴾ يستريحوا من العذاب ﴿وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها﴾ بل كلما خبت زيد استعارها ﴿كَذلِكَ نَجْزِي﴾ مثل ذلك الجزاء ، أو كما جزيناهم ﴿كَفُورٍ﴾ كثير الكفر.

﴿يَصْطَرِخُونَ فِيها﴾ يستغيثون في النار بشدة وصوت عال ، من الصراخ : وهو الصياح ﴿رَبَّنا أَخْرِجْنا﴾ بإضمار : يقولون : أخرجنا منها ﴿نَعْمَلْ صالِحاً﴾ تقييد العمل بالصالح للتحسر على ما عملوه من غير الصالح ، والاعتراف به.

﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ﴾ جواب من الله وتوبيخ لهم ، معناه نجعلكم تعمرون وقتا أو نمهلكم ﴿ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾ أي أولم نعمركم وقتا كافيا للتذكر ، من أراد أن يتذكر ﴿وَجاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ الرسول ، فما أجبتم ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ الكافرين ﴿نَصِيرٍ﴾ معين يدفع عنهم العذاب.

﴿إِنَّ اللهَ عالِمُ غَيْبِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ لا تخفى عليه خافية ، فلا يخفى عليه أحوالهم ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾ بما في القلوب من العقائد والظنون ، وهو تعليل لما سبق ؛ لأنه إذا علم مضمرات الصدور ـ وهي أخفى ما يكون ـ كان علمه بغيرها أولى ، بالنظر إلى حال الناس.

﴿خَلائِفَ﴾ جمع خليفة ، يخلف بعضكم بعضا وهو الذي يقوم بما كان يقوم به سلفه ، والخلفاء : جمع خليف. ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ جزاء كفره ﴿مَقْتاً﴾ غضبا وبغضا ﴿خَساراً﴾ خسارة للآخرة ؛ لأنهم اشتروا بعمرهم رأس المال سخط الله تعالى.

المناسبة :

بعد بيان جزاء ورثة القرآن ، ذكر جزاء الكفار ؛ لأن المقارنة تبعث في النفس طمأنينة وارتياحا ، وليعرف المؤمنون أن فخار الكفار في الدنيا عليهم ينقلب حسرة في الآخرة ، وأنه لا نصير للظالمين. ثم أردف ذلك ببيان إحاطة علم الله بالأشياء ، لينفي وجود نصير للظالمين ، ثم ذكر خلافتهم في الأرض ليقطع حجتهم بطلب العودة إلى الدنيا ، وأعقبه بتهديد الكافرين على كفرهم ، فإنه لا ينفع عند الله إلا المقت ، ولا يفيدهم إلا الخسارة ، فإن العمر كرأس مال من اشترى به رضا الله ربح ، ومن اشترى به سخطه خسر.

التفسير والبيان :

بعد بيان حال السعداء شرع الله تعالى في بيان حال الأشقياء في الآخرة ، فقال :

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا ، وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها﴾ أي والذين كفروا بالله وبالقرآن وستروا ما تدل عليه العقول من دلالات واضحة على الحق ، لهم نار جهنم ، لا يحكم عليهم بموت ثان ، فيستريحوا من العذاب والآلام ، ولا يخفف عنهم شيء من العذاب طرفة عين ، بل كلما خبت زيد سعيرها ، وكلما نضجت جلودهم بدلهم الله جلودا غيرها ليذوقوا العذاب.

ونظير الآية قوله تعالى : ﴿وَنادَوْا يا مالِكُ ، لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ ، قالَ : إِنَّكُمْ ماكِثُونَ﴾ [الزخرف ٤٣ / ٧٧] وقوله سبحانه : ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذابِ جَهَنَّمَ خالِدُونَ ، لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ ، وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف ٤٣ / ٧٤ ـ ٧٥] وقوله :

﴿كُلَّما خَبَتْ زِدْناهُمْ سَعِيراً﴾ [الإسراء ١٧ / ٩٧] وقوله : ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذاباً﴾ [النبأ ٧٨ / ٣٠].

وثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : «أما أهل النار الذين هم أهلها ، فلا يموتون فيها ، ولا يحيون».

﴿كَذلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الشديد نجزي كل مبالغ في الكفر ، فنزج به في قعر جهنم.

ثم وصف تعالى حالهم في العذاب بقوله :

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيها : رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أي وهؤلاء الكفار يستغيثون في النار ، رافعين أصواتهم ، ينادون قائلين : ربنا أخرجنا منها ، وارجعنا إلى الدنيا ، نعمل عملا صالحا ترضى عنه ، غير ما كنا نعمله من الشرك والمعاصي ، فنجعل الإيمان بدل الكفر ، والطاعة بدل المعصية.

فرد الله عليهم موبخا :

﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾ أي ألم نبقكم مدة من العمر ، تتمكنون فيه من التذكر إذا أردتم التذكر ، أو أما عشتم في الدنيا أعمارا لو كنتم ممن ينتفع بالحق ، لانتفعتم به في مدة عمركم؟

ونظير الآية : ﴿فَهَلْ إِلى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ، ذلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ، وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾ [غافر ٤٠ / ١١ ـ ١٢].

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «لقد أعذر الله تعالى إلى عبد أحياه حتى بلغ ستين أو سبعين سنة ، لقد أعذر الله تعالى إليه ، لقد أعذر الله تعالى إليه».

﴿وَجاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ أي وجاءكم الرسول المنذر ، وهو النبي ﷺ ، ومعه

القرآن ، ينذركم بالعقاب إن عصيتم. وقيل : النذير : الشيب. وقال الرازي : أي آتيناكم عقولا ، وأرسلنا إليكم من يؤيد المعقول بالدليل المنقول.

وبه يتبين أن الله تعالى احتج عليهم بالعمر والرسل ؛ لقوله تعالى :

﴿وَنادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ ، قالَ : إِنَّكُمْ ماكِثُونَ ، لَقَدْ جِئْناكُمْ بِالْحَقِّ ، وَلكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ﴾ [الزخرف ٤٣ / ٧٧ ـ ٧٨] وقوله سبحانه : ﴿كُلَّما أُلْقِيَ فِيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُها : أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ؟ قالُوا : بَلى قَدْ جاءَنا نَذِيرٌ ، فَكَذَّبْنا وَقُلْنا : ما نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ ، إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ﴾ [الملك ٦٧ / ٨ ـ ٩].

﴿فَذُوقُوا فَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ أي فذوقوا عذاب جهنم ، جزاء على مخالفتكم للأنبياء في الدنيا ، فليس لكم اليوم ناصر ينقذكم مما أنتم فيه من العذاب والنكال ، وهو تهكم بصيغة الأمر مثل قوله : ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان ٤٤ / ٤٩].

ثم أخبر تعالى عن إحاطة علمه بجميع الأمور ومنها أحوالهم ، فقال :

﴿إِنَّ اللهَ عالِمُ غَيْبِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾ أي إن الله يعلم كل أمر خفي في السموات والأرض ، ومنها أعمال العباد ، لا تخفى منها خافية ، فلو ردّكم إلى الدنيا لم تعملوا صالحا ، كما قال سبحانه : ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ﴾ [الأنعام ٦ / ٢٨] وذلك لأنه عليم بما تنطوي عليه الضمائر ، وبما تكنّه السرائر ، من المعتقدات والظنون وحديث النفس ، وسيجازي كل عامل بعمله.

وفيه إشارة إلى أنه لو أعادهم إلى الدنيا لم يعدلوا عن الكفر أبدا. وقوله : ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾ تعليل لشمول علمه.

ثم ذكر سببا آخر لعلمه بالغيب ، فقال :

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي إن الله هو الذي جعلكم يخلف قوم قوما آخرين قبلهم ، خلفا بعد خلف ، وجيلا بعد جيل ، لتنتفعوا بخيرات الأرض ، وتشكروا الله بالتوحيد والطاعة ، كما قال تعالى : ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ﴾ [النمل ٢٧ / ٦٢].

﴿فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ أي فمن كفر منكم هذه النعمة ، فعليه ضرر كفره ، وجزاؤه عليه دون غيره.

﴿وَلا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً ، وَلا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَساراً﴾ أي كلما استمروا على كفرهم أبغضهم الله تعالى وغضب عليهم ، وكلما أصروا على الكفر خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، وأصابهم النقص والهلاك.

وهذا التكرار دليل على أن الكفر يستوجب أمرين هما البغض والخسران.

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يأتي :

١ ـ هذه أحوال النار ومقالتهم ، يخلدون في نار جهنم ، ولا يموتون فيها ولا يحيون : ﴿لا يَمُوتُ فِيها وَلا يَحْيى﴾ [الأعلى ٨٧ / ١٣] ، ولا يخفف عنهم شيء من عذابها ، وهذا جزاء كل كافر بالله ورسوله ﷺ.

٢ ـ إنهم يقولون في النار : ربنا أخرجنا من جهنم ، وردنا إلى الدنيا ، نعمل عملا صالحا غير عملنا الذي كنا نعمله ، وهو الشرك ، فنؤمن بدل الكفر ، ونطيع بدل المعصية ، ونمتثل أمر الرسل.

٣ ـ أجابهم الله تعالى بأنه أعطاهم مدة من العمر كافية ، يتمكن فيه كل واحد

من التذكر إذا أراد التذكر ، وجاءتهم الرسل تنذرهم من عقاب الله إن أصروا على الكفر ، فكان أمامهم فرصتان : مدة العمر ، وإرسال الرسل.

٤ ـ إن دار الآخرة ليست بدار تكليف ، فلا يقبل فيها تصحيح الإيمان ، ولا تنفع فيها التوبة ، فذلك كله محله دار الدنيا ، لذا يقال للكفار : ذوقوا عذاب جهنم ؛ لأنكم ما اعتبرتم ولا اتعظتم ، فما للظالمين من ناصر ولا مانع من عذاب الله تعالى.

٥ ـ الله تعالى عالم بكل أمر خفي أو ظاهر في الدنيا والآخرة ، ومطلع على أعمال العباد ، وهو يعلم أنه لو رد الكفار إلى الدنيا لم يعملوا صالحا ، كما قال : ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام ٦ / ٢٨] وهذا تقرير لدوامهم في العذاب.

وسبب سعة علمه بالغيب : أنه عالم في الماضي والمستقبل بمضمرات الصدور ، وأنه جعل الناس خلفا بعد خلف ، وقرنا بعد قرن ، للانتفاع بكنوز الأرض ، وشكر الله بالتوحيد والطاعة.

٦ ـ من كفر فعليه جزاء كفره وهو العقاب والعذاب.

٧ ـ إذا استمر الكفار على كفرهم لم يستفيدوا إلا أمرين : المقت ، أي البغض والغضب من الله تعالى ، والخسارة ، أي الهلاك والضلال. فهل من معتبر منهم في الدنيا قبل فوات الأوان؟

مناقشة المشركين في عبادة الأوثان وإنكار التوحيد

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً فَهُمْ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلاَّ غُرُوراً (٤٠) إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ

السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زالَتا إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً (٤١)﴾

الإعراب :

﴿أَرُونِي﴾ بدل اشتمال من ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾.

﴿إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ جملة سادّة مسد الجوابين : جواب القسم وجواب الشرط.

البلاغة :

﴿أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ﴾ استفهام إنكاري للتوبيخ.

﴿حَلِيماً غَفُوراً﴾ من صيغ المبالغة.

﴿غُرُوراً غَفُوراً﴾ توافق فواصل.

المفردات اللغوية :

﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أي أخبروني ﴿الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ تعبدون من غير الله ، وهم الأصنام الذين زعمتم أنهم شركاء لله تعالى ﴿أَرُونِي﴾ أخبروني ﴿شِرْكٌ﴾ شركة مع الله ﴿فِي السَّماواتِ﴾ أي في خلقها ﴿أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً﴾ ينطق على أنا اتخذنا شركاء ﴿فَهُمْ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْهُ﴾ على حجة من ذلك الكتاب بأن لهم شركة جعلية ، أي لهم معي شركة ﴿بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ﴾ أي ما يعد الكافرون. ولما تقرر نفي أنواع الحجج في ذلك ، أضرب عنه بذكر ما حملهم عليه ، وهو تغرير الأسلاف الأخلاف أو الرؤساء الأتباع ﴿غُرُوراً﴾ باطلا.

﴿يُمْسِكُ﴾ يحفظ ﴿أَنْ تَزُولا﴾ كراهة أن تضطرب وتنتقل من أماكنها ، من الزوال ، والمعنى : يمنعهما من الزوال ﴿وَلَئِنْ﴾ اللام لام القسم ﴿إِنْ أَمْسَكَهُما﴾ ما أمسكهما ﴿مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي من بعد الله ، أي سواه ، أو من بعد الزوال ، ومن الأولى : زائدة ، والثانية : للابتداء والمعنى الأصح : لا يقدر أحد غيره تعالى على إمساكهما لو فرض زوالهما ﴿إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ في تأخير عقاب الكفار ، وفي إمساكه السموات والأرض.

المناسبة :

بعد بيان جزاء المؤمنين والكافرين وتهديد كل من كفر بالله ، ذكر تعالى ما يدعو للتوحيد ويبطل الإشراك ، مناقشا المشركين في أبسط مقومات عبادة الإله : وهو الخلق والإبداع ، وأن هذه الآلهة المزعومة عاجزة عن ذلك.

التفسير والبيان :

﴿قُلْ : أَرَأَيْتُمْ شُرَكاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ، أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ قل أيها النبي للمشركين : أخبروني عن الشركاء الذين تعبدونهم من دون الله وتتخذونهم آلهة من الأصنام والأوثان ، هل خلقوا شيئا من الأرض ، حتى يستحقوا الألوهية؟

﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ﴾ وهل لهم شركة مع الله في خلق السموات أو في ملكها أو في التصرف فيها ، حتى يستحقوا بذلك الشركة في الألوهية؟

﴿أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً فَهُمْ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْهُ﴾؟ أي وهل أنزلنا عليهم كتابا يقرر ما يقولونه من الشرك والكفر ، يكون لهم حجة فيما يدعون؟

﴿بَلْ ، إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلَّا غُرُوراً﴾ أي بل إنما اتبعوا في ذلك أهواءهم وآراءهم وأمانيهم التي تمنوها لأنفسهم ، وهي كلها غرور وباطل وزور ، كما يعد الرؤساء والقادة أتباعهم بمواعيد يغرونهم بها ، وهي أباطيل تغر ولا حقيقة لها ، وذلك قولهم : إن هذه الآلهة تنفعهم وتقرّبهم إلى الله ، وتشفع لهم عنده.

وبعد بيان ضعف الأصنام وعجزها عن أي شيء ، أبان تعالى ما يؤهله للعبادة ، ويجعله أهلا للعظمة ، فقال مبينا قدرته وبديع صنعه :

﴿إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا﴾ أي إن الله يمنع زوال

السموات والأرض واضطرابها ، وانتقالها من أماكنها ، وهذا يشير إلى نظام الجاذبية ، وأن الأرض كرة تسبح في الفضاء ، كغيرها من الشمس والقمر والكواكب الأخرى السيارة التي تجري في مدارات خاصة بها ، كما قال عَزَّلَ : ﴿وَيُمْسِكُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [فاطر ٣٥ / ٤١] وقال سبحانه : ﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم ٣٠ / ٢٥].

﴿وَلَئِنْ زالَتا إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ أي لو قدّر إشرافهما على الزوال ، لا يقدر أحد غيره تعالى على إمساكهما ، ولا يقدر على دوامهما وإبقائهما إلا هو ، وهو مع ذلك حليم غفور ، يمهل عقاب المشركين ، ويغفر لمن تاب منهم ما أجرم في الماضي ، فهو يحلم فيؤخّر ويؤجّل ، ولا يعجّل ، ويستر آخرين ويغفر ، ويظل ممسكا السموات والأرض ، بالرغم من أنه يرى عباده ، وهم يكفرون به ويعصونه.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ يتحدى الله تعالى المشركين في عبادتهم الأصنام والأنداد ، ويطالبهم أن يخبروا عن شركائهم الذين يعبدونهم من دون الله ، أعبدوهم ؛ لأن لهم شركة في خلق السموات والأرض ، أم خلقوا من الأرض شيئا؟! أم عندهم كتاب أنزله إليهم بالشركة؟!

وقوله ﴿شُرَكاءَكُمُ﴾ : إنما أضاف الشركاء إليهم ، من حيث إن الأصنام في الحقيقة لم تكن شركاء لله ، وإنما هم جعلوها شركاء ، فقال : ﴿شُرَكاءَكُمُ﴾ أي الشركاء بجعلكم. ويحتمل أن يقال : شركاءكم في النار ، لقوله تعالى : ﴿إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء ٢١ / ٩٨] قال الرازي : وهو قريب ، ويحتمل أن يقال : هو بعيد ، لاتفاق المفسرين على الأول.

٢ ـ الحقيقة أنه لا جواب يقنع من المشركين ، وإنما هم يتبعون أهواءهم وآراءهم وأمانيهم التي تمنوها لأنفسهم ، وهي باطل وزور ، وما مواعيدهم لبعضهم بعضا إلا أباطيل تغرّ ، حين قال السادة للأتباع : إن هذه الآلهة تنفعكم وتقرّبكم.

٣ ـ الدليل على عظمة الله وقدرته بعد ثبوت ضعف الأصنام وعجزها : هو أن الله خالق السموات والأرض وممسكهما ، فلا يوجد حادث إلا بإيجاده ، ولا يبقى إلا ببقائه ، ولو زالتا فرضا واضطربتا ما أمسكهما من أحد غير الله جل جلاله.

٤ ـ من صفات الله العليا : الحلم ، فلا يعجل العقوبة للكفار والعصاة ، والمغفرة لمن تاب وآمن وعمل صالحا ، ثم اهتدى إلى طريق الحق على الدوام ، وهو تعالى يحافظ على هذا النظام البديع للكون ، بالرغم من كفر الكافرين.

إنكار المشركين الرسالة النبوية وتهديدهم بالإهلاك

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جاءَهُمْ نَذِيرٌ ما زادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً (٤٢) اسْتِكْباراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلاً (٤٣) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَما كانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كانَ عَلِيماً قَدِيراً (٤٤) وَلَوْ يُؤاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِما كَسَبُوا ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كانَ بِعِبادِهِ بَصِيراً (٤٥)﴾

الإعراب :

﴿اسْتِكْباراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ اسْتِكْباراً﴾ مفعول لأجله ، و ﴿مَكْرَ السَّيِّئِ﴾ منصوب على المصدر ، وهو من إضافة الموصوف إلى الصفة ، بدليل قوله تعالى : ﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾.

البلاغة :

﴿ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ﴾ في ﴿ظَهْرِها﴾ استعارة مكنية ، شبّه الأرض بدابة تحمل على ظهرها أنواع المخلوقات ، ثم حذف المشبه به ، ورمز إليه بشيء من لوازمه ، وهو الظهر ، بطريق الاستعارة المكنية.

﴿عَلِيماً قَدِيراً بَصِيراً﴾ من صيغ المبالغة.

المفردات اللغوية :

﴿وَأَقْسَمُوا﴾ حلف المشركون ﴿جَهْدَ أَيْمانِهِمْ﴾ طاقتها وغاية اجتهادهم فيها ﴿لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ رسول منذر ﴿أَهْدى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ اليهود أو النصارى ، لما رأوا من تكذيب بعضهم بعضا ؛ إذ قالت اليهود : ليست النصارى على شيء ، وقالت النصارى : ليست اليهود على شيء ﴿فَلَمَّا جاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ محمد ﷺ ﴿ما زادَهُمْ﴾ مجيئه ﴿إِلَّا نُفُوراً﴾ تباعدا عن الحق والهدى.

﴿اسْتِكْباراً فِي الْأَرْضِ﴾ أي إنهم ما كذبوا برسالة محمد ﷺ لاعتقاد كذبه ، إنما فعلوا ذلك لأجل الاستكبار عن أن يكونوا أتباعا له ، ولأجل العتو : وهو التجبر والمضي في الفساد ﴿وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾ أي ومكر العمل السيء من الشرك وكيد رسول الله ﷺ ، والمكر : هو الحيلة والخداع والعمل القبيح ﴿وَلا يَحِيقُ﴾ لا يصيب ولا ينزل ولا يحيط ﴿إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ وهو الماكر ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ﴾ ينتظرون ﴿إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾ طريقة المتقدمين من تعذيب المكذبين رسلهم ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلاً ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلاً﴾ أي لا يبدل بالعذاب غيره ، ولا يحول إلى غير مستحقه ، وبعبارة أخرى : التبديل : وضع الرحمة موضع العذاب ، والتحويل : نقل العذاب من المكذبين إلى غيرهم.

﴿عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ مصير وآثار الماضين من قبلهم أثناء سيرهم إلى الشام واليمن والعراق ، كعاد وثمود ومدين وأمثالهم ، نزل بهم العذاب ، لما كذبوا الرسل ، فتلك سنة الله في المكذبين التي لا تبدّل ولا تحوّل ﴿وَكانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ وأطول أعمارا ، وأكثر أموالا ، وأقوى أبدانا ، من أهل مكة ، فأهلكهم الله بتكذيبهم رسلهم. والواو : واو الحال ﴿وَما كانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ

﴿شَيْءٍ﴾ يسبقه ويفوته ﴿إِنَّهُ كانَ عَلِيماً﴾ بالأشياء كلها لا يخفى عليه شيء ﴿قَدِيراً﴾ لا يصعب عليه أمر.

﴿بِما كَسَبُوا﴾ عملوا من الذنوب أو المعاصي أو الخطايا ﴿عَلى ظَهْرِها﴾ على ظهر الأرض من الأحياء ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ من الدواب التي تدبّ ، والدابة : كل ما يدبّ على الأرض ﴿وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ هو يوم القيامة ﴿فَإِنَّ اللهَ كانَ بِعِبادِهِ بَصِيراً﴾ أي فيجازيهم على أعمالهم ، بإثابة المؤمنين ، وعقاب الكافرين.

سبب النزول :

نزول الآية (٤٢):

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ﴾ : أخرج ابن أبي حاتم عن ابن أبي هلال أنه بلغه : أن قريشا كانت تقول : لو أن الله بعث منا نبيا ، ما كانت أمة من الأمم أطوع لخالقها ، ولا أسمع لنبيها ، ولا أشد تمسكا بكتابها منا ، فأنزل الله : ﴿وَإِنْ كانُوا لَيَقُولُونَ : لَوْ أَنَّ عِنْدَنا ذِكْراً مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات ٣٧ / ١٦٨] ﴿لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتابُ لَكُنَّا أَهْدى مِنْهُمْ﴾ [الأنعام ٦ / ١٥٧] ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ وكانت اليهود تستفتح على النصارى به ، فيقولون : إنا نجد نبيا يخرج.

المناسبة :

بعد بيان إنكار المشركين للتوحيد ، وتوبيخهم وتقريعهم على سخف عقولهم ، ذكر الله تعالى تكذيبهم للرسول ﷺ ، بعد ترقبهم له ، ثم هددهم بالهلاك كمن قبلهم من الأمم الغابرة الذين كذبوا رسلهم ، وأردفه بتذكيرهم بما يشاهدونه في رحلاتهم إلى الشام والعراق واليمن من آثار تدمير منازل المكذبين بالرغم من كمال القوة ، وكثرة المال والولد ، وختم السورة ببيان مدى حلمه على الناس ، وأنه لو أراد مؤاخذتهم لأفناهم ، ولكنه أخرّ عقابهم إلى يوم القيامة ، وحينها يعاقبهم على أعمالهم.

التفسير والبيان :

هذا نبأ عجيب غريب عن قريش والعرب لا علم لنا به من غير القرآن ، قال تعالى :

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ : لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ أقسمت قريش والعرب بالله أغلظ الأيمان قبل إرسال الرسول إليهم : لئن جاءهم من الله رسول منذر ليكونن أمثل من أي أمة من الأمم أو من جميع الأمم الذين أرسل إليهم الرسل في الطاعة ، وأشدهم تمسكا بالرسالة وقبولا لها.

وذلك كقوله تعالى : ﴿أَنْ تَقُولُوا : إِنَّما أُنْزِلَ الْكِتابُ عَلى طائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنا ، وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِراسَتِهِمْ لَغافِلِينَ. أَوْ تَقُولُوا : لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتابُ لَكُنَّا أَهْدى مِنْهُمْ ، فَقَدْ جاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآياتِ اللهِ وَصَدَفَ عَنْها ، سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آياتِنا سُوءَ الْعَذابِ بِما كانُوا يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام ٦ / ١٥٦ ـ ١٥٧].

﴿فَلَمَّا جاءَهُمْ نَذِيرٌ ، ما زادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً ، اسْتِكْباراً فِي الْأَرْضِ ، وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾ أي فلما أتاهم ما تمنوه ، وهو رسول الله ﷺ بما أنزل عليه من القرآن العظيم ، ما ازدادوا إلا كفرا إلى كفرهم وتباعدا عن الإيمان وإجابة النبي ﷺ ، مستكبرين عن اتباع آيات الله ، ومكروا بالناس في صدهم إياهم عن سبيل الله تعالى.

وبه تبين ألا عهد لهم ، ولا صدق في كلامهم ، ولا وفاء بما يقولون ، فتحملوا ثم فعلهم كما قال تعالى :

﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ أي وما يعود وبال ذلك إلا عليهم نفسهم دون غيرهم ، وعادت عليهم عاقبة مكرهم بالإثم والوزر ، ونزلت عاقبة لسوء بمن أساء ، قبل المساء إليه ، كما قال تعالى : ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَ

مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء ٢٦ / ٢٢٧] ومكر السيء : أي مكر العمل السيء ، والمكر : هو الحيلة والخداع والعمل القبيح ، وهو هنا الكفر وخداع الضعفاء ، وصدهم عن الإيمان ليكثر أتباعهم.

ثم هددهم بجزاء أمثالهم ، فقال :

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾ أي فهل ينتظرون إلا عقوبة لهم على تكذيبهم الرسول ﷺ ومخالفة أوامره مثل عقوبة الله للأمم الماضية المكذبين.

﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلاً ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلاً﴾ أي تلك سنة الله وطريقته. التي لا تتغير ولا تتبدل في كل مكذب ، فلن توضع الرحمة موضع العذاب ، ولن يحوّل العذاب من مكذب إلى غيره ، كما قال تعالى : ﴿وَإِذا أَرادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ ، وَما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ والٍ﴾ [الرعد ١٣ / ١١].

ثم لفت أنظارهم إلى آثار تدمير الماضين المكذبين فقال :

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ، فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَكانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي أولم ينتقلوا في الأراضي في رحلاتهم إلى الشام واليمن والعراق ، فيشاهدوا مصير السابقين الذين كذبوا الرسل ، كيف دمّر الله عليهم ، وللكافرين أمثالهم ، بالرغم من أنهم كانوا أشد قوة من قريش وأكثر عددا وعددا ، وأموالا وأولادا ، فما أغنى ذلك شيئا ، ولا دفع عنهم من عذاب الله من شيء ، لما جاء أمر ربك ، لأنه كما قال تعالى :

﴿وَما كانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ ، إِنَّهُ كانَ عَلِيماً قَدِيراً﴾ أي لأن الله لا يعجزه ولا يفوته أو يسبقه شيء إذا أراد حدوثه في السموات والأرض ، فلن يعجزه هؤلاء المشركون المكذبون لرسوله ﷺ ، ولن يفلتوا من عقابه ؛ لأن الله تعالى عليم بجميع الكائنات لا يخفى عليه شيء ، قدير

لا يصعب عليه أمر ، فهو يعلم المستحق للعقوبة ، قادر على الانتقام منه في أي وقت أو مكان شاء.

ثم أبان الله تعالى سياسته العقابية ، وأخبر عن سابغ وواسع رحمته بالناس ، فقال :

﴿وَلَوْ يُؤاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِما كَسَبُوا ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ﴾ أي لو عجل تعالى العقاب وآخذ الناس بجميع ذنوبهم ، لأهلك جميع أهل السموات والأرض ، وما يملكونه من دواب وأرزاق ، لشؤم معاصيهم. والمراد بالدابة كما قال ابن مسعود : جميع الحيوان مما دبّ ودرج.

﴿وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ، فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ ، فَإِنَّ اللهَ كانَ بِعِبادِهِ بَصِيراً﴾ أي ولكن يؤجل عقابهم ومؤاخذتهم بذنوبهم إلى وقت محدد وهو يوم القيامة ، فيحاسبهم يومئذ ، ويوفي كل عامل بعمله ، فيجازي بالثواب أهل الطاعة ، وبالعقاب أهل المعصية ، والله بصير بمن يستحق منهم الثواب ، ومن يستحق منهم العقاب ، لا يخفى عليه شيء من أمرهم.

ونظير الآية : ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ، لَوْ يُؤاخِذُهُمْ بِما كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذابَ ، بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً﴾ [الكهف ١٨ / ٥٨].

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ أقسمت قريش قبل بعثة الرسول ﷺ ، حين بلغهم أن أهل الكتاب كذّبوا رسلهم أنه إن جاءهم نبي ليكونن أهدى ممن كذب الرسل من أهل الكتاب. وكانت العرب تتمنى أن يكون منهم رسول كما كانت الرسل من بني إسرائيل.

فلما جاءهم ما تمنّوه وهو الرسول النذير ، من أنفسهم ، نفروا عنه ، ولم يؤمنوا

به ، تكبرا وعتوا عن الإيمان ، ومكرا منهم بصدهم عن الإيمان ليكثر أتباعهم.

٢ ـ لكن تنكر المشركين للعهد بالله ، وإخلالهم بالوفاء باليمين ، وعاقبة شركهم : لا ترتد آثاره إلا عليهم أنفسهم. وهذا ما دل عليه قوله تعالى : ﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾. وفي أمثال العرب : «من حفر لأخيه جبّا ، وقع فيه منكبّا» وروى الزهري أن النبي ﷺ قال : «لا تمكر ولا تعن ماكرا ، فإن الله تعالى يقول : ﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ ولا تبغ ولا تعن باغيا ، فإن الله تعالى يقول : ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ﴾ وقال تعالى : ﴿إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ﴾. وفي الحديث الذي أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن قيس بن سعد : «المكر والخديعة في النار» أي تدخل أصحابها في النار ؛ لأنها من أخلاق الكفار ، لا من أخلاق المؤمنين الأخيار ، قال ﷺ : «وليس من أخلاق المؤمن : المكر والخديعة والخيانة».

٣ ـ ما موقف المشركين المعاند من نبي الله إلا كموقف من ينتظر العذاب الذي نزل بالكفار الأولين ، وقد أجرى الله العذاب على الكفار ، وجعل ذلك سنة أي طريقة فيهم ، فهو يعذب المستحق ، لا يقدر أحد أن يبدل ذلك ، ولا أن يحول العذاب عن نفسه إلى غيره. والإهلاك ليس سنة الأولين وإنما هو سنة الله بالأولين.

٤ ـ تأكيدا لهذا الموقف نبّههم الله تعالى إلى الأمثلة الواقعية من تاريخ الأمم الغابرة ، وهم الذين يشاهدون آثار تدمير مساكنهم ودورهم أثناء تجاراتهم ورحلاتهم إلى بلاد اليمن والشام والعراق ، مثل إهلاك قوم عاد وثمود ومدين وغيرهم ، لما كذبوا رسل الله ، وكانوا أشد من أهل مكة قوة ، وأكثر أموالا وأولادا ، وإذا أراد الله إنزال عذاب بقوم لم يعجزه ذلك.

٥ ـ اقتضت رحمة الله تبارك وتعالى ألا يعجل العذاب للعصاة والكفار على

ذنوبهم ، وإنما يؤخرهم ويمهلهم إلى يوم معين كي تكون لديهم فرصة ، فيتداركوا تقصيرهم ، ويعدلوا عن ظلمهم ، وكان مقتضى العدل تعجيل العقوبة ، وإذا فعل الله ذلك ، أهلك جميع المخلوقات إلا من يشاء ، والله سبحانه عليم بمن يستحق العقاب منهم.

وهذا رد بليغ على المشركين الذين كانوا من شدة عنادهم وفساد اعتقادهم وعتوهم يستعجلون بالعذاب ، ويقولون لرسول الله ﷺ : عجل لنا عذابنا ، فقال الله : للعذاب أجل.

وقد حكى القرآن الكريم استعجال المشركين بالعقاب استهزاء ، حيث قالوا : ﴿**اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ ، أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ**﴾ [الأنفال ٨ / ٣٢].

بسم الله الرّحمن الرّحيم

سورة يس

مكيّة ، وهي ثلاث وثمانون آية.

تسميتها :

سميت سورة يس لافتتاحها بهذه الأحرف الهجائية ، التي قيل فيها إنها نداء معناه (يا إنسان) بلغة طي لأن تصغير إنسان : أنيسين ، فكأنه حذف الصدر منه ، وأخذ العجز ، وقال : ﴿يس﴾ أي أنيسين. وعلى هذا يحتمل أن يكون الخطاب مع محمد ﷺ ، بدليل قوله تعالى بعده. ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

مناسبتها لما قبلها :

تظهر صلة هذه السورة بما قبلها من وجوه ثلاثة :

١ ـ بعد أن ذكر تعالى في سورة فاطر قوله : ﴿وَجاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ [٣٧] وقوله : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِيرٌ ، لَيَكُونُنَّ أَهْدى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ، فَلَمَّا جاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ [٤٢] والمراد به محمد ﷺ ، وقد أعرضوا عنه وكذبوه ، افتتح هذه السورة بالقسم على صحة رسالته ، وأنه على صراط مستقيم ، وأنه أرسل لينذر قوما ما أنذر آباؤهم.

٢ ـ هناك تشابه بين السورتين في إيراد بعض أدلة القدرة الإلهية الكونية ، فقال تعالى في سورة فاطر : ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾

[١٣] وقال في سورة يس : ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ، ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ، وَالْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [٣٧ . ٣٨].

٣ . وقال سبحانه في فاطر : ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَواخِرَ﴾ [١٢] وقال في يس : ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [٤١].

مشتملاتها :

تضمنت هذه السورة كسائر السور المكية المفتتحة بأحرف هجائية الكلام عن أصول العقيدة من تعظيم القرآن الكريم ، وبيان قدرة الله ووحدانيته ، وتحديد مهام النبي ﷺ بالبشارة والإنذار ، وإثبات البعث بأدلة حسية مشاهدة من الخلق المبتدأ والإبداع الذي لم يسبق له مثيل.

وقد بدئت السورة بالقسم الإلهي بالقرآن الحكيم على أن محمدا رسول حقا من رب العالمين لينذر قومه العرب وغيرهم من الأمم ، فانقسم الناس من رسالته فريقين : فريق معاند لا أمل في إيمانه ، وفريق يرجى له الخير والهدى ، وأعمال كل من الفريقين محفوظة ، وآثارهم مدونة معلومة في العلم الأزلي القديم.

ثم ضرب المثل لهم بأهل قرية كذبوا رسلهم واحدا بعد الآخر ، وكذبوا الناصح لهم وقتلوه ، فدخل الجنة ، ودخلوا هم النار. وأعقب ذلك تذكيرهم بتدمير الأمم المكذبة الغابرة.

وانتقل البيان إلى إثبات البعث والقدرة والوحدانية بإحياء الأرض الميتة ، وبيان قدرة الله الباهرة في الكون من تعاقب الليل والنهار ، وتسخير الشمس والقمر وغيرهما من الكواكب السيارة والثابتة ، وتسيير السفن في البحار.

وإزاء ذلك هزم الجاحدون ، وأنذروا بالعقاب السريع ، وفوجئوا بنقمة الله في تصوير أهوال القيامة ، وبعثهم من القبور بنفخة البعث والنشور ، فأعلنوا

ندمهم ، وصرحوا بأن البعث حق ، ولكن لم يجدوا أمامهم إلا نار جهنم ، وكانوا قد وبخوا على اتباع وساوس الشيطان ، وأعلموا أن الله قادر على مسخهم في الدنيا.

وأما المؤمنون فيتمتعون بنعيم الجنان ، ويحسون بأنهم في أمن وسلام من رب رحيم.

ثم نفى الله تعالى كون رسوله شاعرا ، وأعلم الكافرين أنه منذر بالقرآن المبين أحياء القلوب ، وذكّر الناس قاطبة بضرورة شكر المنعم على ما أنعم عليهم من تذليل الأنعام ، والانتفاع بها في الطعام والشراب واللباس.

وندد الله تعالى باتخاذ المشركين آلهة من الأصنام أملا في نصرتها لهم يوم القيامة ، مع أنها عاجزة عن أي نفع ، وهم مع ذلك جنودها الطائعون.

وختمت السورة بالرد القاطع على منكري البعث بما يشاهدونه من ابتداء الخلق ، وتدرج الإنسان في أطوار النمو ، وإنبات الشجر الأخضر ثم جعله يابسا ، وخلق السموات والأرض ، وإعلان القرار النهائي الحتمي الناجم عن كل ذلك ، وهو قدرة الله الباهرة على إيجاد الأشياء بأسرع مما يتصور الإنسان ، وأنه الخالق المالك لكل شيء في السموات والأرض.

والخلاصة : أن السورة كلها إيقاظ شديد للمشاعر والوجدان ، وتحريك قوي للأحاسيس ، وفتح نفّاذ للقلوب ، لكي تبادر إلى الإقرار بالخالق وتوحيده ، والإيمان بالبعث والجزاء. قال النبي ﷺ في كتاب أبي داود عن معقل بن يسار : «اقرؤوا يس على موتاكم».

القرآن والرسول والمرسل إليهم

﴿يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥) لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ فَهُمْ غافِلُونَ (٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٧) إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (٨) وَجَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ (٩) وَسَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (١٠) إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (١١) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتى وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَآثارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ (١٢)﴾

الإعراب :

﴿يس﴾ إما بالرفع خبر مبتدأ محذوف ، أي هذه يس ، وإما بالضم على نداء المفرد أو على أنه مبني كحيث ، وقرئ بالنصب على معنى : اتل يس ، وإما بالفتح كأين وكيف ، وقرئ بالكسر مثل : جير لإسكان الياء وكسر ما قبلها. ومنهم من أظهر النون ، ومنهم من أدغمها في الواو ، فمن أظهرها فلأن حروف الهجاء من حقها أن يوقف عليها ، كالعدد ، ولذلك لم تعرب ، ومن أدغمها أجراها مجرى المتصل ، والإظهار أقيس.

﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ في موضع رفع خبر (إن) و ﴿عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ إما في موضع رفع خبر بعد خبر (إن) وإما في موضع نصب متعلق ب ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾.

﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ منصوب على المصدر ، مصدر (نزّل) وهو مضاف إلى الفاعل ،

ويقرأ بالرفع على تقدير مبتدأ محذوف ، تقديره : هو تنزيل ، ويقرأ أيضا بالجر على البدل من القرآن.

﴿ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ قَوْماً﴾ : إما نافية ، وإما مصدرية في موضع نصب ، تقديره : لتنذر قوما إنذارا مثل إنذارنا آباءهم ، ممن كانوا في زمان إبراهيم وإسماعيل.

﴿وَآثارَهُمْ﴾ هي السنن التي سنّوها ، فيه محذوف تقديره : سنكتب ذكر ما قدموا وذكر آثارهم ، فحذف المضاف ، وأقيم المضاف إليه مقامه. ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ كُلَ﴾ منصوب بفعل مقدر دلّ عليه ﴿أَحْصَيْناهُ﴾ أي أحصينا كل شيء أحصيناه.

البلاغة :

﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ في كل منهما تأكيد بأكثر من مؤكد وهو (إن) واللام ؛ لأن المخاطب منكر ، وهذا التأكيد يسمى إنكاريا.

﴿إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالاً﴾ استعارة تمثيلية ، شبه حال الكفار في امتناعهم عن الإيمان بمن غلّت يده إلى عنقه بالقيود ، فصار مرفوع الرأس خافض البصر ، لا يستطيع فعل شيء ولا الالتفات إلى غيره. وكذلك شبه حالهم بمن وجد بين سدّين لا يستطيع النفاذ والاهتداء لطريقه.

﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ بينهما طباق.

﴿أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ﴾ بينهما طباق السلب.

﴿نَحْنُ نُحْيِ﴾ جناس ناقص لتغير الحروف.

المفردات اللغوية :

﴿يس﴾ تقرأ : يا ، س بمد الياء ، وإظهار النون الساكنة ، أو بإدغام نون السين في الواو التي بعدها ، إلخ ما ذكر في الحاشية ، والمراد من هذه الحروف المقطعة الهجائية كما سبق بيانه التنبيه ، مثل ألا ويا ، والإشارة إلى العرب حين تحداهم بالقرآن أنه مؤتلف من حروف تتركب منها لغتهم وكلامهم ، ليكون عجزهم عنه أبلغ حجة عليهم. ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ الواو : واو القسم ، يقسم الله تعالى لمحمد ﷺ بالقرآن المحكم بعجيب النظم وبديع المعاني ، أو بذي الحكمة ، على أن محمدا رسول من عند الله ، لئلا يشك أحد في كونه مرسلا. ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي الأنبياء المرسلين إلى قومهم وغيرهم ، والتأكيد بالقسم واللام للرد على من أنكر رسالته من الكفار بقولهم : لست مرسلا. ﴿عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي الطريق القويم الذي لا التواء فيه ولا اعوجاج ، بل هو الموصل إلى المطلوب ، في العقيدة والشريعة ، في التوحيد والاستقامة في الأمور.

﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ أي إن القرآن تنزيل منزل من العزيز الغالب في ملكه ، الرحيم بخلقه. ﴿لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ﴾ اللام متعلق ب ﴿تَنْزِيلَ﴾ ، والمعنى أرسلناك بهذا التنزيل لتنذر قوما لم ينذر آباؤهم الأقربون ، في زمن الفترة ، أو لتطاول مدة الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام . ﴿غافِلُونَ﴾ أي إن القوم العرب غافلون عن الإيمان والرشد ، وعن الشرائع والأحكام. ﴿حَقَّ الْقَوْلُ عَلى أَكْثَرِهِمْ﴾ وجب الحكم بالعذاب على أكثر أهل مكة : وهم من مات على الكفر وأصرّ عليه. ﴿فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ لأنهم ممن علم الله أنهم لا يؤمنون بالقرآن.

﴿أَغْلالاً﴾ جمع غلّ : وهو ما تجمع به اليد إلى العنق للتعذيب. ﴿فَهِيَ﴾ الأيدي مجموعة. ﴿إِلَى الْأَذْقانِ﴾ جمع ذقن : وهي مجتمع اللّحيين. ﴿مُقْمَحُونَ﴾ رافعون رؤوسهم لا يستطيعون خفضها ، غاضون أبصارهم في عدم التفاتهم إلى الحق. وهذا تمثيل ، يراد به أنهم لا يذعنون للإيمان ولا يخفضون نفوسهم له. ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ أمامهم ، والمراد : منعناهم عن الإيمان بموانع هي استكبارهم وعتوهم وعنادهم عن قبول الحق والخضوع له. ﴿فَأَغْشَيْناهُمْ﴾ غطينا أبصارهم. ﴿فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾ أي فهم بسبب ذلك لا يقدرون على إبصار سبيل الهدى ، إنهم عموا عن البعث ، وعن قبول الشرائع الإلهية. وهذا تمثيل أيضا لسد طريق الإيمان عليهم ؛ لأن الله سبحانه قد علم منهم الإصرار على ما هم فيه من الكفر والموت عليه. والعلم : مجرد معرفة مسبقة لا يمنع الإنسان عقلا وواقعا من الإيمان ؛ لأنه غير معروف له.

﴿وَسَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ أي إنذارك إياهم وعدمه سواء ، فلا ينفعهم الإنذار ، بسبب العتو والاستكبار. ﴿إِنَّما تُنْذِرُ﴾ ينفع إنذارك. ﴿مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ﴾ أي اتبع القرآن ، وخاف عقاب الله في السر والعلن ، وإن لم يره ، والغيب : أي قبل معاينة أهواله. ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ هو الجنة.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتى﴾ نبعثهم بعد الموت. ﴿وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا﴾ أي نكتب في اللوح المحفوظ ما أسلفوا من الأعمال الصالحة والطالحة. ﴿وَآثارَهُمْ﴾ أي ما أبقوه بعدهم من الحسنات التي لا ينقطع نفعها بعد الموت ، كالعلم والكتاب والمسجد والمشفى والمدرسة ، أو من السيئات كنشر البدع والمظالم والأضرار والضلالات بين الناس. ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ﴾ أي كل شيء من أعمال العباد وغيرها ضبطناه في اللوح المحفوظ أو في صحائف الأعمال.

سبب النزول :

نزول الآية (١):

﴿يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ : أخرج أبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس قال :

كان رسول الله ﷺ يقرأ في السجدة ، فيجهر بالقراءة حتى يتأذى به ناس من قريش ، حتى قاموا ليأخذوه ، وإذا أيديهم مجموعة إلى أعناقهم ، وإذا بهم عمي لا يبصرون ، فجاءوا إلى النبي ﷺ فقالوا : ننشدك الله والرحم يا محمد ، فدعا حتى ذهب ذلك عنهم. فنزلت : ﴿يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ إلى قوله : ﴿أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ فلم يؤمن من ذلك النفر أحد.

نزول الآية (٨):

﴿إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالاً﴾ : أخرج ابن جرير الطبري عن عكرمة قال : قال أبو جهل : لئن رأيت محمدا لأفعلن ، فأنزل الله : ﴿إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالاً﴾ إلى قوله : ﴿لا يُبْصِرُونَ﴾ فكانوا يقولون : هذا محمد ، فيقول : أين هو ، أين هو؟ لا يبصر.

نزول الآية (١٢):

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتى﴾ : أخرج الترمذي وحسنه ، والحاكم وصححه عن أبي سعيد الخدري قال : كانت بنو سلمة في ناحية المدينة ، فأرادوا النّقلة إلى قرب المسجد ، فنزلت هذه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتى وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَآثارَهُمْ﴾ فقال النبي ﷺ : «إن آثاركم تكتب ، فلا تنتقلوا». وأخرج الطبراني عن ابن عباس مثله.

وأخرج عبد الرزاق عن أبي سعيد قال : شكت بنو سلمة إلى رسول الله ﷺ بعد منازلهم من المسجد ، فأنزل الله تعالى : ﴿وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَآثارَهُمْ﴾ فقال النبي ﷺ : «عليكم منازلكم ، فإنما تكتب آثاركم».

التفسير والبيان :

﴿يس ، وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ، إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ، عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي

أقسم بالقرآن ذي الحكمة البالغة ، المحكم بنظمه ومعناه بأنك يا محمد لرسول من عند الله على منهج سليم ، ودين قويم ، وشرع مستقيم لا عوج فيه.

وفي هذا إشارة إلى أن القرآن هو المعجزة الباقية ، وأن محمدا رسول الله ﷺ ، صادق في نبوته ، ومرسل برسالة دائمة من عند ربه.

﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ أي هذا القرآن والدين والصراط الذي جئت به تنزيل من رب العزة ، الرحيم بعباده المؤمنين ، كما قال تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ ، صِراطِ اللهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ ، أَلا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى ٤٢ / ٥٢ ـ ٥٣].

وهذا دليل واضح على مكانة القرآن وأنه أجل نعمة من نعم الرحمن.

﴿لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ ، فَهُمْ غافِلُونَ﴾ أي أرسلناك أيها النبي لتنذر العرب الذين لم يأتهم رسول نذير من قبلك ، ولم يأت آباءهم الأقربين من ينذرهم ويعرّفهم شرائع الله تعالى ، فهم غافلون عن معرفة الحق والنور والشرائع التي تسعد البشر في الدارين.

لكنّ ذكرهم وحدهم هنا للعناية بهم وتوجيه الخطاب لهم : لا ينفي كونه مرسلا إلى الناس كافة ، بدليل الآيات والأحاديث المتواترة المعروفة في عموم بعثته ﷺ ، مثل قوله تعالى : ﴿قُلْ : يا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ [الأعراف ٧ / ١٥٨] وقوله ﷺ فيما أخرجه الشيخان والنسائي عن جابر : «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة».

﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ أي لقد وجب العذاب على أكثر أهل مكة ، وهو ما سجّل عليهم في أم الكتاب أنهم لا يؤمنون بالقرآن وبمحمد ﷺ ، وهم الذين علم الله أنهم يموتون على الكفر ، ويصرون عليه طوال حياتهم.

والمراد بالقول : الحكم والقضاء الأزلي ، وهو سبق علم الله بنهاياتهم ، لا بطريق الجبر والإلجاء ، بل باختيارهم وإصرارهم على الكفر ، وفي هذا تطمين للنبي ﷺ حتى لا يجزع ولا يأسف على عدم إيمانهم به.

ثم ضرب الله تعالى مثلا لتصميمهم على الكفر وأنه لا سبيل إلى إيمانهم ، فقال : ﴿**إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالاً ، فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ**﴾ أي إنا جعلنا أيديهم مشدودة إلى أعناقهم بالقيود ، تمنعهم من فعل شيء ، فصاروا مرفوعي الرؤوس خافضي الأبصار. وهذا يعني أن الله جعلهم كالمغلولين المقمحين (الرافعي رؤوسهم الغاضي أبصارهم) في أنهم لا يلتفتون إلى الحق ، ولا يوجهون أنظارهم نحوه ، وهم أيضا كالقائمين بين سدين ، لا يبصرون أمامهم ولا خلفهم ، وأنهم متعامون عن النظر في آيات الله ، كما قال :

﴿**وَجَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا ، فَأَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ**﴾ أي تأكيدا لما سبق في تصوير حالتهم أنهم بتعاليهم عن النظر في آيات الله جعلوا كمن أحاط به سدان من الأمام والخلف ، فمنعاه من النظر ، فهو لا يبصر شيئا ، وهؤلاء لا ينتفعون بخير ، ولا يهتدون إليه ؛ لأنا غطينا أبصارهم عن الحق.

وهذا مثل صائب لأهل الجهالة والتخلف والبدائية الذين حجبوا مداركهم وأبصارهم عن التأمل في معطيات المدنية والتقدم والحضارة ، وهو تمثيل رائع للسد الإلهي المعنوي بالسد الحاجز المادي الحسي.

ونتيجة لما سبق :

﴿**وَسَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ**﴾ أي إن إنذارك لهؤلاء المصرين على كفرهم وعدمه سواء ، فلا ينفعهم الإنذار ، ما داموا غير مستعدين

لقبول الحق ، والخضوع لنداء الله ، والنظر في الدلائل الدالة على صدق رسالة النبي ﷺ ، والتأمل في عجائب الكون المشاهدة الدالة على وجود الله تعالى ووحدانيته.

أما نفع الإنذار ، فهو كما ذكر تعالى :

﴿إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ، وَخَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ ، فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ أي إنما ينفع إنذارك الذين آمنوا بالقرآن العظيم واتبعوا أحكامه وشرائعه ، وخافوا عقاب الله قبل حدوثه ومعاينة أهواله ، أو خشوا الله قبل رؤيته ، فهؤلاء بشرهم بمغفرة لذنوبهم ، ورضوان من الله ، وأجر كريم ونعيم مقيم هو الجنة. ونظير الآية : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ، وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك ٦٧ / ١٢].

ثم أكد الله تعالى حصول الجزاء للمؤمنين وغيرهم ، فقال :

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتى ، وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَآثارَهُمْ﴾ أي إننا قادرون فعلا على إحياء الموتى ، وبعثهم أحياء من قبورهم ، ونحن الذين ندوّن لهم كل ما قدموه وأسلفوه من عمل صالح أو سيء ، وتركوا من أثر طيب أو خبيث ، أي نكتب ونسجل أعمالهم التي باشروها بأنفسهم ، وآثارهم التي أثروها وخلفوها من بعدهم ، فنجزيهم على ذلك إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، فمن عمل على نشر الفضيلة جوزي بها ، ومن عمد إلى نشر الرذيلة والسوء في الملاهي أو الكتب الخليعة يحاسب عليها.

وهذا كقوله ﷺ ـ فيما رواه مسلم عن جرير بن عبد الله البجلي ـ : «من سنّ في الإسلام سنّة حسنة ، كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده ، من غير أن ينقص من أجورهم شيئا ، ومن سنّ في الإسلام سنة سيئة ، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيئا».

وروى مسلم أيضا عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له ، أو صدقة جارية من بعده».

ثم ذكر تعالى أن كتابة الآثار لا تقتصر على الناس ، وإنما تتناول جميع الأشياء ، فقال : ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ﴾ أي لقد ضبطنا وأحصينا كل شيء من أعمال العباد وغيرهم في أم الكتاب وهو اللوح المحفوظ الذي سجّل فيه جميع ما يتعلق بالكائنات ، كما قال تعالى : ﴿عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي فِي كِتابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسى﴾ [طه ٢٠ / ٥٢] وقال سبحانه : ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ، وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾ [القمر ٥٤ / ٥٢ ـ ٥٣].

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ القرآن الكريم معجزة النبي صلى الله عليه وسلم الخالدة إلى يوم القيامة ، وهو تنزيل من رب العالمين ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

٢ ـ الرسول محمد صلى الله عليه وسلم رسول من عند الله ، أرسله الله بالهدى ودين الحق ، على منهج وطريق ودين مستقيم هو الإسلام.

٣ ـ رسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى العرب خاصة وإلى الناس كافة ، فلم يبق بعدها عذر لمعتذر.

٤ ـ إن رؤوس الكفر والطغيان والعناد من أهل مكة أو العرب استحقوا الخلود في نار جهنم والعذاب الدائم فيها ؛ لأنهم أصروا على الكفر ، وأعرضوا عن النظر في آيات الله ، والتأمل في مشاهد الكون ، وقد علم الله في علمه الأزلي

بقاءهم على الكفر ، لكنه أمر نبيه بدعوتهم إلى دينه ؛ لأنهم لا يعلمون سابق علم الله فيهم ، ولتعليمنا المنهج في دعوة الناس قاطبة إلى الإيمان بالله والقرآن ورسالة النبي ﷺ والبعث والحساب والجزاء.

٥ ـ لا أمل بعد هذا في إنذارهم ولا نفع فيه بعد أن سدوا على أنفسهم منافذ الهداية ومدارك المعرفة ، ولم تتفتح بصائرهم لرؤية الحق والنور الإلهي.

٦ ـ إنما نفع الإنذار لمن استعد للنظر في منهج الحق ، ثم آمن بالقرآن كتابا من عند الله ، وخشي عذاب الله وناره قبل المعاينة والحدوث ، فهذا وأمثاله يغفر الله له ذنبه ، ويدخله الجنة.

٧ ـ البعث حق والإيمان به واجب ، والله قادر عليه ، وسيكون مستند الجزاء ما كتب من أعمال العباد ، وما تركوه من آثار صالحة أو سيئة ، كما أن الله أحصى كل شيء وضبطه من أمور الكائنات ، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

وقد دلّ سبب نزول الآية على أن حسنات البعيدين عن المسجد مثل حسنات القريبين منه ، وأنه إن تعذر عليهم الاقتراب من المسجد أو شقّ عليهم ، فلا يلزم القرب منه.

قصة أصحاب القرية ـ أنطاكية

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُما فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ فَقالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (١٤) قالُوا ما أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا وَما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ (١٥) قالُوا رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَما عَلَيْنا إِلاَّ الْبَلاغُ

الْمُبِينُ (١٧) قالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ (١٨) قالُوا طائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (١٩) وَجاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعى قالَ يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٢١) وَما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلا يُنْقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قالَ يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِما غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧)﴾

الإعراب :

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحابَ الْقَرْيَةِ أَصْحابَ﴾ : منصوب إما على البدل من قوله : ﴿مَثَلاً﴾ أي واضرب لهم مثلا مثل أصحاب القرية ، فالمثل الثاني بدل من الأول ، وحذف المضاف ، وإما لأنه مفعول ثان ل ﴿اضْرِبْ﴾. و ﴿إِذْ جاءَهَا الْمُرْسَلُونَ إِذْ﴾ : بدل اشتمال من أصحاب القرية.

و ﴿إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ﴾ بدل من إذ الأولى. و ﴿إِذْ جاءَهَا﴾ : ظرف لقوله ﴿جاءَهَا﴾.

﴿أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ﴾ جواب الشرط محذوف ، تقديره : أئن ذكرتم ، تلقيتم التذكير والإنذار بالكفر والإنكار. و ﴿أَإِنْ﴾ : همزة استفهام دخلت على إن الشرطية.

﴿وَما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ : أكثر القراء فتحوا الياء من ﴿لِيَ﴾ إشعارا بفتح الابتداء ب ﴿لا أَعْبُدُ﴾ ليبتعدوا عن صورة الوقف على الياء ؛ لأنهم لو سكنوا لكانت صورة السكون مثل صورة الوقف. أما في قوله : ﴿ما لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ﴾ [النمل ٢٧ / ٢٠] فالياء ساكنة.

﴿بِما غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ ما : إما بمعنى الذي ، و ﴿غَفَرَ لِي﴾ : صلته ، والعائد محذوف

تقديره : الذي غفره لي ربي ، وحذف تخفيفا ، وإما مصدرية ، أي بغفران ربي لي ، وإما استفهامية ، وفيه معنى التعجب من مغفرة الله ، تحقيرا لعمله وتعظيما لمغفرة ربه ، لكن في هذا الوجه ضعف ؛ لأنه لو كانت استفهامية لزم حذف الألف منها ، فتصير (بم).

البلاغة :

﴿اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً﴾ إطناب بتكرار الفعل.

﴿أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ استفهام للتوبيخ.

﴿قِيلَ : ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ مجاز بالحذف ، أي لما أعلن إيمانه قتلوه ، فقيل له : ادخل الجنة.

﴿أَرْسَلْنا الْمُرْسَلُونَ تَطَيَّرْنا طائِرُكُمْ﴾ فيهما جناس اشتقاق.

المفردات اللغوية :

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً﴾ أي : ومثّل لهم مثلا ، والمعنى : واضرب لهم مثلا مثل أصحاب القرية ، أي اذكر لهم قصة عجيبة قصة أصحاب القرية ، والمثل الثاني بيان للأول. والمثل : الصفة والحال الغريبة التي تشبه المثل في الغرابة. ﴿أَصْحابَ الْقَرْيَةِ﴾ قال القرطبي : هذه القرية : هي أنطاكية في قول جميع المفسرين. ﴿إِذْ جاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ هم أصحاب عيسى ، بعثهم إلى أهل أنطاكية للدعوة إلى الله. ﴿فَكَذَّبُوهُما﴾ في الرسالة. ﴿فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ﴾ قوّينا وأيدنا بثالث ، وقرئ : فعززنا بالتخفيف : أي غلبنا وقهرنا.

﴿إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا﴾ أي مشاركون لنا في البشرية ، فليس لكم مزية علينا تختصون بها. ﴿وَما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْءٍ﴾ مما تدّعونه أنتم ، ويدّعيه غيركم ممن قبلكم من الرسل وأتباعهم. ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ أي ما أنتم إلا كاذبون في ادعاء ما تدّعون من ذلك. ﴿رَبُّنا يَعْلَمُ﴾ جار مجرى القسم ، وقد أكدوا الجواب بالقسم وباللام ، ردا على زيادة إنكارهم.

﴿الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ أي التبليغ الواضح للرسالة بالأدلة الواضحة وهي معجزات عيسى عليه‌السلام من إبراء الأكمه والأبرص والمريض وإحياء الميت ، وليس علينا غير ذلك. ﴿تَطَيَّرْنا﴾ تشاءمنا بكم ، وذلك لاستغرابهم ما ادّعوه ، واستقباحهم له ونفورهم عنه. ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا﴾ تتركوا هذه الدعوة ، وتعرضوا عن هذه المقالة ، واللام لام القسم. ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ بالحجارة. ﴿عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم ، شديد.

﴿طائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ أي سبب شؤمكم معكم ، وهو الكفر والتكذيب ، فهو سبب الشؤم لا نحن. ﴿أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ﴾ أي : أإن وعظناكم وخوفناكم وذكرناكم بالله ، ادعيتم أن فينا الشؤم عليكم ، والمراد بالاستفهام : التوبيخ. ﴿مُسْرِفُونَ﴾ متجاوزون الحد في الشرك ومخالفة الحق.

﴿وَجاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعى﴾ هو حبيب بن موسى النجار ، كان قد آمن بالرسل أصحاب عيسى ، ومنزله بأقصى البلد أي أبعد مواضعها ، قال قتادة : «كان يعبد الله في غار ، فلما سمع بخبر الرسل جاء يسعى» أي يشتد عدوا لما سمع بتكذيب القوم للرسل. ﴿وَما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ المعنى : أيّ مانع يمنعني من عبادة الذي خلقني ، وكذلك أنتم ، ما لكم لا تعبدون الله الذي خلقكم؟! ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بعد الموت ، فيجازيكم بكفركم.

﴿أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ استفهام بمعنى النفي ، أي لن أتخذ من غير الله الهة هي الأصنام ، فأعبدها وأترك عبادة من يستحق العبادة ، وهو الذي فطرني. ﴿لا تُغْنِ عَنِّي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً﴾ أي لا تفيدني شيئا من النفع ، كائنا ما كان. ﴿وَلا يُنْقِذُونِ﴾ لا يخلصوني من الضر الذي أرادني الرحمن به. ﴿إِنِّي إِذاً﴾ أي : إذا اتخذت من دونه آلهة. ﴿لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ واضح ، وهذا تعريض بهم. ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ آمنت بالذي خلقكم ، فاسمعوا إيماني ، فرجموه فمات. وهذا تصريح بعد التعريض تشددا في الحق.

﴿قِيلَ : ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ قيل له عند موته : ادخل الجنة ، تكريما له بدخولها بعد قتله ، كما هي سنة الله في الشهداء. ﴿قالَ : يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِما غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ تمنى أن يعلموا بحاله ، ليعلموا حسن مآله ، وحميد عاقبته ، فيؤمنوا مثل إيمانه.

المناسبة :

بعد بيان حال مشركي العرب الذين أصروا على الكفر ، ضرب الحق تعالى لهم مثلا يشبه حالهم في الإفراط والغلو في الكفر وتكذيب الدعاة إلى الله ، وهو حال أهل قرية أنطاكية شمال سورية على ساحل البحر المتوسط الذين كذبوا الرسل فدمرهم الله بصيحة واحدة ، فإذا استمر المشركون على عنادهم واستكبارهم ، كان إهلاكهم يسيرا كأهل هذه القرية ، وتكون قصتهم مع رسل الله ، كقصة قوم النبي ﷺ معه.

التفسير والبيان :

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ أي واضرب مثلا في الغلو والعناد والكفر يا محمد لقومك الذين كذبوك بأهل قرية أنطاكية ، حين

أرسل الله إليهم ثلاثة رسل من أصحاب عيسى عليه السلام الحواريين فكذبوهم ، كما كذبك قومك عنادا ، وأصر الفريقان على التكذيب.

والقرية : أنطاكية في رأي جميع المفسرين ، والمرسلون : أصحاب عيسى أرسلهم مقررين لشريعته ، في رأي ابن عباس وكثير من المفسرين.

ثم بيّن عدد الرسل فقال :

﴿إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُما ، فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ ، فَقالُوا : إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ﴾ أي حين أرسلنا إليهم رسولين ، أرسلهما عيسى عليه السلام بأمر الله تعالى ، فبادروا إلى تكذيبهما في الرسالة ، فأيدناهما وقويناهما برسول ثالث ، فقالوا لأهل تلك القرية : إنا مرسلون إليكم من ربكم الذي خلقكم بأن تعبدوه وحده لا شريك له ، وتتركوا عبادة الأصنام.

وكان الرسولان الأولان يوحنا وبولص ، والرسول الثالث شمعون وقيل : إنه بولص.

فتمسكوا كغيرهم من الأمم بشبهة البشرية ، كما حكى تعالى :

﴿قالُوا : ما أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا ، وَما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْءٍ ، إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾

أي قال أصحاب القرية للرسل الثلاثة : أنتم مثلنا بشر تأكلون الطعام وتمشون في الأسواق ، فمن أين لكم وجود مزية تختصون بها علينا ، وتدّعون الرسالة؟ والله الرحمن لم ينزل إليكم رسالة ولا كتابا مما تدّعون ، ويدّعيه غيركم من الرسل وأتباعهم ، وما أنتم فيما تدّعون الرسالة إلا كاذبون.

وقولهم : ﴿ما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ﴾ دليل على اعترافهم بوجود الله ، لكنهم ينكرون الرسالة ، ويعبدون الأصنام وسائل إلى الله تعالى.

وهذه شبهة كثير من الأمم المكذبة ، كما أخبر الله تعالى عنهم في قوله :

﴿ذلِكَ بِأَنَّهُ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ ، فَقالُوا : أَبَشَرٌ يَهْدُونَنا؟﴾ [التغابن ٦٤ / ٦] أي تعجبوا من ذلك وأنكروه. وقوله تعالى : ﴿قالُوا : إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونا عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا ، فَأْتُونا بِسُلْطانٍ مُبِينٍ﴾ [إبراهيم ١٤ / ١٠].

فأجابهم الرسل :

﴿قالُوا : رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ أي أجابتهم رسلهم الثلاثة قائلين : الله يعلم أنا رسله إليكم ، ولو كنا كذبة عليه ، لانتقم منا أشد الانتقام ، ولكنه سيعزّنا وينصرنا عليكم ، وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار؟ كقوله تعالى : ﴿قُلْ : كَفى بِاللهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً ، يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْباطِلِ ، وَكَفَرُوا بِاللهِ ، أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ﴾ [العنكبوت ٢٩ / ٥٢].

ثم ذكر الرسل مهمتهم :

﴿وَما عَلَيْنا إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ أي إنما علينا أن نبلغكم ما أرسلنا به إليكم ، ولا يجب علينا إلا تبليغ الرسالة بنحو واضح ، فإذا استجبتم كانت لكم سعادة الدارين ، وإن لم تجيبوا فستعلمون عاقبة تكذيبكم.

فعند ذلك هددهم أهل القرية :

﴿قالُوا : إِنَّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ ، وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ أي قال لهم أهل القرية : إنا تشاءمنا بكم ، ولم نر خيرا في عيشنا على وجوهكم ، فقد فرقتمونا وأوقعتم الخلاف فيما بيننا ، ولئن لم تتركوا هذه الدعوة ، وتعرضوا عن هذه المقالة ، لنرجمنكم بالحجارة ، وليصيبنكم منا عذاب مؤلم أو عقوبة شديدة. وقوله : ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُمْ﴾ بيان للرجم ، يعني : ولا يكون الرجم رجما قليلا بحجر أو حجرين ، بل نديم ذلك عليكم إلى الموت ، وهو عذاب أليم. ويرى

بعضهم أن الواو بمعنى (أو) والمراد : إما أن نقتلكم أو نسجنكم ونعذبكم في السجون.

فأجابهم الرسل :

﴿قالُوا : طائِرُكُمْ مَعَكُمْ ، أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ ، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ أي قالت لهم رسلهم : شؤمكم مردود عليكم ، وهو معكم ومنكم ، فسبب الشؤم هو تكذيبكم وكفركم ، لا نحن ، أمن أجل تذكيركم وأمرنا إياكم بتوحيد الله وإخلاص العبادة له ، ادعيتم أن فينا الشؤم عليكم ، وتوعدتمونا وهددتمونا؟ بل الحق أنكم قوم جاوزتم الحد في مخالفة الحق ، وأسرفتم في الضلال ، وتماديتم في الغي والعناد.

وهذا الموقف مشابه لموقف قوم فرعون : ﴿فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قالُوا : لَنا هذِهِ ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسى وَمَنْ مَعَهُ ، أَلا إِنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ﴾ [الأعراف ٧ / ١٣١] ومماثل لموقف قوم صالح : ﴿قالُوا : اطَّيَّرْنا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ ، قالَ : طائِرُكُمْ عِنْدَ اللهِ﴾ [النمل ٢٧ / ٤٧].

ثم أيدهم الله بنصير :

﴿وَجاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعى ، قالَ : يا قَوْمِ ، اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ، اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ أي وجاء رجل من أبعد أطراف المدينة يسرع المشي لما سمع بخبر الرسل ، وهو حبيب النجار ، فقال ناصحا قومه : يا قوم ، اتبعوا رسل الله الذين أتوكم لإنقاذكم من الضلال ، وهم مخلصون لكم في دعوتهم ، فلا يطلبون أجرا ماليا على إبلاغ الرسالة ، وهم على منهج الحق والهداية فيما يدعونكم إليه من عبادة الله وحده لا شريك له.

وأبان أنه يحب لهم ما يحب لنفسه :

﴿وَما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؟ أي وما يمنعني من

إخلاص العبادة للذي خلقني ، وإليه المرجع والمآل يوم المعاد ، فيجازيكم على أعمالكم ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر.

وفي هذا ترغيب بعبادة الله وترهيب من عقابه ، ثم أكد سلامة منهجه وتقريعهم على عبادة الأصنام ، فقال تعالى :

﴿أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ، إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً ، وَلا يُنْقِذُونِ﴾؟ هذا استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع ، يراد به : لن أتخذ من دون الله آلهة ، فأعبدها وأترك عبادة من يستحق العبادة ، وهو الذي فطرني وخلقني ، فإنه إن أرادني الرحمن بسوء لم تنفعني شفاعة هذه الأصنام التي تعبدونها ، ولا تخلصني من ورطة السوء ، فإنها لا تملك من الأمر شيئا ؛ إذ إنها لا تملك دفع الضرر ولا منعه ، ولا جلب النفع ، ولا تنقذ أحدا مما هو فيه.

﴿إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ أي إن اتخذت هذه الأصنام آلهة من دون الله ، فإني في الحقيقة والواقع في خطأ واضح ، وجهل فاضح ، وانحراف عن الحق.

وهذا تعريض بهم ، ثم صرح بإيمانه تصريحا لا شك فيه مخاطبا الرسل :

﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ أي إني صدقت بربكم الذي أرسلكم ، فاشهدوا لي بذلك عنده.

روي عن ابن عباس وكعب ووهب رضي الله عنهم : أنه لما قال ذلك ، وثبوا عليه وثبة رجل واحد ، فقتلوه ، ولم يكن له أحد يمنع عنه. وقال قتادة : جعلوا يرجمونه بالحجارة ، وهو يقول : اللهم اهد قومي ، فإنهم لا يعلمون ، فلم يزالوا به حتى مات رحمه الله.

وكان من حبّه لهدايتهم :

﴿قِيلَ : ادْخُلِ الْجَنَّةَ ، قالَ : يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ، بِما غَفَرَ لِي رَبِّي ،

﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ أي قال الله تكريما له بعد قتله : ادخل الجنة ، لاستشهادك في سبيل إعلان الحق ، فدخلها وهو يرزق فيها ، فلما عاين نعيمها قال : يا ليت قومي يعلمون بمآلي وحسن حالي وحميد عاقبتي ، فيؤمنوا مثل إيماني ، فيصيروا إلى مثل ما أنا فيه من نعيم ، وليتهم يعلمون بما أنعم الله عليّ من مغفرة لذنوبي ، وبما جعلني في زمرة المكرمين المقربين الشهداء الذين منحهم ربهم الثواب الجزيل والفضل العميم. وهذا شأن المؤمن المخلص يحب الخير للناس جميعا ، قال قتادة : لا تلقى المؤمن إلا ناصحا ، لا تلقاه غاشّا.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ لم يترك الله سبحانه في قرآنه سبيلا لدعوة الناس إلى الإيمان الصحيح ، سواء بالأدلة والبراهين ، أو بإعمال الفكر والعقل ، أو بالتأمل والمشاهدة ، أو بضرب الأمثال ، أو بذكر القصص للعظة والعبرة.

والمراد من بيان قصة أصحاب القرية : توضيح أن النبي ﷺ أمر بإنذار المشركين من قومه ، حتى لا يحل بهم ما حلّ بكفار أهل القرية المبعوث إليهم ثلاثة رسل.

٢ ـ يكون الرسول عادة من جنس المرسل إليهم ، حتى لا يبادروا إلى الإعراض بحجة المغايرة والمخالفة ، فتكون شبهة الكافرين ببشرية الرسل في غير محلها ، وإنما الباعث عليها الاعتزاز بالنفس والاستعلاء والاستكبار فيما يبدو.

٣ ـ يؤكد الرسل عادة صدقهم بالمعجزات ، وأما رسل عيسى فقد ذكروا للقوم معجزاته ، وأقسموا بالله أنهم رسل الله الذين بعثهم عيسى بأمر ربه ، وإن كذبوهم ، لم يجدوا سبيلا إلا التصريح بمهمتهم بالتحديد ، وهي إبلاغ الرسالة ، والاعلام الواضح في أن الله واحد لا شريك له.

٤ ـ لا يجد المرسل إليهم في العادة ذريعة بعد دحض حجتهم إلا ادّعاء التشاؤم بالرسل. قال مقاتل في أصحاب القرية : حبس عنهم المطر ثلاث سنين ، فقالوا : هذا بشؤمكم. ويقال : إنهم أقاموا ينذرونهم عشر سنين.

٥ ـ ثم إذا ضاق الأمر بهم يلجأون عادة إلى التهديد والوعيد إما بالطرد والإبعاد من البلد ، وإما بالقتل أو الرجم بالحجارة. قال الفراء في قوله : ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ : وعامة ما في القرآن من الرجم معناه القتل. وقال قتادة : هو على بابه من الرجم بالحجارة. وقيل : لنشتمنكم.

وأما قوله تعالى : ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ فهو إما القتل أي الرجم بالحجارة المتقدم ، وإما التعذيب المؤلم قبل القتل كالسلخ والقطع والصلب.

٦ ـ إن الشؤم الحقيقي من أهل القرية وهو الشرك والكفر وتكذيب الرسل ، وليس هو من شؤم المرسلين ، ولا بسبب تذكيرهم ووعظهم ، وإنما بسبب إسرافهم في الكفر ، وتجاوزهم الحدّ ، والمشرك يجاوز الحدّ.

٧ ـ لا يعدم الحق في كل زمان أنصارا له ، وإن كانوا قلة ، وكان أهل الباطل كثرة ، فقد قيض الله مؤمنا من أهل القرية جاء يعدو مسرعا لما سمع بخبر الرسل ، وناقش قومه ، ورغبهم وأرهبهم ، ودعاهم إلى توحيد الله واتباع الرسل ، وترك عبادة الأصنام ، فإن الرسل على حق وهدى ، لا يطلبون مالا على تبليغ الرسالة ، وهذا دليل إخلاصهم وعدم اتهامهم بمأرب دنيوي ، والخالق هو الأحق بالعبادة ، وهو الذي إليه المرجع والمآب ، فيحاسب الخلائق على ما قدموا من خير أو شر.

أما الأصنام فلا تجلب نفعا ولا تدفع ضررا ، ولا تنقذ أحدا مما ألمّ به من البلاء ، فمن عبدها بعدئذ فهو في خسران ظاهر.

٨ ـ ثم صرح مؤمن القرية مخاطبا الرسل بأنه مؤمن بالله ربهم ، فليشهدوا له بالإيمان.

٩ ـ لقد كان جزاؤه المرتقب من القوم بسبب تصلبه في الدين ، وتشدده في إظهار الحق : القتل أو الموت الزؤام. وأما جزاؤه من الله فهو التكريم في جنان الخلد.

١٠ ـ بالرغم من هذا الإيذاء والتعذيب أحبّ هذا المؤمن ، كشأن كل مؤمن ، أن يبادر قومه إلى الإيمان بمثل ما آمن به ، ليحظوا بما حظي به من النعيم والنجاة. قال ابن عباس : نصح قومه حيّا وميتا. وقال ابن أبي ليلى : سبّاق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين : علي بن أبي طالب وهو أفضلهم ، ومؤمن آل فرعون ، وصاحب يس ، فهم الصدّيقون. وقد ذكره الزمخشري مرفوعا عن رسول الله ﷺ.

١١ ـ قال القرطبي : وفي هذه الآية تنبيه عظيم ، ودلالة على وجوب كظم الغيظ ، والحلم عن أهل الجهل ، والترؤف على من أدخل نفسه في غمار الأشرار وأهل البغي ، والتشمر في تخليصه ، والتلطف في افتدائه ، والاشتغال بذلك عن الشماتة والدعاء عليه. ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته ، والباغين له الغوائل ، وهم كفرة عبدة أصنام [1].

---

(١) تفسير القرطبي : ١٥ / ٢٠

فهرس

الجزء الثاني والعشرين

الموضوع الصفحة

خصائص أهل بيت النبوة ١
المساواة بين الرجال والنساء في ثواب الآخرة ١٥
قصة زيد بن حارثة وزينب بنت جحش رضي الله عنهما ٢٣
تعظيم الله تعالى وإجلاله بالأذكار والتسابيح الكثيرة ٣٩
مهام دعوة النبي ﷺ ٤٥
النساء اللاتي أحلّ الله زواجهن بالنبي ﷺ ٥٩
آداب دخول البيت النبوي وحجاب نساء النبي ﷺ ٨٠
تعظيم النبي ﷺ وجزاء إيذائه وإيذاء المؤمنين ٩٤
آية جلباب النساء لستر العورة ١٠٦
تهديد المنافقين وجزاؤهم ١١٠
توعد الكفار بقرب الساعة وبيان نوع جزائهم ١١٤
تحريم الإيذاء الذي لا يؤدي إلى الكفر والأمر بالتقوى ١١٩
أمانة التكاليف وأثرها في تصنيف المكلفين ١٢٤
سورة سبأ ١٣١
تسميتها ومناسبتها لما قبلها ومشتملاتها ١٣١
صفات الملك والقدرة والعلم لله تعالى ١٣٣
إنكار الكفار الساعة وموقف الناس من آيات الله وجزاؤهم ١٣٦

استبعاد الكفار قيام الساعة واستهزاؤهم بالرسول ﷺ والاستدلال على البعث ١٤٣
نعم الله على داود عليه السلام ١٤٧
نعم الله على سليمان عليه السلام ١٥١
قصة سبأ وسيل العرم ١٦٠
إبطال شفاعة آلهة المشركين ١٧٢
إقرار المشركين بأن الله هو الرازق وإعلامهم بالحاكم ووقت الحكم.................... ١٧٧
إنكار المشركين القرآن والحوار يوم القيامة بين الضالين والمضلين ١٨٦
تسلية النبي ﷺ ظاهرة الكفر بين المترفين واعتدادهم بالأموال والأولاد............. ١٩١
تقريع الكفار يوم القيامة أمام معبوداتهم ٢٠٠
أسباب تعذيب الكفار.. ٢٠٤
تهديد الكفار بشديد العقاب وإيمانهم حين معاينة العذاب............................ ٢١٤
سورة فاطر.. ٢١٨
بعض أدلة القدرة الإلهية والتذكير بنعم الله وإثبات التوحيد والرسالة ٢٢٠
تقرير الحشر والتحذير من الشيطان وجزاء الكافرين والمؤمنين.......................... ٢٢٧
من دلائل القدرة الإلهية لإثبات البعث.. ٢٣٣
من دلائل الوحدانية والقدرة الإلهية.. ٢٤١
سبب العبادة والمسؤولية الشخصية وانتفاع العابدين بالإنذار........................ ٢٤٧
مثل المؤمن والكافر وإرسال الرسل في الأمم.. ٢٥٢
العلوم العملية الطبيعية دليل آخر على وحدانية الله وقدرته وحال العلماء أمام مشاهد الكون ٢٥٧
تصديق القرآن لما تقدمه وأنواع ورثته وجزاء المؤمنين.................................. ٢٦٣
جزاء الكافرين وأحوالهم في النار وتهديدهم على كفرهم................................ ٢٦٩
مناقشة المشركين في عبادة الأوثان وإنكار التوحيد ٢٧٥

إنكار المشركين الرسالة النبوية وتهديدهم بالإهلاك ٢٧٩
سورة يس.. ٢٨٧
تسميتها ومناسبتها لما قبلها... ٢٨٧
مشتملاتها ٢٨٨
القرآن والرسول والمرسل إليهم ٢٩٠
قصة أصحاب القرية ـ أنطاكية ٢٩٨